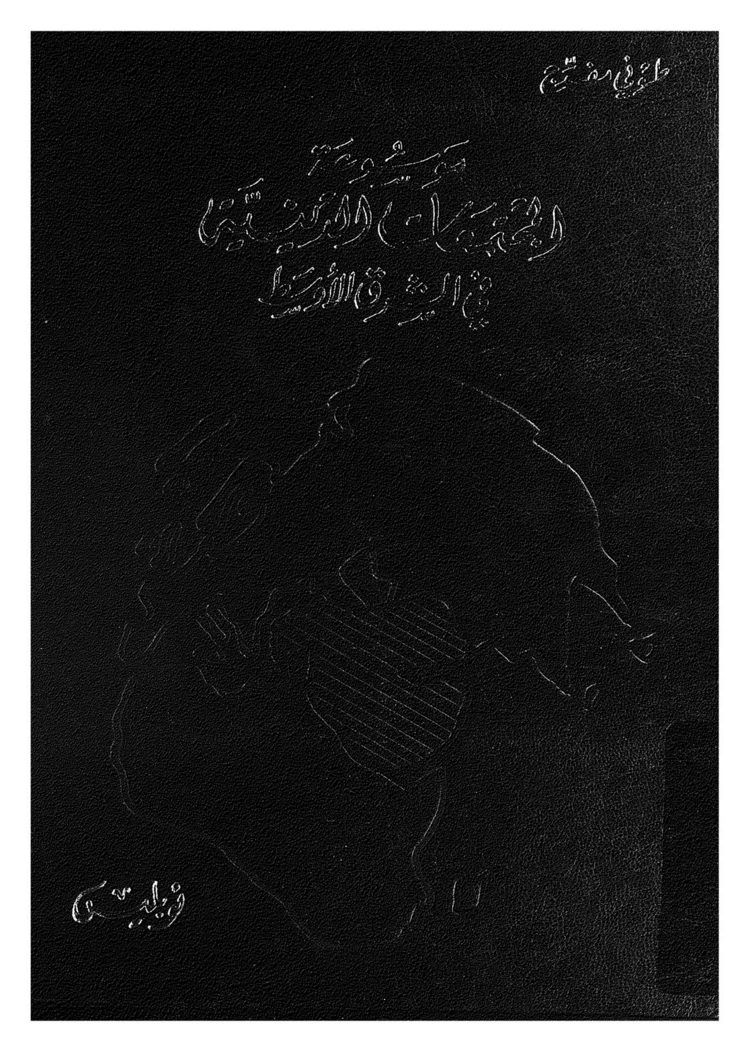

طوني مفرّج
موسوعة
المجموعات الإتنية
في الشرق الأوسط
نوبليس

موسوعة المجتمعات الدينية
في الشرق الأوسط

نوبـيـلـيس
الأشرفيّة – بيروت – لبنان

الطبعة الثانية ٢٠٠٣

طوني مفرج

مَوسُوعَة

المجتمعات الدينية في الشرق الاوسط

المجلد الثاني

المسيحيون (١)

نوبليس



القديس لوقا كاتب الانجيل الثالث، جالساً على مقعد يكتب انجيله الموجّه الى الوثنيين



لوحة الثالوث الأقدس لروبليف من فنّ الأيقونة البيزنطي



كاتدرائية القديس بطرس في روما

نماذج من الدهاليز التي كان يختبىء فيها المسيحيون الاوائل في روما بإيطاليا

محتوى المجلد الثاني

الفصل الأوّل

مؤسّس المسيحية

- عصر المسيح
- يسوع
- الرسالة
- الصلب والقيامة

في ذلك الزمان، كان العصر يونانياً ـ رومانياً، فكانت الحضارة المسيطرة على بلدان المتوسّط هلّينيّة، جاءت نتيجة الانسجام بين الحضارتين اللاتينيّة واليونانيّة منذ القرن الأوّل قبل الميلاد. وكان ذلك الانسجام قد أدّى إلى «تسوية» لمصلحة اللغة اليونانيّة التي بقيت لغة التعامل في الشرق، فيما أصبحت اللاتينيّة اللغة الرسميّة في الإدارة. وبينما أثبت الرومان تفوّقهم في الجانب التنظيميّ والسياسيّ، تفوّق اليونان في الفنون والفلسفة. وفي إطار هذا التزاوج الحضاريّ، كانت الحياة السياسيّة في هذه المنطقة التي كانت مدنها تمارس احتفالاتها ولهوها ونشاطها الفكري، بينما كانت الجماعات المحّلية تتمتّع بشيء من الاستقلال الذاتيّ في ظلّ تلك السلالات التي سمح لها الرومان بالبقاء في مراكز السلطة المحلّيّة تحت قيود قليلة، ومنها سلالة هيرودس في اليهوديّة، يقابلها سلالة الحارث في البتراء، وأذينة في تدمر. وقد احتفظت الجماعات المحلّيّة بدياناتها ولغاتها وعاداتها الخاصّة. بينما أخذ الرومان على عاتقهم مسؤوليّة الأمن والحماية، بواسطة الجيوش الإيطاليّة، مقابل جزية كانت تؤخذ من السكّان المحلّيّين عوضاً عن الخدمة العسكريّة.

وسط هذا النظام، لم يعد الكاهن الأعظم في اليهوديّة ملكاً، بل أصبح رئيس طائفة، وكانت الارستقراطيّة اليهوديّة هي التي تعيّنه. أمّا اللغة المحلّيّة، فكانت الآراميّة التي أضحت اللغة المحكيّة في كامل المنطقة من قبل شعوبها الساميّة، وكان المثقّفون من أهل البلاد يكتبون بلغة واحدة، هي اليونانيّة. إلاّ أنّ اليهود قد احتفظوا باللغة العبريّة في صلواتهم، كلغة مقدّسة.

هذا التنوّع البشريّ، في استقراره، أدّى إلى قيام مدن ذات نماذج مختلفة جنباً الى جنب في الطرف الجنوبيّ للهلال الخصيب. فإلى جانب المدن القديمة على الساحل، ومنها غزّة وعسقلان ويافة وعكّة، وكانت جميعاً قد اصطبغت بالهلّينيّة،

قامت المدن اليهوديّة التي بنتها الأسرة الهيروديّة ومنها: قيصريّة على الساحل، وسبسطية وطبريّة وقيصريّة فيليبّي، يليها بعض المستعمرات الرومانيّة القليلة، ومنها نيابولس - أي المدينة الجديدة - التي كانت تعرف بـ«شَكيم» قديماً، واصبحت تعرف فيما بعد باسم «فلافيا نياپولِس»، وهي نابلس اليوم. ومنها عمواس على مسافة سبعه أميال الى الشمال الغربيّ من أورشليم وهي غير عمواس التي كانت تقع على الشمال الغربيّ من أورشليم.

وبقي في الداخل حلف «المدن العشر» أو «الديكّابولِس». ومنها: بيت شان، وبيلا، وديون، وجرش، وفيلادلفيا، - هي عمّان اليوم - وجدرة، وسواها من المدن الواقعة اليوم في الأراضي السوريّة[1].

دينيّاً، كانت الوثنيّة على تعدّدها هي السائدة عند غير اليهود. أمّا اليهود، فقد طرأ على جماعاتهم ظهور بعض المذاهب، مما وزّعهم على طوائف دينيّة وسياسيّة مختلفة لكلّ منها كهانة وأسلوب حياة، وكان أشهر تلك الطوائف خمساً: الصدّوقيّين، والفريّسيين، والأساة، والغلاة، والسامريّين.

الصدّوقيّون هم أتباع «صدّوق» وأسرته، ويَعتبر هؤلاء أنّ «صدّوق» وسلالته كانوا يتولّون أمر الكهانة الدينيّة منذ عصر داود وسليمان. وكان الصدّوقيّون متشدّدين في مقاومة السلوك غير اليهوديّ، متشبِّثين بالتقاليد، مؤيِّدين لسلطان الهيكل والكهانة الدينيّة. وكان هؤلاء محترفي كهانة، متوسّعين في أساليب المتعة والمعيشة، لا يرفضون التوسّع في الحياة بمشاركة الأجانب، والاندماج فيهم، رغم ادّعائهم التمسّك بالتقاليد.

الفرّيسيّون، تعود تسميتهم إلى «فروشيم» العبريّة، وترجمتها المميّزون. وكان هؤلاء أقوى من الصدّوقيّين بكثرة العدد وشيوع المبادئ والآراء، كما أنّ

---

١ - الدكتور فيليب حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت ١٩٥٨) ج ١، ص ٣١١ - ٣٥١

سمعتهم بين جميع الفئات اليهوديّة كانت حسنة. رغم كلّ هذه المعطيات، لم يصل الفريسيّون إلى السلطة. مما جعلهم يعوّضون عن ذلك بالادّعاء الدينيّ، والتعالي في السلوك المحافظ بشكل واضح الأنانيّة والاستعلاء.

«الأساة» أو الأسيّون، طائفة يهوديّة عاصرت الميلاد، كانت تعتبر نفسها الجزء الوحيد المتبقّي من صميم الأمّة الإسرائيليّة، وكان أتباع هذه الطائفة مستقلّين بشعائرهم وعباداتهم وآرائهم وبكلّ ما له علاقة بأسرار الدّين والكهانة التي خلعوها على ذاتهم، وكانوا منطوين على أنفسهم، وهم قلّة بجانب المجموعات البشريّة اليهوديّة التي كانت تنقاد للصدّوقيّين والفرّيسيين. أمّا منشأ تسمية الأساة، فمن المرجّح أنه يعود إلى جذر ساميّ يفيد عن الحكمة أو الطبّ. فيكون معنى اسمهم «أطباء الروح» أو «الحكماء». والظاهر أن جماعات «الأساة» كانوا فعلاً يقومون بمحاولة إبراء المرضى بالصلوات والأوراد بالدرجة نفسها التي كانوا يدّعون بها العلم بخصائص الموادّ والعقاقير.

«الغلاة»، وهم طائفة يهوديّة أخرى من الطوائف الخمس التي كانت موجودة زمن ولادة المسيح، ويعتبر بعض الباحثين أنّهم فرع من الأساة، وكان هؤلاء متطرّفين ومبالغين في سلوك التقشّف إلى حد الصنعة الدينيّة المبتذلة، لذلك عُرفوا بالغلاة، كما عُرفوا بالجليليّين من أتباع يهوذا الجليليّ. وكانوا على قلّة عددهم ينظّمون حركات تمرّد ويقودون عصابات يهوديّة في مواجهة الأوامر القيصريّة. إلاّ أنّ هذه الحركات قد انتهت عندما تمكّن الوالي الرومانيّ من قتل يهوذا الجليليّ، فلم يبقَ من أتباعه سوى مسلك المبالغة في التقشّف الدينيّ الاستعراضيّ.

أمّا الطائفة الخامسة، في هذا السياق، فكانت الطائفة السامريّة، التي كانت تمثّل خليطا من اليهود والمتهوّدين من أشوريّين وسواهم، لذلك كانت الطوائف الأخرى في حالة نبذ دائم للسامريّين بسبب عدم انتمائهم للعرق العبرانيّ الأصيل. وإذ لم يبالِ السامريّون بنبذ سائر الطوائف، بنوا لهم هيكلاً مارسوا فيه شعائر

هيكل بيت المقدس، ومارسوا فيه عبادتهم طوال مائتي سنة، حتّى هدمه أحد كهّان بيت المقدس خلال حملة قاسية كان هدفها التخلّص من آثاره، ولكنّ السامريّين أعادوا بناء هيكلهم في مكانه الأصيل في جرزيم السامرة، والى السامرة ينتسب هؤلاء في اسمهم.

كان السامريوّن، على عكس ما يدّعي خصومهم، يزعمون بأنّهم البقيّة الباقية على الدين الصحيح، وذلك استناداً الى أنّ يعقوب، الجدّ الأعلى للعبريّين، قد بنى معبده المكرّس لله في السامرة، وسمّاه «بيت إيل[1]»، وإلى أنّ موسى كان يجعل قبلته نحو «بيت إيل». ويعتبرون أنّ «داود وسليمان» قد غيّرا في شكل المجتمع الدينيّ بحسب هواهما، حتّى حوّلاه إلى مملكة الفرعون أو بختنآسر، وأنّهما حوّرا القبلة القديمة، مثلما غيّر الأنبياء الذين ظهروا بعد موسى شكل الدين وشوّهوه وحرّفوه[2].

أمّا عقيدة السّامريّين فتتلخّص بأربع نقاط:

الإيمان بإله واحد، وبأنّ هذا الإله روحانيّ بحت.

الإيمان برسوليّة موسى ويشوع بن نون.

الإيمان بتوراة موسى، وبأنّها كلام الله.

الإيمان بأنّ جبل جرزيم المجاور لنابلس هو المكان المقدّس الحقيقيّ، وهو القبلة الحقيقيّة الوحيدة لبني إسرائيل.

وكان السامريّون ينتسبون إلى هارون أخي موسى، وينتخبون كاهنا أعظم يسمّونه «الكاهن اللاويّ» أي المتحدّر من سبط لاوي (أو ليڤي) الذي يتحدّر منه موسى وهارون، وكثيراً ما يكتفون بتسميته بلقب «الحبر الكبير».

---

١ - راجع: الدكتور حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي: أطواره ومذاهبه، معهد البحوث والدراسات العربيّة. (بيروت ١٩٧١) ص ٢٤٨ - ٢٦٤

٢ - راجع: صابر طعيمة، التاريخ اليهوديّ العام، دار الجيل، (بيروت ١٩٩١) ج ٢، ص ٢٦٣ - ٢٨٠

بين هذه الطوائف الخمس، كانت القيادة العمليّة في المجتمع اليهوديّ زمن المسيح للفرّيسيّين وهم «المميّزون». أمّا العامّة من اليهود «الربّانيّين» فكانوا يوصفون على ألسنة زعمائهم الروحيّين بالصفة العبريّة «عام ها أرض» أي «عوام الأرض» أي «الجهّال». وكان الفرّيسيّون، مقابل ذلك، يلقّبون أنفسهم بلقب «حسيديم» أي «الأتقياء»، وبلقب «حبيريم» أي «الرفاق والزملاء»، ولعلّها أصل استعمال العرب لكلمة «الأحبار» أي «علماء اليهود[1]».

هذه الطوائف اليهوديّة، قبَيل ولادة يسوع، كانت على مذاهبها، تنتظر مجيء مسيح مخلّص موعود على ما جاء في التوراة.

أمّا السلالة الحاكمة، فكانت الأسرة الهيروديّة. وكان هيرودس الكبير، ابن أنتيباتر، مؤسس السلالة الهيروديّة، قد جعل أورشليم مقرّ حكمه، ووطّد سلطته كملك، وبقي يدير الأمور لمدّة ثلاث وثلاثين سنة، ولكن لحساب رومة. «فشجّع المصالح الرومانيّة على حساب المصالح القوميّة، ونجح، حيث فشل الحكّام الرومان، في جعل اليهوديّة بالقوّة شبه مملكة هلّنستيَّة. وبدأ في مشروع إنشاء أبنية عامّة بدّل وجه البلاد تماماً. وقد بنى في أورشليم ميدانا لسباق الخيل ومسرحاً مدرّجاً وأقام ألعاباً عامّة، وكانت كلّها لا تتّفق مع اليهوديّة. وزيادة على ذلك أعاد بناء المعبد. وكانت السامرة مقرّه المحبّب، فزيّنها بالأبنية وأعاد تسميتها باسم سباسطية Sebaste، وكلمة سيباستيوس اليونانيّة تعني «أوغوسطس»، وكان ذلك تكريماً لأوغوسطس قيصر. وليزيد في سرور الأمبراطور سيّده أعاد بناء برج ستراتون على الساحل وسمّاه قيصريّة التي قُدّر لها أن تصبح فيما بعد عاصمة فلسطين الرومانيّة. وقد تزوّج هيرودس عشر نساء وذبح بعضهنّ مع بعض أفراد أسرته وسحق، بقسوة، المعارضة لحكمه المطلق.

هيرودس هذا، وهو الذي عُرف بهيرودس الكبير، والذي حصل من مجلس

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢

الشيوخ الرومانيّ على لقب «ملك اليهود»، كان مستبداً إلى درجة ظالمة. ولم يكن قتله لثلاثة من أولاده إضافة الى زوجته المفضّلة مريم، إلا بسبب وساوسه وشكوكه، وهكذا أمر بقتل أطفال بيت لحم الأبرياء لمّا سمع من المجوس بميلاد ملك اليهود، ظنّاً منه أنّه بذلك يتخلّص من منافسه الطفل يسوع الذي سيصبح ملك اليهود. بيدَ أنّ هيرودس هذا قد مات بعد ميلاد يسوع بسنتين أو ثلاث ليقتسم المملكة من بعده أبناؤه الثلاثة: أرخيلاوس، وهيرودس أنتيپاس، وفيليپُّس[١].

ففي ذلك التاريخ، كانت فلسطين تتألّف من ولايات. كانت الضفّة الغربيّة تضمّ ثلاثاً منها هي: اليهوديّة، وأهمّ مدنها وقراها القدس وبيت لحم وعين كارم وعمواس والرامة (رنتيس اليوم)، وأفرام (طيّبة رام الله اليوم) وبيت عنية وأريحة. أمّا السامرة، فكانت تضمّ إضافة الى مدينة السامرة، سوخار، وبئر يعقوب (قرب نابلس) وغيرها من البلدات الواقعة بين اليهوديّة وبيريا والجليل. والجليل كانت تضمّ الناصرة، وقانا، وطبريّة، ومجدلة، وكفرناحوم، وبيت صيدا.

وكانت الضفّة الشرقيّة (أو عبر النهر) تضمّ مقاطعة بيريا والمدن العشر، وهي مدن مستقلّة في الشرق والشمال الشرقيّ من الأردنّ، وتمتدّ حتّى دمشق، وكان أكثر سكّان تلك المدن من الوثنيّين. وكانت مدينة أورشليم العاصمة الدينيّة والسياسيّة معاً لليهود، الذين كان نظامهم تيوقراطيّاً، بحيث يُعتبر الله القائد الدينيّ والسياسيّ. وكانت أورشليم، وهي التي تضمّ داخل أسوارها هيكل سليمان، وهو المكان المكرّس لعبادة الربّ الإله، ذات أهمّيّة كبرى في تاريخ يسوع، إذ إنّ اليهود توقّعوا أن تكون عاصمة ملك المسيح المنتظر، وفيها يتمّ تنصيبه ملكاً. وكان هيرودس الكبير قد عزّز أسوار المدينة التي جمّلها بأبنية فخمة منها قصره الملكيّ، وأعاد تشييد هيكل سليمان بشكل غنيّ. ففي زمن المسيح كان الهيكل الهيرودسيّ والقصر الملكيّ وبيت قيافا وعلّيّة صهيون داخل الأسوار. أمّا جبل الزيتون وجبل الجلجلة فكانا خارج أسوار المدينة.

---

١ - راجع الجزء الاوّل من هذه الموسوعة، ص ١٤٦ وما يليها.

في ذلك الزمان، كانت الأمبراطوريّة الرومانيّة قد بلغت شأواً عظيماً، فشملت بعضاً من ثلاث قارّات: أوربّة وآسية وإفريقية. وفي ظل هذه الدولة عاشت أمم متباينة وشعوب مختلفة في التاريخ والحضارة والعرق والدين، في ظلّ إدارة واحدة، وسلام شامل، عُرف بالسلام الرومانيّ Paxa Romana. وكان الأمبراطور: أغسطس قيصر (٦٣ ق.م. - ١٤ م.) حفيد يوليوس قيصر، على رأس تلك الأمبراطوريّة المترامية الأطراف[١].

في هذه الأجواء، وُلد في قرية صغيرة من أعمال ولاية الجليل من فلسطين، طفل «ابن نجّار». وكانت تلك القرية تُعرف بالناصرة، وكان ذلك الطفل: يسوع، الذي سيُنسب الى الناصرة... والذي سيَقسم مولده التاريخ إلى قبْل وبعد. إلاّ أن «المؤرِّخ لم يكن ليحفل بوجود ابن نجّار في ولاية نائية من الأمبراطوريّة جمع بعض الأتباع حوله وعلّم وبشّر وشفى ثمّ «صلب بسبب معتقداته[٢]». وقد ظهر مؤرّخ شابّ معاصر كان في الوقت ذاته من أبناء دينه (يهوديّاً) ومن مواطنيه، فخصّص له أي «لهذا الرجل الحكيم» و «صانع الأعمال الخارقة» كما قال عنه، مقطعاً صغيراً ينتهي بهذه الملاحظة: «وعشيرة المسيحيّين التي سُميّت بالنسبة إليه ليست منقرضة اليوم[٣]». وهناك مؤرّخ لاتينيّ ذكر «المسيح» بصورة عرضيّة، مشيراً إلى أنّه «تعرّض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس بموجب حكم الحاكم بيلاطس البنطيّ»، هذا المؤرّخ هو تاسيتوس Tacitus[٤]. وتبقى الأناجيل المصدر الوحيد المفصّل لحياة يسوع.

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٣

٢ - راجع: الأب يوسف نعمات (من كهنة البطريركية اللاتينيّة الأورشليميّة)، بُشرى الخلاص (حياة سيدنا يسوع المسيح من خلال الأناجيل الأربعة) (بيروت ١٩٨١) ص ٩ - ٢٢

٣ - Josephus, Antiquities of the jews. TRANS. BY. William Whiston, Newed. 2 vols (LONDON 1897) BK. XVIII, ch 3, S 3.

٤ - Tacitus, BK,XV, ch. 44

عُرف مؤسّس المسيحيّة باسمين، منفصلين أحياناً ومتَّحدين أحياناً أخرى. أمّا الاسمان فهما يسوع المسيح. ويعود أصل كلمة يسوع إلى الصيغة الهلّينيّة ليشوع Joshua التي أتت من Johosua، وهي كلمة عبرانيّة معناها: يهوه الخلاص. وكلمة المسيح، هي ترجمة للكلمة العبرانيّة مشيا، أو مشياح Mâshiâh التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود، وبالتالي للملك الموعود[1] الذي كان ينتظره اليهود. أمّا معنى الكلمة، فهو: «المكرّس بالمسحة». وإذا كانت حياة يسوع المسيح لم تلقَ الاهتمام من قبل مؤرِّخي زمانه، فإنّ الذين عرفوه من قرب، قد اقتنعوا، من خلال ملازمته، بأنّه كان غير عاديّ، وبأنّه ابن الله، ممّا جعلهم يبدّلون طريقة حياتهم جذريّاً، ليسيروا على خطاه، دون أن يتردَّدوا في بذل الذات في سبيل هذا المعتقد.

حفظ تلاميذ المسيح ورسله في ذاكرتهم كلّ ما قاله الربّ في حياته وكل ما فعله. وراحوا ينقلون مشافهة ما رأوا وسمعوا ولمسوا من كلمة الحياة إذ كانوا شهود عيان. ثم شرع بعضهم يدّون من تلك التعاليم التي كرز بها يسوع، وذلك في وقت مبكّر، كان لا يزال فيه من اتّبعوا المسيح يعتبرون نصوص العهد القديم كتابهم المقدّس الأوحد، وسمّوا تلك النصوص «الشريعة والأنبياء» وفقاً للاصطلاح اليهوديّ في تلك الأيام. ولكن مسيحيّي الجيل الأوّل هؤلاء، وخاصّة الكتبة منهم، أخذوا يستشهدون، إضافة إلى نصوص العهد القديم، بما أجمعوا على تسميته «الربّ». وكان هذا الاسم يُطلق على كلّ من التعليم الذي ألقاه يسوع[2]، وسلطة ذلك الذي قام من بين الاموات وتكلّم بلسان الرسل[3].

---

١ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٣

٢ - راجع: رسالة بولس الاولى إلى أهل قورنتس، ٩: ١٤

٣ - راجع: رسالة بولس الثانية إلى أهل قورنتس، ١٠: ٨، ١٨

بقي التقليد الإنجيليّ في معظمه متناقلاً على ألسنة الحفّاظ، إلى أن شرع بعض الرسل بتدوين التعاليم التي ستؤلّف فيما بعد العناصر الرئيسيَّة للعهد الجديد، ولكنّ ذلك لم يحصل قبل السنوات الواقعة ما بين سنة ٦٠ وسنة ٧٥م.، إذ بدأ بالتدوين مرقس، وتبعه متّى ثم لوقا. أمّا يوحنّا فكتب إنجيله نحو نهاية القرن الأوّل.

هذه المدوّنات الرسوليّة، هي الأناجيل[١]، وهي بشرى الخلاص في شخص يسوع المسيح التي اعلنها كلّ من الإنجيليّين الأربعة في روايته لأقوال يسوع وأعماله ولموته وقيامته[٢].

هذه الأناجيل، غدت مصدرنا الرئيسيّ عن حياة المسيح. «وإذا كان لبعض حوادث حياة المسيح أو تعاليمه ما يشابهها في التراث الدينيّ لبلاد الشرق القديم، فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يجد في إيّ مكان آخر مثل هذه الخلاصة المحكمة من الأفكار النبيلة وهذا التأكيد على المثل السامية، كما أنّه ليس باستطاعة أحد أن يكتشف في أيّ زمن شخصاً طبّق ما علّمه بمثل هذه الصورة التامّة[٣]».

كان لمجيء يوحنّا المعمدان قبل يسوع، معنى مهمّاً عند الإنجيليّين الذين استشهدوا[٤] بآية من سفر إشعيا من العهد القديم تقول: «... صوت مناد في البريّة: أعدّوا طريق الربّ واجعلوا سبل إلهنا في الصحراء قويمة. كلّ واد يُردم، وكلّ جبل وتلٍّ يُخفض، والطرق المنعرجة تُقوّم، والوعرة تُسهّل، وكلّ بشر يرى خلاص الله[٥]». وإذ كان اليهود في حالة انتظار لمجيء المسيح، كان الشعب ينتظر، وكلّ يسأل نفسه عن يوحنّا: هل هو المسيح؟ فأجاب يوحنّا «قائلاً لهم

١ - الأناجيل، جمع إنجيل. وأصل الكلمة يونانيّة، ومعناها «بشرى»، أي بشرى الخلاص. (راجع مرقس ١ : ١) في اليونانية «إيڤانجيليون».

٢ - الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٢٥.

٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣٦٤

٤ - متّى ٣ : ٣؛ يوحنّا ١ : ٢٣؛ لوقا ٣ : ٤ ـ ٦

٥ - سفر إشعيا ٤٠ : ٣ ـ ٥

أجمعين: أنا أعمّدكم بالماء، ولكن يأتي من هو أقوى منّي، من لست أهلاً لأن أفكّ رباط نعليه، إنّه سيعمدكم في الروح القدس والنار. بيده المذرى، ينقّي بيدره، فيجمع القمح في أهرائه وأمّا التبن فيحرقه بنار لا تطفأ[1] ».

راح يوحنّا يعمّد الناس في نهر الأردنّ، وكانت معموديّته هذه لليهود مرتبطة بالتوبة، وباعتراف المتعمِّدين بخطاياهم، إلى أن جاء شابّ في الثلاثين من عمره، يقال له يسوع، ليعتمد هو أيضاً على يد يوحنّا، «فانفتحت السماء، ونزل الروح القدس عليه في صورة جسم كأنّه حمامة، وأتى صوت من السماء يقول: ـ أنت ابني الحبيب عنك رضيت[2] ـ .

أمّا الذي سبق ذلك الظهور القدسيّ من إشارة إلى أنّ هذا الشابّ الثلاثينيّ ليس شخصاً عاديّاً، فكان ممانعة يوحنّا في البداية لأن يعمّده وهو يقول له: «أنا أحتاج إلى الاعتماد عن يدك، أوَأنتَ تأتي إليّ؟» فأجابه يسوع: «دعني الآن وما أريد، فهكذا يحسن بنا أن نتمّ كلّ برّ[3] ».

ذلك الشابّ الثلاثينيّ غير العاديّ، كانت قد ولدته قبل ثلاثين سنة امرأة عذراء من بنات الناصرة، اسمها مريم، كانت مخطوبة لرجل من سلالة داود يعمل نجّاراً اسمه يوسف. وعندما علم يوسف بأنّ خطيبته حامل، دون أن يقربها، عزم على أن يطلّقها سرّاً، ولكنه تراجع عن عزمه هذا إثر حلم تراءى له فيه «ملاك الربّ» وأعلمه أنّ «الذي كُوّن في مريم هو من الرُّوح القدس» وقال له إنّها ستلد ابناً، طلب إليه «أن يسمّيه يسوع، لأنّه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم[4] ». وكان في هذا إتمام لما جاء على لسان النبيّ: «ها إنّ العذراء تحمل فتلد ابناً يسمّونه عمّانوئيل[5] » أي «الله معنا». وقد فعل يوسف بموجب قول ملاك الرب،

---

١ ـ لوقا، ٣ : ١٥ ـ ١٨ ؛ قابل: يوحنا ١ : ١٩ ـ ٢٠، ٣ : ٢٨ ؛ أعمال الرسل ١٣ : ٢٥
٢ ـ لوقا، ٣ : ٢١ ـ ٢٢ ؛ مرقس ١ : ٩ ـ ١٠ ؛ يوحنا ١ : ٣٢ ـ ٣٤
٣ ـ متّى، ٣ : ١٤ ـ ١٥
٤ ـ راجع: لوقا، ٢ : ١ ـ ٢٠
٥ ـ متّى، ١ : ١٨ ـ ٢١ ؛ لوقا، ١ : ٣١ ـ ٣٥

وأتى بامرأته الى بيته. وبعد أشهر، كان على يوسف أن يذهب مع امرأته الحامل إلى بيت لحم ليكتتب في الاحصاء الذي أمر أغوسطس قيصر (٢٩ ق.م. ـ ١٤ م.) بإجرائه على أهل الأمبراطوريّة. وبينما كانا ينتظران دورهما للاكتتاب، حان وقت ولادة مريم، وإذ لم يكن لهما موضع في المضافة، ولدت مريم ابنها البكر، فقمّطته وأضجعته في مذود.

كان أوّل من تلقّى إشارة بمولد يسوع، أولئك الرعاة الذين لم تكن سمعتهم حسنة في إسرائيل في ذلك الزمان، لأنّهم كانوا يعيشون على هامش جماعة العاملين بأحكام الشريعة. فلقد كانوا من الوضعاء والفقراء. وإذ كان بعض هؤلاء «يتناوبون السهر في الليل على رعيّته حضرهم ملاك الربّ» وبشّرهم بفرح عظيم: «وُلد لكم اليوم مخلّص في مدينة داود، وهو المسيح الربّ».

وبحسب تعليمات الملاك، انتقل الرعاة إلى بيت لحم، وقصدوا مسرعين المكان الذي وجدوا فيه مريم ويوسف والطفل مضّجعا في المذود، ولمّا رأوا ذلك جعلوا يخبرون بما قيل لهم في ذلك الطفل[1].

في الوقت نفسه، قدم منجّمون إلى أورشليم، كانوا يُعرفون بالمجوس، وسألوا: «أين ملك اليهود الذي وُلد؟ فقد رأينا نجمه في المشرق، فجئنا نسجد له». وكان هذا سبباً لأن يُقدِم هيرودس على قتل كلّ طفل في بيت لحم وجميع أراضيها، لأنّه خشي على ملكه من ذلك الذي وُلد على أنّه ملك لإسرائيل.

بهذا، تحقّقت نبوءتان: الأولى تلك التي قالت: «أنتِ يا بيت لحم أفراتة، إنّك أصغر عشائر يهوذا، ولكن منك يخرج لي من يكون متسلّطاً على إسرائيل، وأصوله منذ القديم، منذ أيّام الأزل[2]». والثانية تلك التي جاء فيها: «صوت سُمع في الرّامة، بكاء ونحيب شديد، راحيل تبكي على بنيها، وقد أبت أن تتعزّى لأنّهم زالوا عن الوجود[3]».

---

١ ـ سفر إشعيا، ٧ ـ ١٤

٢ ـ سفر ميخا، ٥ : ١

٣ ـ سفر ارميا، ٣١ : ١٥

في هذه الأثناء، كان يوسف قد أخذ الطفل وأمّه ليلاً ولجأ إلى مصر، عملاً بما طلب منه فعله ملاك الربّ في الحلم لإنقاذ الطفل من مجزرة هيرودس. فأقام هناك إلى وفاة هيرودس لتتمّ بذلك نبوءة أخرى: «من مصر دعوت ابني[١]». وبعد عودة يوسف وعائلته من مصر، أقام معها في الناصرة.

لا تفيدنا الأناجيل بغير نتف قليلة عن حياة يسوع بين طفولته ومعموديّته على يد يوحنّا وهو في سنّ الثلاثين. من تلك النتف خبر جلوسه بين المعلّمين في هيكل أورشليم لمدّة ثلاثة أيّام وهو ابن اثنتي عشرة سنة، يستمع إليهم ويسألهم، «وكان جميع سامعيه معجبين أشدّ الإعجاب بذكائه وجواباته». وكان أبواه قد صعدا الى أورشليم جرياً على السنّة في عيد الفصح[٢]. وتذكر الأناجيل أن يسوع، الذي سكن مع أبويه في الناصرة، كان يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس[٣].

الرسالة

لم يبدأ يسوع رسالته قبل اعتماده على يد يوحنّا ومن ثمّ إقامته في البرّيّة أربعين يوماً حيث قاوم تجارب الشيطان، ولم يعد منها إلى الجليل إلاّ بعد بلوغه خبر اعتقال يوحنّا. وهنا يبدأ يسوع أعماله.

لم يختر يسوع مكاناً لكرازته يقتصر وجود الناس فيه على اليهود مثلما كان يفعل آخرون، كأهل قمران أو يوحنّا المعمدان، ولكنّه افتتح رسالته في «جليل الأمم»، حيث بدأ بتوجيه تعليمه إلى أكثر الأسباط تعرّضاً لظلمة الوثنيّين. وبذلك انفتحت رسالته على جميع الأمم. فقد ترك الناصرة منتقلاً إلى مدينة تقع

---

١ - سفر هوشع، ١١ : ١؛ راجع: متّى ٢ : ١٥

٢ - راجع: لوقا ٢ : ٤١ - ٤٩

٣ - لوقا، ٢ : ٤٠، ٥١ - ٥٢

شماليّ بحيرة طبريّة، اسمها كفرناحوم. وكانت هذه المنطقة منسوبة في التراث اليهوديّ إلى سبَطَين من أسباط إسرائيل: زبولون ونفتالي. وبإقامة يسوع في كفرناحوم، تحقّقت آية أخرى من نبوءة إشعيا: «أرض زبولون وأرض نفتالي، طريق البحر، عبر الأردنّ، جليل الأمم. الشعب المقيم في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، والمقيمون في بقعة الموت وظلاله أشرق عليهم النور[1]»

بدأ يسوع كرازته بالعبارة نفسها التي كان يكرز بها يوحنّا: «توبوا، قد اقترب ملكوت السموات[2]». ثمّ راح يختار تلاميذه، وكان الأوائل منهم أربعة من صيّادي الأسماك في بحيرة طبريّة هم: سمعان الذي يقال له بطرس وأخوه إندراوس، ويعقوب ابن زبدى وأخوه يوحنّا.

إختصر يسوع رسالته وتعاليمه من خلال عظته الأولى، التي تضمّنت الخطوط العريضة للمسيحيّة. وهي تلك العظة الموصوفة بالعظة الكبرى، التي شرع بها تعاليمه إلى تلاميذه، بعد أن أثبت قدرته السماويّة بشفاء شعب الجليل من كلّ مرض وعلّة «فشاع ذكره في سورية كلّها، فأتوه بجميع المرضى المصابين بمختلف العلل والأوجاع من الممسوسين والذين يُصرعون في رأس الهلال والمقعدين فشفاهم. فتبعته جموع كثيرة من الجليل والمدن العشر وأورشليم واليهوديّة وعبر الأردنّ[3]»، بعد أن عرّف عن أنّه المسيح المنتظر، من خلال أسفار العهد القديم. وكان لمّا أتى الناصرة، حيث نشأ، «دخل المجمع يوم السبت على عادته، وقام ليقرأ. فدُفع إليه سفر النبيّ إشعيا، ففتح السفر، فوجد المكان المكتوب فيه: - روح الربّ عليّ، لأنه مسحني لأبشّر الفقراء، وأرسلني لأعلن للمأسورين تخلية سبيلهم، وللعميان عودة البصر إليهم، وأفرّج عن المظلومين، وأعلن سنّة رضاً عند الرب[4] -». وبعد أن اكتفى بهذا القدر من القراءة، طوى السفر فأعاده إلى الخادم وجلس.

---

١ - متّى، ٤ : ١٥ - ١٦؛ قابل: سفر إشعيا، ٨ : ٢٣؛ ٩ : ١
٢ - متى، ٣ : ٢؛ ٤ : ١٧
٣ - متى، ٤ : ٢٣ - ٢٥
٤ - سفر اشعيا، ٦١ : ١ - ٢؛ راجع: لوقا، ٤ : ١٤ - ١٩

وكانت عيون أهل المجمع كلّهم شاخصة إليه. فأخذ يقول لهم: «اليوم تمّت هذه الآية بمسمع منكم[1]».

في عظته الكبرى، رسم يسوع خطوط البرّ المسيحيّ الجديد، وذلك من خلال أقسامها: التطويبات، ثمّ البرّ الكامل، ثمّ التوضيحات، فالتنبيهات وتوضيحاتها.

في التطويبات، قال يسوع: طوبى[2] لفقراء الروح، فإنّ لهم ملكوت السّموات. طوبى للودعاء، فإنّهم يرثون الأرض. طوبى للمحزونين، فإنّهم يُعزّون. طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، فإنّهم يُشبعون. طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحمون. طوبى لأطهار القلوب، فإنّهم يشاهدون الله. طوبى للساعين إلى السلام، فإنّهم أبناء الله يُدعَون. طوبى للمضطهدين على البرّ، فإنّ لهم ملكوت السموات. طوبى لكم، إذا شتموكم واضطهدوكم وافتروا عليكم كلّ كذب من أجلي، إفرحوا وابتهجوا: إنّ أجركم في السموات عظيم، فهكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم[3]».

هذه التطويبات، من شأنها أن تختصر الروح المسيحيّة الجديدة، وأساسها المحبّة، محبّة الله ومحبّة الإنسان. وأعطت هذه المفاهيم الدينيّة الجديدة للمضطهدين وعديمي الحظّ الأمل في حياة ثانية تقدّم للأبرار المسرّات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا. وفي الوقت نفسه، حثّت التطويبات على البذل والعطاء، وعلى تحمّل الاضطهادات التي نبّه يسوع من خلال التطويبات الى مستقبل حدوثها.

بعد التطويبات، حث يسوع تلاميذه على الالتزام بالتعاليم: «أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح، فأيّ شيء يملّحه؟ إنّه لا يصلح بعد ذلك إلاّ لأن يطرح في خارج الدار فيدوسه الناس[4]». كما حثّهم على إعطاء المثل الصالح، وعلى الاجتهاد

---

١ ـ لوقا، ٤: ٢٠ ـ ٢١
٢ ـ طوبى: كلمة من أصل عبري معناها: «هنيئاً لـ... » أو «ما أسعد». وهي من أسلوب الكتاب المقدس.
٣ ـ متّى، ٥: ٣ ـ ١٢
٤ ـ متّى، ٥ ـ ١٣

في الكرازة وتعميم الرسالة: « أنتم نور العالم. لا تخفى مدينة على جبل، ولا يوقد سراج تحت المكيال، بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت، هكذا فليضئ نوركم للناس ليروا أعمالكم الصالحة، فيمجّدوا أباكم الذي في السموات[1] ».

وحرص يسوع على الربط بين الشريعة القديمة ودعوته الجديدة من خلال التأكيد على أنّ هذه الدعوة، إنّما هي تتمّة لمسار فكرة الله عند الإنسان: «لا تظنّوا أنّي جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل بل لأكمّل[2] ». ولكنّ «هذا الإكمال» يتطلّب مزيداً من البرّ: «إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين لا تدخلوا ملكوت السموات». وهنا يشرح يسوع هذا التسامي في الرسالة الدينيَّة، وذلك الترقّي المفروض على الإنسانيّة في ظلّ المسيحيَّة: « سمعتم أنّه قيل للأوّلين: لا تقتل، فإنّ من يقتل يستوجب حكم القضاء[3] . أمّا أنا فأقول لكم: من غضب على أخيه استوجب حكم القضاء، ومن قال لأخيه يا أحمق، استوجب حكم المجلس، ومن قال له يا جاهل استوجب نار جهنّم[4] ...». ومثل هذا التشديد أورده يسوع بالنسبة للزنى، وللطلاق، ولاحترام العزّة الإلهية، وللتسامح، ولأعمال البرّ، وللصلاة، وللصوم، ولعمل الخير، واختصر فلسفة التعاطي بين الناس مسيحيّاً بالقاعدة المثلى: «فكلّ ما أردتم أن يفعل الناس لكم، إفعلوه أنتم لهم: هذه هي الشريعة والأنبياء[5] ».

وفي النهاية يحذّر يسوع من الأنبياء الكذّابين «فإنّهم يأتونكم في لباس الخراف، وهم في باطنهم ذئاب خاطفة[6] ». أمّا التنبيه الأخير الذي جاء في عظة

---

١ - متّى، ٥ : ١٤ - ١٦؛ قابل: يوحنا، ٨ : ١٢؛ لوقا، ٨ : ١٦؛ ١١ : ٣٣؛ مرقس ٤ : ٢١؛ يوحنا ٣ : ٢١

٢ - متّى، ٥ : ١٧؛ راجع رسالة بولس إلى أهل رومة، ٣ : ٣١

٣ - راجع: سفر الخروج، ٢٠ : ١٣

٤ - متّى، ٥ : ٢١ - ٢٢

٥ - متّى، ٧ : ١٢؛ قابل: لوقا، ٦ : ٣١؛ ورسالة بولس إلى أهل رومة، ١٣ : ٨ - ١٠

٦ - متّى، ٧: ١٥؛ راجع رسالة بطرس الثانية، ٦ : ٤٣ - ٤٤

يسوع الكبرى، فقد كان ذا علاقة بيوم الحساب: «ليس من يقول لي: ـ يا ربّ، يا ربّ ـ يدخل ملكوت السموات، بل من يعمل بمشيئة أبي الذي في السموات. فسوف يقول لي كثير من الناس في ذلك اليوم: ـ يا ربّ، يا ربّ. أمَا باسمك تنبأنا؟ وباسمك طردنا الشياطين، وباسمك أتينا بالمعجزات الكثيرة؟ ـ فأقول لهم علانيّة: ـ ما عرفتكم قطّ. إليكم عنّي أيّها الأثمة! ـ فمثَل من يسمع كلامي هذا فيعمل به كمثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح، فثارت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنّ أساسه على الصخر. ومثل من سمع كلامي هذا فلم يعمل به كمثل رجل جاهل بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح، فضربت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه شديدا[1] ».

قضى يسوع الجزء الأوّل من أيّام رسالته في الجليل. فبعد كفرناحوم، راح وتلاميذه الأربعة، يجول في قرى الجليل، حيث كان يشفي المرضى المصابين بمختلف العلل. وكان هؤلاء يقصدونه حيث وُجد ليشفيهم. في هذه الأثناء، ضمّ يسوع إلى رسله الأربعة الأوّلين، تلميذه الخامس: متّى، الذي يرد اسمه أيضاً « لاوي بن حلفى ». وكان هذا جالساً في بيت الجباية عندما مرّ يسوع من هناك، فقال له « اتبعني » فقام وتبعه[2]. ويرى التقليد الكنسيّ في هذا الرسول مؤلّف الإنجيل الأوّل. وفي بيت هذا الرسول، جلس يسوع إلى الطعام ومعه تلاميذه، وإلى المائدة كثير من العشّارين الذين كان اليهود ينظرون إليهم نظرتهم الى الخاطئين الذين لا يحفظون الشريعة، والذين لا بدّ من الإعراض عنهم، لأنّهم كانوا يستغلّون غالباً وظيفتهم للاغتناء بالمال الحرام. وكان الى جانب هؤلاء بخلال المأدبة عدد من الخاطئين. فأخذ الكتبة والفرّيسيّون على يسوع أنّه يأكل مع العشّارين والخاطئين. غير أنّ يسوع قال لهم: « ليس الأصحّاء بمحتاجين إلى طبيب بل المرضى، ما جئت لأدعو الأبرار بل الخاطئين[3] ».

---

١ ـ متى، ٧ : ٢١ ـ ٢٧ ؛ قابل: لوقا: ١٣ : ٢٦ ـ ٢٧
٢ ـ متّى، ٨ : ٩ ؛ قابل: مرقس ٢ : ١٣ ـ ١٤ ؛ لوقا ٥ : ٢٧ ـ ٢٨
٣ ـ مرقس، ٢ : ١٥ ـ ١٧

وفي الجليل، أتمّ يسوع جمع تلاميذه. فبعد سمعان بطرس، وإندراوس، ويعقوب ابن زبدى وأخيه، ويوحنّا، ومتّى، وبينما كان في جبل الجليل والناس محتشدون حوله، دعا الذين أرادهم فأقبلوا إليه، فاختار إضافة إلى الخمسة المذكورين: فيلبّس، وبرتلماوس، وتوما، ويعقوب بن حلفى، وتدّاوس، وسمعان الغيور، ويهوذا الإسخريوطيّ.

وبموازاة استقطاب يسوع للنّاس والتفافهم حواليه، كان الكتبة والفريسيّون يسعون إلى محاربته، فيتّهمونه حيناً بأنّ رئيس الشياطين يسكنه، وحيناً آخر بأنه سيّد الشياطين. ذلك أنّ يسوع قد عنّف «الكتبة والفرّيسيِّين المرائين، الذين يقفلون ملكوت السموات في وجوه الناس، فلا هم يدخلون، ولا الذين يريدون الدخول يدعونهم يدخلون[1] » كما أورد التفاصيل الواضحة عن خروج هؤلاء عن الشريعة والدين[2]. فلقد كان هؤلاء كما سواهم من رجال الكهانة اليهوديّة بعيدين كلّ البعد عن تعاليم المسيح.

أولئك كانوا جامدين في القديم، والمسيح كان تجديداً، وقد رأى أنّ «ما من أحدٍ يشقّ قطعة من ثوب جديد، فيجعلها في ثوب عتيق، لئلاً يشقّ الجديد وتكون القطعة التي أخذت من الجديد لا تلائم العتيق. وما من أحد يجعل الخمرة الجديدة في زقاق عتيقة، لئلاً تشقّ الخمرة الجديدة الزقّاق فتراق هي، وتتلف الزقّاق. بل يجب أن تُجعل الخمرة الجديدة في زقاق جديدة. وما من أحد إذا شرب معتّقة، يرغب في الجديدة لأنّه يقول: المعتّقة هي الطيّبة[3] ».

بعد هذا، لم يعد من مجال للتساؤل كيف أنّ المسيح اختار تلاميذه من غير أهل الكهانة ومن غير الكتبة، ولكنّه اختار «للخمرة الجديدة زقاقاً جديدة». كما أنّه لم يتوقّع من اولئك الكتبة والكهّان أن يستسيغوا تعاليمه، لأنّ «ما من أحد

---

١ - مرقس، ٣ : ١٣ - ٢
٢ - راجع: متى، ٢٣ : ١٣ - ٣٦؛ لوقا، ١١ : ٣٩ - ٤٨
٣ - لوقا ٥ : ٣٦ - ٣٩؛ متّى، ٩ : ١٦ - ١٧؛ مرقس، ٢ : ٢١ - ٢٢

إذا شرب معتّقة، يرغب في الجديدة». فكان الخصام بين القديم والجديد: بين يسوع وقادة اليهود. وإذ لا تقرّ تعاليم يسوع بالعداء والبغضاء والتآمر ومقاومة الشرّ بالشرّ، فإنّ أولئك كانوا أحراراً في انتهاج تلك الأساليب، خاصّة وأنّهم قد رأوا في ذلك الثائر بالمحبّة، خطراً أكيداً على مكانتهم القياديّة، لا بل نهاية محتّمة لذلك الدور الذي اعتقدوا أنّ الله قد خصّهم به إلى الأبد لهم ولذراريهم من بعدهم. وأكثر من ذلك، فقد لمسوا في تعاليم الثائر بالمحبّة انفتاحاً على سائر الأمم، لا بل مساواة بين الأمم، وفي ذلك نهاية لاعتبار شعبهم شعب الله المختار. فعندما كان يعلّم في المجمع، في الناصرة، قال لهم: «لا شكّ أنّكم تقولون لي هذا المثل: يا طبيب إشفِ نفسك. فاصنع ههنا في وطنك كلّ شيء سمعنا أنّه جرى في كفرناحوم». وأضاف: «الحقّ أقول لكم: ما من نبيّ يُقبَل في وطنه. وبحقٍّ أقول لكم: كان في إسرائيل كثير من الأرامل في أيّام إيليّا، حين احتبست السماء ثلاث سنوات وستة أشهر، فأصابت الأرض كلّها مجاعة شديدة[1]، ولم يرسَل إيليّا إلى واحدة منهنّ، وإنّما أرسل إلى أرملة من صرفت صيدا. وكان في إسرائيل كثير من البرص على عهد النبيّ أليشاع، فلم يبرأ واحد منهم، وإنّما برئ نعمان السوريّ» فثار ثائر جميع الذين في المجمع عند سماعهم هذا الكلام. فقاموا ودفعوه إلى خارج المدينة وساقوه إلى حرف الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيّة عليه ليلقوه عنه، ولكنّه مرَّ من بينهم ومضى[2].

ولإدراك الحال الذي كان واقعاً في نفوس أبناء المجتمع اليهوديّ آنذاك، لا بدّ من تقدير ما كانت بلغته بلايا إسرائيل، بحيث لم يبقَ من المعقول أن يرجو الناس بعده ظهور «مشيح» بشريّ يستطيع أن يعيد ذات يوم إلى الشعب المختار كرامته. فكانوا ينتظرون من الله وحده تبديل الحالة، وكانوا يرون أنّ ذلك التحوّل الذي ينتظرونه بفروغ الصبر لن يحدث إلاّ لمصلحة انقلاب يشمل الكون كلّه إذ يظهر بغتة عالم جديد برمّته. ففي ذلك المشهد لرؤيا الأزمنة الأخيرة ليس

١ - راجع: رسالة القديس يعقوب، ٥ : ١٧؛ سفر الملوك الاوّل، ١٧ : ٩؛ سفر الملوك الثاني، ١٧ : ٩
٢ - لوقا، ٤ : ٢٣-٢٩؛ راجع: يوحنّا، ٨ ـ ٥٩

لـ« المشيح » نصيب كبير في جميع الآراء، فإنّ مؤلّفي الرؤى، عندما تكلّموا عليه، كفّوا، على ما يبدو، عن أن يروه، شأنهم في الماضي، « مشيحا » دنيويّاً مسحه يهوه. وبعبارة أخرى، ملكاً من ذريّة داود، يقوم بأعمال سياسيّة وعسكريّة في جوهرها، ليحقّق بعون الله تحرير الشعب وازدهاره. فهم يميلون بعد ذلك إلى إظهار « المشيح » بمظهر كائن من الملأ الأعلى أقرب إلى الله منه إلى البشر، ويطلَق عليه في بضع رؤى اسم ابن الإنسان، ولكنّه يظلّ في جوهره وجهاً سماوياً ليس له صلة حقيقيّة بالناس وغير قابل للألم[1].

في هذا الوقت، بقي يسوع مُصرّاً على عدم الكشف عن أنّه « ابن الله ». فيوم كان في المجمع في كفرناحوم، وصاح رجل بأعلى صوته موجّهاً كلامه إليه: « آه! ما لنا ولك يا يسوع الناصريّ، أجئت لتهلكنا؟ أنا أعرف من أنت: أنت قدّوس الله » فانتهره يسوع بقوله: « إخرس واخرج منه » فصرعه الشيطان في وسط المجمع، وخرج منه[2]. وعلى شاطئ طبريّا، تلقاه رجلان ممسوسان بعد أن سكّن العاصفة، وأخذا يصيحان: « ما لنا ولك، يا ابن الله؟ أجئت إلى هنا لتعذّبنا قبل الأوان؟ » فكان أن طرد يسوع الشياطين من الرجلين، فدخلت في الخنازير، كما هو معروف[3]. وكان الشيطان فور اعتماد يسوع على يد يوحنّا قد حاول تجربته عندما تحدّاه بأن يحوّل الحجارة إلى أرغفة إن كان ابن الله[4].

وعندما طرح على تلاميذه هذا السؤال: « من أنا في قول الجموع؟ » فأجابوا: « يوحنّا المعمدان ». وبعضهم يقول « إيليّا ». وبعضهم « نبيّ من الأوّلين قام ». فقال لهم: « ومن أنا في قولكم أنتم؟ » فأجاب بطرس: « مسيح الله ». نهاهم بشدّة عن أن يخبروا أحداً بذلك[5].

---

١ - راجع: الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ١٩
٢ - لوقا ٤ : ٣٣ - ٣٥؛ راجع: مرقس ١ : ٢٤؛ لوقا ١ : ٣٥
٣ - متى ٨ : ٢٨ - ٣٢؛ مرقس، ٥ : ١ - ٢٠؛ لوقا ٨ : ٢٦ - ٣٩
٤ - راجع: متّى، ٤: ٣ - ١١؛ لوقا، ٤: ١ - ١٣؛ مرقس، ١: ١٢ - ١٣
٥ - لوقا، ٩ : ١٨؛ متّى، ١٦ : ١٣ - ١٦؛ مرقس، ٨: ٢٧ - ٣٠

وقد ربط بعض الإنجيليين ربطاً وثيقاً بين السكوت الذي فرضه يسوع على تلاميذه في شأن «مشيحيتّه» والإنباء بموته الوشيك، فبعد أن «نها الرسل بشدّة عن أن يخبروا أحداً بذلك» قال لهم: «يجب على ابن الإنسان أن يعاني آلاماً شديدة، وأن يرذله الشيوخ وعظماء الكهنة والكتبة، وأن يُقتل ويقوم في اليوم الثالث[١] ».

وبعد أن قضى يسوع حوالى ثلاث سنوات يعلّم ويكرز ويبرئ المرضى ويقيم الموتى ويزرع الأمل في النفوس، كان ما هو معلوم أمره من صلبه على يد اليهود.

الصلب والقيامة

كان لا بدّ لابن الإنسان من «أن يعاني آلاماً شديدة، وأن يرذله الشيوخ وعظماء الكهنة والكتبة، وأن يُقتل ويقوم في اليوم الثالث[٢] » حتّى تكتمل الرسالة. وهذا ما تمّ فعلاً، وما حقّق بعض ما جاء في المزامير: «لماذا ضجّت الأمم، والى الباطل سعت الشعوب؟ ملوك الأرض قاموا وعلى الربّ ومسيحه تحالف الرؤساء جميعا[٣] ». بيد أنّ المسيح سيحقّق بموته خلاص إسرائيل، وسيضمّ إلى شعب واحد الذين ينتمون إلى الآب في العالم. فإنّ «حبّة الحنطة التي تقع في الأرض، إن لم تمت، تبقى وحدها. وإذا ماتت، أخرجت ثمراً كثيراً[٤] ».

وقبل أن يتمّ يسوع ما في الكتب، ودّع رسله الذين سيحملون رسالته إلى العالم، ودّعهم بتلك الوصيّة الخالدة: «أحبّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم[٥] ...»

وبقيامته من بين الأموات، وترائيه لتلاميذه بعد تلك القيامة، قبل أن ينفصل عنهم ويُرفع إلى السماء، تمّت الرسالة، وبدأ عهد جديد، كان على الرسل أن يبشّروا به في جميع الأمم.

١ ـ لوقا، ٩ :٢٢؛ قابل : متّى ١٦ : ٢١؛ مرقس ٨: ٣١
٢ ـ راجع: لوقا، ٩ : ٢٢
٣ ـ المزمور ٢ : ١ ـ ٢
٤ ـ يوحنّا، ١٢ : ٢٤
٥ ـ يوحنّا، ١٣ : ٣٤.

الفصل الثاني

المسيحيّة في قرنها الأوّل

- الانتقال من اليهوديّة الى المسيحيّة
- الانتقال من الوثنيّة الى المسيحيّة
- بولس «رسول الأمم»، ورفاقه
- كنيسة إنطاكية بعد كنيسة أورشليم
- البدع والهرطقات
- التنظيم الكنسيّ
- الانتشار المسيحيّ
- الحياة المسيحيّة في القرن الاول

الانتقال من اليهودية الى المسيحية[1]

كانت ديانة الشعب اليهوديّ تجعل منه شعباً فريداً. هذا الشعب، كتابه، وضعه أناس مقتنعون بأنّ اللّه دعاهم لتكوين شعب يحتلّ مكاناً في التاريخ بتشريعه ومبادئه في الحياة الفرديّة والجماعية.

وبموجب هذا الكتاب، فإنّ إسرائيل لم يكن يعرف إلاّ إلهاً واحداً لا يُرى، ويفوق كلّ شيء، وهو الربّ. وكان يعبّر عن صلته بالله بلفظ يعتبره حقوقيّاً «العهد». وكان يُخضع وجوده كلّه لهذا العهد وللشريعة الناتجة منه. فازداد نمط حياته تعارضاً مع نمط حياة سائر الأمم. فكلّ القسم العبريّ من الكتاب المقدّس يتعلّق بهذا العهد كما عاشه إسرائيل وفكّر به حتّى القرن الثاني قبل المسيح، فإنّ جميع النزعات التي تحرّك هذه الجماعة منطلقها الكتاب المقدّس.... والشريعة، وهي تكرّمه على أنّه كلمة الرّب. واليهود يقرأونه ويبنون عليه ممارستهم في إطار تقاليد متأصلّة في حياة إسرائيل القديم، وُضعت بعد دمار الأمّة وكوّنت «المشنة» و«التلمود» و«المدارس».

وهكذا فإنّ اليهود، لا يعودون يهوداً، إذا هم تخلّوا عن الكتاب، وبالتالي عن اعتبار «العهد» ، وعن خاصّة «الشعب المختار».

حتّى الذين تبعوا المسيح منهم، إنّما هم تبعوه على أنّه «المشيح» الذي أرسله الربّ ليخلّص شعبه! حتّى هؤلاء ، لم يكونوا مستعدّين على الإطلاق لأن يتخلّوا عن الاعتبارات القديمة تلك، بكلّ ما لتلك الاعتبارات من معنى.

أمام هذا الواقع، واجهت المسيحيّة في أوّل عهدها في أرض اليهود، مسألة في غاية الأهمّيّة والتعقيد: كيفيّة الانتقال من اليهوديّة الى المسيحيّة، من الخلاص

١- راجع المجلّد الاوّل من هذه الموسوعة تحت عنوان: اليهود ـ الفصل التاسع ـ ص ١٨٠ وما يليها.

بالشريعة، الى الخلاص بالإيمان والنعمة. فبينما كان الرسل الأوائل يبشّرون بالمسيحيّة، كان بعض اليهود الذين آمنوا بالمسيح، يتبعونهم ليقولوا للوثنيّين الذين اعتنقوا المسيحيّة: «إذا لم تختتنوا على سنّة موسى، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص[١] ». والذين آمنوا بالمسيحيّة من الفرّيسيّين قالوا: «ويجب ختن الوثنيِّين وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة موسى[٢].» وكان المهتدون الكبار الى المسيحيَّة أنفسهم، لا يستطيعون أن يفصلوا بين الشريعة اليهوديّة والتجدّد المسيحيّ بمعزل عن سننها. حتّى أنّ بولس نفسه، في البداية، لم يسعه إلاّ أن يؤكّد أمام الحاكم فيلكس، وإن على سبيل المفارقة، أنّه باتّباعه «الطريقة» ، ولأنّه مسيحيّ، لم يزل أميناً لما يؤمن به إسرائيل ويرجوه[٣]. ولم يشذّ بطرس عن هذه القاعدة[٤]. وإسطفانس ، وهو أحد الشمامسة السبعة الذين اختارهم الرسل بعد عيد العنصرة، والذي يُعتبر أوّل الشهداء المسيحيّين، كان أقلّ عداء للشرّيعة ممّا يظنّه خصومه[٥]. وكانت الكنيسة في اليهوديّة، مع أنّها كنيسة، لا تزال غائصة غوصاً عميقاً في اليهوديّة[٦].

بيد أنّ بولس وهو الذي كان أساساً من أشدّ مضطهدي المسيحيّة، يوم كان اسمه شاول، قبل أن يهتدي على طريق دمشق حوالى سنة ٣٣م. قد تعمّد على يد حننيّا[٧]، ثم اختلى في شمال جزيرة العرب مدّة ثلاث سنوات، باشر بعدها تبشير الأمم الوثنيّة فكان رسولها الممتاز، حتّى لقِّب برسول الأمم. بولس هذا، لم

---

١ - أعمال الرسل، ١٥ : ١
٢ - اعمال الرسل، ١٥ : ٥
٣ - راجع: أعمال الرسل، ٢٦ : ٢٢؛ ٢١ : ٢٦؛ ٢٢ : ١٧
٤ - راجع: أعمال الرسل، ١٠ : ٩ - ١٤
٥ - راجع: أعمال الرسل، ٦ : ١٣
٦ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، دار المشرق، (بيروت ١٩٩١) ص ٣٧٠
٧ - حننيّا: تلميذ الرسل. كان يقطن دمشق. لجأ إليه القديس بولس بعد رؤياه على طريق دمشق فقبل العماد منه

يلبث أن اقتنع بوجوب تحرير المسيحيّة من الموسويّة. وكذلك فعل برنابا، اليهوديّ القبرصيّ الذي اهتدى إلى المسيحيّة، ورافق بولس في تبشيره. وعندما بلغ الفرّيسيّين وسواهم من المتنصّرين اليهود في أورشليم مضمون دعوة بولس وبرنابا، بدأ صراع شديد بين الفئتين بعد عودة الرسولين من رحلتهما الأولى بين الأمميّين في «المشرق»، فتقررّ الاحتكام إلى مجلس الرسل والكهنة الأساقفة في أورشليم. فكان موتمر الرسل هناك سنة ٤٩. وقد خرجت نظريّة بولس منتصرة بفضل تأييد بطرس، الذي اقتنع بوجوب تحرير المسيحيّة من الموسويّة، وتأييد يعقوب، وأسقف أورشليم، أمّ الكنائس[١].

حرّر ذلك الموتمر المسيحيّ الأوّل المسيحيّين الأمميّين من الشريعة والختان، لكنّه ترك النصارى من بني إسرائيل أحراراً في إقامة التوراة والإنجيل معاً، والعماد والختان معاً، والسبت والأحد معاً[٢]. ولقد كان انتصار المسيحيّة المحرّرة من اليهوديّة، انتصاراً بالتراضي، علماً بأنّ هذا التراضي ينقذ روح المشاركة في الكنيسة. وقد بقي الجوهر سالماً: فسواء كان ختان أم لا، لا يخلص المسيحيّون إلاّ بالإيمان وبنعمة المسيح[٣]!

بيدَ أنّ غلاة المتنصّرين من بني إسرائيل، لم يغفروا أبداً لبولس دعوته لتحرير المسيحيّة من الموسويّة. وهكذا كان موتمر الرّسل سبباً غير مباشر لانقسام أهل الإنجيل إلى فئتين: فئة «النصرانيّة» من بني إسرائيل، وفئة «المسيحيّة» المهتدين من الأمميّين. وتكتّل النصارى حول يعقوب، وانتسب المسيحيّون إلى بولس.

تمحورت عقيدة «النصارى» حول ثلاثة أركان:

---

١ - راجع: أعمال الرسل، ١٥ : ٥ ـ ٢٢
٢ - راجع: أعمال الرسل ١٠ : ١؛ ١٠ : ٢٨ و ٣٥؛ ١١ : ٢٠ ـ ٢١؛ ١٥ : ١ و ٥؛ ١٥ : ٤ ـ ٢٩
٣ - راجع: أعمال الرسل ١٥ : ٩ و ١١

١) إقامة التوّراة والإنجيل معاً.

٢) إعتبار يسوع المسيح « كلمة الله وروحاً منه » . ففسروا « كلمة الله » بأنّه « ملاك كلمة الله » أي ملاك حلّ في يسوع الناصريّ، بخلاف النظريّة المسيحيّة التي تؤمن بأنّ « كلمة الله » من ذات الله، وهو بالتالي نطقه الذاتيّ.

٣) إعتبار حلول كلمة الله في يسوع ظاهريّاً، لا تجسّداً أو تأنّساً، وقد فارق المسيح قبل الآلام يسوع الناصريّ، ولمّا رجع المسيح الكلمة إلى يسوع في القبر قام من الموت وارتفع حيّاً إلى السماء[١].

الانتقال من الوثنية إلى المسيحية

إذا كانت الديانة اليهوديّة بكل ما كان لها من تمييز لشعب الله المختار على سائر الشعوب، قد جعلت أتباعها يتشبّثون بقوانينها ومفاهيمها رغم اعتناقهم المسيحيّة، لأنّ هؤلاء اعتبروا مجيء المسيح متمّماً لتلك الديانة، فـ« المشيح » ابن داود، إنّما هو مخلّص شعب « الربّ » من مظالم سائر الشعوب، ولا يمكن بالتالي أن يكون مخلّصاً لجميع الأمم، بما فيها تلك التي كان إسرائيل يسعى للتخلّص من حكمها.... فإنّ الديانة الوثنيّة، على تفرّعاتها، قد شكلّت، في الوقت نفسه، عوائق جمّة في نفوس أتباعها أمام المسيحيّة.

إعتبر المتعمّقون في دراسة تاريخ شعوب المنطقة أنّه « لا بدّ من أن تكون المسيحيّة قد بدت للمواطن الرومانيّ المتوسّط، حتّى أواخر القرن الأوّل للمسيح، كمذهب يهوديّ غامض، وأنّها من الفلسفات الكثيرة، الأخرى التي كانت تنتشر من الشرق الأدنى. وكانت نواة المجتمعات المسيحيّة الأولى مؤلّفة من اليهود. وعندما أعلنت المسيحيّة تحدّيها للديانات القديمة، قام الكتّاب اليونان واللاتين

١ - راجع: يوسف درّه الحداد، فلسفة المسيحية. ص ٣١٦ - ٣١٧

يحاربون الدين الجديد، وكانت الأديان القديمة بالنسبة لهؤلاء الكتّاب تقترن بالأمجاد الماضية للتاريخ القوميّ. وكانت بالنسبة للرومان، بصورة عامّة، رموزاً للسلطة الأمبراطوريّة... وكانت عبادة الأمبراطور أكثر عبادات الدولة قوّة وانتشاراً، وقد أنشأها أوغسطس، وأصبحت تعبيراً مادّيّاً للولاء نحو العرش[1]».

لم تكن ديانة الأم مجرّد عقيدة نظريّة يُعترف بها، ولكنّها كانت ممارسة يوميّة من قبل الفرد والجماعة، تداخلت فيها الشؤون الحياتيّة في العمل واللهو وفي ظروف الحياة العامّة والخاصّة. فلقد كانت أمور الحرب والسلام تبدأ وتختتم بتقديم القرابين، بخلال احتفالات رسميّة طقسيّة كبرى، وكانت المشاهد العامّة جزءاً أساسيّاً في عبادة الوثنيّين، «المرحة». أضف إلى ذلك ما كان يجري في تلك المجتمعات من حفلات إباحيّة، لا بدّ أنّها كانت تشكل للإنسان العاديّ المتنفّس الوحيد للحياة، وبخاصّة تلك الاحتفالات الموسميّة التي كانت تشهد أشدّ مظاهر الابتهاج والاباحيّة.

كان على الإنسان الوثنيّ، أن يتخلّى عن كلّ تلك المباهج، لكي يتبع الدين الجديد. ذلك الدين الذي وعد بحياة بعد الحياة الدنيا. إلاّ أنّه ليس من السّهل على الإنسان أن يتخلّى عمّا يعتبره فردوساً مُعاشا أملاً بفردوس موعود. لذلك، لم يكن المسيحيّون الأوائل من الوثنيّين، أولئك الذين كانوا يتمتّعون على الأرض بما اعتبروه فردوساً، بل كانوا من المنبوذين والمقهورين والفقراء والمساكين، تماماً مثلما كان أوائل المسيحيّين من اليهود.

حتّى ذلك التاريخ، لم يكن قد ظهر، سوى المسيحيّة، عقيدة، خاصّة في الوسط الهلنستي، اتّخذت المحبّة فلسفة أساسيّة لها. ولو كانت الرّواقيّة وحدها قد سارت، أو حاولت السير في ذلك الاتّجاه. ولم تُعرف أيّة عقيدة سابقة تقول بأنّ هناك إلهاً فادياً يهتمّ بأحطّ أفراد الجنس البشريّ مثلما بأعظمهم. كما أنّه لم

---

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨

تكن لأيّة منها رسالة حيّوية تتوجّه الى الفقير والمنبوذ، كما تتوجّه الى العشّار والخاطىء من اليهود. وقلّما أثّرت أيّة دياتة وثنيّة في الدوافع الداخليّة للسلوك والحياة. فقد كانت كلّها تهتمّ بصورة رئيسيّة بالطقوس. ولم توجِد أيّة منها مثل ذلك الارتباط الفعّال بين الدين والأخلاق، أو تخصّص مثل ذلك الاهتمام للحياة الثانية كما فعلت المسيحيّة، التي قرنت الحياة الأخلاقيّة بالدين، بصورة وثيقة. فأصبح الإحسان عندئذ من أعمال الإيمان بدلاً من أن يكون من أعمال العدل. وأعطى الدين الجديد للمضطهدين وعديمي الحظّ الأمل في حياة ثانية تقدّم للأبرار المسّرات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا. وكان اليونان والرومان يمنحون الخلود لمن كان محسناً لشعبه فقط، أو لمن أُدخل في إحدى ديانات الأسرار، التي كانت آلهتها بالأصل آلهة نبات، ثمّ اصطبغت في هذا العصر بالهلّينيّة تماماً، وتبنّاها اليونان والرومان. وكان ديونيسيوس، إله الخمر، من أقدم هذه الآلهة، فهو روح حياة النبات بوجه عام. وكانت إيزيس المصريّة أرفع الآلهة المؤنّثة شأناً. وقد اعترف كاليغولا، الأمبراطور الرومانيّ (٣٧-٤١م.) بها بين العبادات الرومانيّة الرسميّة. وبلغ من شيوع عبادة إيزيس أنّها انتشرت في جميع الأمبراطوريّة في القرنين الأوّل والثاني الميلاديّين.

ومن ديانات الأسرار ديانة «ميثرا»، وهو بالأصل إله الشمس عند الفرس. وقد استهوت عبادة «ميثرا» الجنود الرومان بشكل خاص، إذ كان هذا الدين يصوّر الحياة كصراع مستمرّ بين إله خيّر وقوّة شرّيرة. وبدا الأمر لمدّة من الزمن كأن المصير هو إمّا فوز المسيحيّة أو ديانة «ميثرا[1]». ومن صفات ديانات الأسرار كونها سرّيّة. وكان الانتساب إليها مقتصراً على أولئك الذين أتيح لهم الاطّلاع على أسرارها. وكانت آخر مرحلة في الاطّلاع هي إبلاغ الشخص بأنّ الذي يتمتّع بمثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص. وكانوا يبحثون عن الخلاص بواسطة

١ ـ المرجع السابق، ص ٣٦٩

الاتّحاد الشخصيّ مع مخلّص إلهّي اختبر الحياة والموت بنفسه. ومن المظاهر الأخرى لديانات الأسرار التعبير عن المشاعر الشخصيّة بحرّيّة أكثر ممّا تسمح به طقوس الدولة والعائلة[1]. وبما أنّ ديانات الأسرار كانت تنقصها السلطة المعترف بها للعقائد الرسميّة، فإنّها التجأت إلى وسائل جديدة لكي تكسب الأتباع. وكثيراً ما كانت تحوي احتفالاتها عنصراً «تجدّدياً» قد يبلغ حدّ الخلاعة. إضافة إلى أنّ تلك الديانات قد وعدت أولئك الذين قد اجتازوا مراحل الاختبار الضروريّة بحياة سعيدة. وبعد الموت يرتفع المطّلع على الأسرار إلى العالم الإلهيّ ويسكن مع الآلهة.

كذلك كانت هنالك عبادة أخرى في المنطقة تنافس المسيحيّة،هي عبادة «هدد- رومانو» ذي الأصول الساميّة، والذي تحوّل في العصر الهلنستي إلى «زفس» أو «جوبيتير» الذي كان من هيليوبوليس (بعلبك) أو من «هيرابوليس» (منبج). وقد انتشرت عبادته في جميع الأمبراطوريّة. وكانت رفيقته «أثرغاتس» منافسة لـ«إيزيس» ومنهم من يقول: للعذراء[2]. وكان هناك «زفس» أو «جوبيتر» آخر، في بلدة «دوليكه Doliche» التي تعرف بـ«عينتاب[3]» وقد عاش «حيث يوجد الجديد». «جوبيتر دوليكينوس» هذا، هو بالأصل «تيشوب Teshub» إله الحثّيين، نجح بنشر عبادته في الأمبراطوريّة كلّها بصحبة الجيوش الرومانيّة.

أمام هذه المنافسة الدينيّة في المجتمعات الوثنيّة في العصر الميلاديّ الأوّل، كانت المسيحيّة، ذلك الدين الجديد في مجموعة أفكاره وتعاليمه الأخلاقيّة، وفلسفته في الخلود، وعقيدته الراسخة، قادرة كما يبدو، على تلبية المطالب الروحيّة والفكريّة والاجتماعيّة التي كان المتنوّرون غالباً يتطلبونها من دياناتهم التقليديّة في كلّ مكان دون أن ينجحوا في الحصول عليها.

---

١ - المرجع السابق، ص ٣٦٩، استناداً إلى: Franz Cumont, les Religions orientales dans le paganisme Romain, 4ème édition (Paris, 1929) PP. 24 Seq.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٧٠

٣ - المرجع السابق، استناداً إلى: Franz Cumout, Etudes Syriennes, (Paris, 1917) PP, 173 Seq.

كان اليونان والرومان يعتقدون بآلهة متعدّدة، وكانوا بوجه عام متسامحين في موقفهم تجاه معتنقي الديانات الأخرى. والواقع أنّهم ذهبوا إلى حدّ إضافة آلهة جديدة إلى مجموع آلهتهم. وقد سمحوا حتّى في عاصمة أمبراطوريّتهم بالعبادة المصريّة الغريبة، والشعائر اليهوديّة،وأباحوا تمثيل المسرحيّات ، ليس باللغات اللاتينيّة واليونانيّة فحسب، بل باللغات العبريّة والفينيقيّة والآراميّة. وكانت سياستهم في شؤون الدين: «عش ودع الآخرين يعيشون». وبما أنّ المسيحيّين كانوا موّحدين، فإنّهم لم يتمكّنوا من التساهل. وكانوا نشيطين متحمّسين في بحثهم عن أتباع جدد لدياناتهم. وامتنعت جماعاتهم الأولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينيّة والرسميّة في مدنهم. ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العبادات الوثنيّة ، بالإضافة إلى جهدهم المستمرّ في كسب الأتباع، كان لا بدّ من أن يؤدّي إلى الاصطدام ....فالاضطهاد.

بولس، رسول الأمم، ورفاقه

لم يكن بولس الرسول، من تلاميذ المسيح. حتّى إنّه لم يعرف المسيح شخصيّاً، وإن كان «رابّياً» يهوديّاً فرّيسيّاً معاصراً للسيّد المسيح. لا بل هو حارب الدين الجديد بشدّة، إلى أن اهتدى، وهو على طريق دمشق في حوالى سنة ٣٣، فتعمّد على يد حننيّا، ثمّ اختلى في شمال جزيرة العرب مدّة ثلاث سنوات، قبل أن يباشر بعدها تبشير الأمم الوثنيّة في مدن آسية الصغرى ومقدونية واليونان، غير آبه للمصاعب التي أدّت إلى سجنه مرّتين في أورشليم، ومن ثمّ إلى سوقه إلى رومة حيث استشهد بقطع رأسه سنة ٦٧م.

قبل ذلك التاريخ، كان رسل المسيح قد استأنفوا رسالة السيّد بعد صعوده، وبعد أن اختاروا بديلاً ليهوذا الذي «أمسى دليلاً للّذين قبضوا على يسوع»،

فكان ذلك البديل متتيّا الذي ضُمَّ إلى الرسل الأحد عشر[1]. راح بطرس والرسل يدعون اليهود إلى الإيمان بالمسيح مستشهدين بما جاء في كتب العهد القديم من نبوءات حول المسيح. وفي خطبته الأولى إلى اليهود، قال بطرس: «فليعلم يقينا بيت اسرائيل أجمع أن يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم قد جعله الله ربّاً، ومسيحاً[2]». ولمّا كان الناس يقولون لبطرس ولسائر الرسل بعد سماع كلامه «ماذا نعمل أيّها الإخوة؟» كان بطرس يجيب: «توبوا، وليعتمد كلّ منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم، فتنالوا عطيّة الروح القدس. فإنّ الوعد لكم أنتم ولأولادكم وجميع الأباعد، على قدر ما يدعو منهم الربّ إلهنا[3]».

وكان اليهود يتبعون الدعوة بالمئات، بل بالآلاف أحياناً[4].

لم يكن بوسع الرسل أن يتوجّهوا بهذا الأسلوب نفسه إلى الوثنيّين من أجل دعوتهم لاعتناق الدين الجديد. ذلك أنّ الوثنيّين لم يكونوا مؤمنين بالعهد القديم، ولم يكن مجيء المسيح منتظراً من قبلهم، ولم يكن الوعد لهم ولأولادهم....

كان المسيحيّون الأوائل في إسرائيل، يواظبون على متابعة تعاليم الرسل «والمشاركة وكسر الخبز والصلوات» التي يعتبر الباحثون أنها كانت قد أضحت صلاة مسيحيّة بكلّ معنى الكلمة، وما عادت صلاة يهوديّة تقليديّة كما كانت قبل المسيح[5]. «وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة، يجعلون كلّ شيء مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثّمن على قدر احتياج كلٍّ منهم، يلازمون الهيكل كل يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز من البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، وينالون حظوة، عند الشعب كلّه.... وكان الرّب

---

١ - راجع: اعمال الرسل، ١ : ١٥ - ٢٦

٢ - أعمال الرسل، ٢ : ٣٦

٣ - أعمال الرسل، ٢ : ٣٧ - ٣٩

٤ - أعمال الرسل، ٢ : ٤١

٥ - راجع أعمال الرسل، ٤ : ٢٤ وما يليها

يضمُّ كلَّ يوم إلى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص[1] »، ولم تنفع ملاحقة الرسل من قبل الصدّوقيّين والكهنة في منع الناس من حمل مرضاهم إليهم وهم يقيمون في « رواق سليمان » ليشفوهم من أمراضهم. وعندما أمر عظيم الكهنة بسجن الرّسل، فتحت أبواب السجن بشكل غريب، مما زاد في عدد الاتباع والمؤمنين[2]. ومع ازدياد الإقبال عليهم، عيّن الرسل سبعة معاونين لهم هم: إسطفانس، وفيلبّس، وبروخورس، ونيقانور، وطيمون، وبرمناس، ونيقلاوس[3]. وأصبح أحد هؤلاء: إسطفانس، أوّل شهداء المسيحيّة إذ رجمه اليهود إثر خطبته المدافعة عن الدين المسيحيّ أمام عظيم الكهنة بخلال اعتقاله. وعقب ذلك اضطهاد شديد على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتّت المسيحيّون جميعاً، ما عدا الرسل، في نواحي اليهوديّة والسامرة[4].

وإذ راح الرسل يبشّرون وينصّرون في نواحي السامرة، كان رجل مولود في طرسوس، تعلّم في أورشليم، حتّى استطاع أن يصف نفسه بالعبرانّي. وكان اسم هذا الرجل: شاول. وكانت له مكانة مرموقة في مجلس اليهود، وكان من أشدّ مضطهدي المسيحيّين، وواحداً من الذين طلبوا الموت لإسطفانس. وكان شاول في هذه الأثناء « ينفث تهديداً وتقتيلاً لمعتنقي المسيحيّة في اورشليم. وبلغ فيه تشدّده في الاضطهاد أن قصد عظيم الكهنة وطلب منه رسائل إلى مجامع دمشق، حتّى إذا وجد أناساً على هذه الطريقة، رجالاً ونساءً، ساقهم موثقين إلى أورشليم. وبينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نور من السماء قد سطع حوله، فسقط على الأرض، وسمع صوتاً يقول له: « شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ » فقال

---

١ ـ أعمال الرسل، ٢ : ٤٢ ـ ٤٧؛ راجع لوقا، ٢٤ : ٥٣
٢ ـ أعمال الرسل، ٥ : ١٢ ـ ٢١
٣ ـ أعمال الرسل، ٦ : ٥ ـ ٦
٤ ـ أعمال الرسل، ٨ : ١ ـ ٢

«من أنت يا ربّ؟ » قال :«أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل[1] ».

تلك كانت بداية اهتداء شاول، وهو الاسم العبريّ لبولس، الذي تنصّر فيما بعد على يد حننيّا في دمشق، والذي سيصبح فيما بعد «رسول الأمم».

بدأ بولس فور تنصّره في دمشق ، ينادي في المجامع اليهوديّة بأن يسوع هو ابن الله، أي أنّه «المشيح» المنتظر. ممّا أثار يهود دمشق الذين حاولوا أن يغتالوه، فغادرالمدينة خلسة بمساعدة المؤمنين وعاد إلى أورشليم حيث حاول الانضمام إلى التلاميذ الذين لم يأمنوه،بسبب ما عرف به من عداء للدين الجديد. إلاّ أن لاويّاً قبرصيّاً اسمه يوسف ، كان يملك حقلاً كان قد باعه، وأتى بثمنه وألقاه عند أقدام الرسل ، الذين لقّبوه بـ«برنابا» أي «ابن الفرج» أخذ بيد بولس وسار به إلى الرسل الذين يبدو أنّهم قبلوه بينهم بعد أن أطلعهم على حقيقة ما جرى معه.

مرّة ثانية، تعرّض بولس لمحاولة الاغتيال من قبل اليهود، وهذه المرّة في أورشليم، فهرّبه الإخوة إلى قيصريّة، ثم رحّلوه منها إلى طرسوس، مسقط رأسه، حيث أقام بضع سنوات.

في هذه الأثناء قام بطرس الرسول بتعميد أوّل مجموعة من الوثنّيين باسم يسوع المسيح، وذلك في قيصريّة . وكانت ردّة فعل الأتباع الأوائل الذين من أصل يهوديّ، في أورشليم، عنيفة، ضد إقدام بطرس على «دخوله إلى أناس قلف وأكله معهم». ولكنّ بطرس أخبر هؤلاء عن الرؤيا التي أوحى له الله من خلالها بأنْ يعمّد الوثنيّين. «فلمّا سمعوا ذلك، هدأوا ومجّدوا الله وقالوا : قد وهب الله للوثنيّين أيضاً التوبة التي تؤدّي إلى الحياة[2] ».

---

١ ـ أعمال الرسل، ٩ : ١ ـ ٦

٢ ـ أعمال الرسل، ١١ : ٨

كنيسة إنطاكية، بعد كنيسة أورشليم

كان الذين تشتتوا بسبب الضيق الذي وقع على معتنقي المسيحيّة بشأن استشهاد إسطفانوس، قد انتقلوا الى فينيقية وقبرص وإنطاكية، حيث راحوا يحاولون إقناع اليهود بالإيمان بأنّ يسوع هو المسيح. وكانوا، باختلاطهم مع اليونانيّين، يحاولون تبشيرهم أيضاً، وقد آمن من هؤلاء، على ما يبدو، عدد لا بأس به، ممّا جعل كنيسة أورشليم توفد إلى إنطاكية برنابا لرعاية هؤلاء. ولمّا رأى برنابا شدّة الإقبال تلك على الإيمان بالمسيح، سارع إلى طرسوس يبحث عن بولس، واصطحبه إلى إنطاكية، حيث راحا يعملان معاً في تعليم الناس. وهكذا نشأت الكنيسة الإنطاكيّة بعد كنيسة أورشليم، حيث عُرف أتباع الدين الجديد، لأوّل مرّة، بالمسيحيّين[1].

ولن يطول الزمن، حتى تصبح تلك المدينة الوثنيّة الكبيرة: إنطاكية، مركزاً رسوليّاً هامّاً، بالرغم من سمعتها السيّئة التي كانت عليها قبل ذلك التاريخ[2]. وهي المدينة التي كان سلوقوس الأوّل نيكاتور من ملوك سورية السلوقيّين (٣٥٥-٢٨٠ ق.م.) قد أسّسها في حوالى العام ٣٠٠ق.م. على ضفاف العاصي، ودعاها إنطاكية تخليداً لذكرى أبيه أنطيوخوس[3]. ثمّ احتلّها الفاتح الرومانيّ بومبايوس سنة ٦٤ ق.م. فاحترم حقّها في إدارة شؤونها الداخليّة، رغم أنّه جعلها مقرّ الحكم الرومانيّ العامّ، فأضحت عاصمة ولاية سورية. وبقيت فلسطين مرتبطة بها حتى سنة ٧٠م. وقد لقّبت انطاكية بـ «تتراپوليس ـ Tetrapolis» أي: «المدن الأربع» لأنّها كانت إحدى المدن الأربع الكبيرة التي بناها سلوقس: سلوقية، وأبامية، واللاّذقيّة، إضافة

---

١ ـ أعمال الرسل، ١١ : ٢٢ ـ ٢٦

٢ ـ راجع: أعمال الرسل: ١٣ : ١ ـ ٣؛ ١٤ : ٢٦ ـ ٢٨؛ ١٥ : ٣٥ ـ ٣٦؛ ١٨ : ٢٢

٣ ـ راجع: Strabo, Geography, BK. XVI: 749 , 751; Diodorees, XX: 47

إلى إنطاكيـة[1]. لذلك كانت إنطاكية عامرة بالهياكل والقصور والمسارح، وكانت مجهّزة بأقنية المياه التي كانت تتدفّق في عمائرها وحمّاماتها الرومانيّة، كما كانت مجهّزة بطريق ذات أعمدة على جانبيها. وعلى العموم، فقد كانت مجلّلة بأبهى حلل الفخر المدنيّ. وكان العنصر المسيطر في المدينة آنذاك العنصر اليونانيّ، كما كان يقطنها مواطنون من الدرجة الثانية، كالآراميّين واليهود. وكان هؤلاء الأخيرون يمثّلون عِشر مجموع سكّان المدينة الذي كان يبلغ قرابة الأربع مئة ألف نسمة. ويبدو أنّ اليهود كانوا يقطنون في أطراف المدينة عند بوّابتيها الشرقيّة والغربيّة[2] كما كان بعضهم يقوم بأعمال الزراعة في السهول الواقعة قرب المدينة[3]. وتدلّ الدراسات المتعمّقة أن يهود إنطاكية كانوا يومذاك كما في فلسطين، فئتين: الفئة المحافظة والمتمسّكة بالأصوليّة، وجماعة هذه الفئة كانت من المعوزين، ثمّ الفئة المتهلسنة، وأفرادها من الذين انضمّوا إلى الجيش السلوقيّ فأضحوا بذلك يتمتّعون بحقوق المواطن الهلّينيّ[4]. والسائد أنّ يهود إنطاكية كانوا، في بداية المسيحيّة، يتمتّعون بحرّيّة العبادة، وكانت لهم محاكمهم الخاصة التي كانت تنظر في شؤون جاليتهم داخل المدينة.

إعتبر جمهرة من المدقّقين في تاريخ نشوء المسيحيّة أنّ كنيسة إنطاكية، لم تؤسَّس على يد بولس، بل على يد بطرس. ومن أصحاب هذا الرأي، القدّيس إيرونيموس[5] (حوالى ٣٤٧–٤١٩) الذي يُعدُّ من آباء الكنيسة. وهو الذي أرّخ وفسّر الأسفار المقدّسة وترجمها بكاملها الى اللاتينيّة، فأصبحت النصّ المعتمد من قبل الكنيسة الغربيّة. وكذلك المؤرّخ الكنسي يوحنّا الأفسسيّ[6] (٥٠٧–٥٨٦).

١ - Strabo, Géog. Bk. XVI: 750

٢ - Leclercq, Antioche, II: 150; Cheysostomos, Homelies against the jews, I: 6

٣ - Talmud de jerusalem, II: 144

٤ - Keaeling, Jewish community at Antioch, (Journ. of Bib. Lit. 1922)P. 135

٥ - Primum Episcopum Antiochenae Ecclesiae fuisse "eumque Romae translatum". S. jerome Migne, Pat. lat., Vol. 26, Col. 340; Vol. 23, Col, 637. Eusibirs,

٦ - Eusibius, Historia ecclesiastica, Bk. III: 22, 36

ورأى كثيرون من الباحثين في التاريخ الكنسيّ فيما بعد الرأي نفسه، باستثناء بعض الذين قالوا بأن مؤسّس الكنيسة الإنطاكية إنّما هو برنابا[1].

في الواقع هناك كنائس كثيرة تدّعي بأن بطرس الرسول هو الذي أسّسها، أو أنّ بعض المؤرّخين يدّعي لها ذلك، منها كنائس: صور، وصيدا، وطرابلس وقيصريّة فلسطين وسواها. وإذا لم يكن هنالك ما ينفي صحّة هذه الاعتبارات، فليس هنالك ما يثبّتها، سوى أنّ المرجع الأوثق لتاريخ الكنيسة في بداية عهدها، يبقى أعمال الرسل، الذي لا يذكر شأناً لبطرس في تأسيس كنيسة إنطاكية، وإن كانت المراجعة الدقيقة لأعمال الرسل تدلّ على أنّ بطرس كان دائم الترحال في تبشيره. ثمّ إنّ التقليد الكنسيّ يعتبر أنّ إنطاكية «أضحت كرسيّاً رسوليّاً على رأسه بطرس الرسول حتّى انتقاله إلى رومة». ولكن هذا لا يعني، حكماً، أن بطرس هو الذي أسّس كنيسة إنطاكية!

على أيّ حال، فإن كنيسة إنطاكية، هي الكنيسة الثانية التي تأسّست بعد الكنيسة الأمّ في أورشليم. وما يميّز الثانية على الأولى، هو أنّ كنيسة أورشليم إنّما كانت، في بدايتها، شبه محصورة باليهود المتنصّرين، بينما اتّخذت كنيسة إنطاكية الطابع الأمميّ. فغدت البوّابة الكبرى التي انطلقت منها المسيحيّة إلى العالم. ومن إنطاكية، كما ذكرنا سابقاً، إنطلقت التسمية المسيحيّة على المؤمنين بدين يسوع، الذين لم يُعرفوا قبلاً بهذه الصفة.

سرعان ما غدت كنيسة إنطاكية أمّ كنائس الأمم، وكان بولس وغيره من الدعاة الأوائل للدين المسيحيّ، ينطلقون من إنطاكية للقيام بأعمالهم التبشيريّة ثمّ يعودون إليها لرفع التقارير عن أعمالهم. وبعد أن دمّر الرومان أورشليم سنة ٧٠م[2]. ودُمّرت بذلك الكنيسة الأمّ فيها، غدت إنطاكية العاصمة الوحيدة للعالم

---

١ ـ Colson (J). L'Evêque dans les communautés Primitives, "unam sanctum" (1951) PP.27 - 44 راجع: أسد رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، المكتبة البولسية، بيروت (طبعة ١٩٨٨) ج ١، ص ١٩ ـ ٢٠

٢ ـ انظر الجزء السابق من هذه الموسوعة، ص ١٥٤.

المسيحيّ[1]. وكان قد أقبل المقيمون في إنطاكية، عاصمة الشرق، من يونانيّين وثنييّن، على اعتناق الدين الجديد، ممّا فتح المجال واسعاً أمام انتشار المسيحيّة في سائر المناطق القريبة. إلاّ أنّ هذه الانطلاقة المسيحيّة الواسعة، قد تأثّرت سلباً بتلك الظاهرة التي لم تسلم منها أيّة دعوة أخرى ظافرة في تاريخ الإنسانيّة: البدع والهرطقات.....والانقسامات.

البـــدع والهـــرطقـــات

من إنطاكية، إنطلق بولس ورفاقه إلى منطقة أفسس وإزمير وآسية الصغرى ومقدونية وبلاد اليونان وإيطالية. وانتشر الإيمان بالسيّد المخلّص في هذه الحقبة في ما وراء الفرات، بفضل كرازة توما وتلميذه أديّ او ثديّ (Thaddaion)، وهو أحد السبعين، وإليه يُنسب تأسيس كنيسة الرها وغيرها من الكنائس في العراق وجوارها[2].

لم يكن المجمع الأورشليميّ المسيحيّ الأوّل حاسماً بالنسبة لبعض الآراء اليهوديّة المتطرّفة الصادرة عن بعض من اتّبعوا المسيحيّة من اليهود، فراح هؤلاء يعارضون أعمال التبشير التي كان يقوم بها بولس ورفاقه بين الوثنيّين. وبلغت معارضتهم حدّ الحرب العقائديّة، إذ راحوا يتتبّعون بولس في آسية الصغرى وبلاد اليونان داعين المسيحيّين من أصل يهوديّ إلى الانتفاض على بولس، والذين من أصل وثنيّ إلى وجوب الاختتان وحفظ السبت وسوى ذلك من فرائض العهد القديم. ويبدو أنّ أمر هؤلاء قد استشرى بشكل خطير، ممّا أوجب على بولس إرسال رسائله الستّ إلى كنائس المنطقة، ساعياً إلى تحرير المسيحيّة من تلك الاعتبارات اليهوديّة الأصوليّة. وقد اعتبر غلاة «النصارى» ـ أي أولئك اليهود

---

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١

٢ ـ Eusebius, historia, I, 13. III, 1; Ormanian, Patriarch Malakhia, the church of Armenia,P. 3

المتنصّرون - من بني إسرائيل بولس مرتدّاً، وكفّروه، ممّا جعل بولس يعتبر أولئك النصارى في رسائله: «الأخوة الكاذبين». وفي رسائله الكلاميّة إلى الغلاطيّين وإلى الكورنثيّين وإلى الرومانيّين، يتصدّى بولس «للنصرانيّة» المحافظة التي تريد إقامة التوراة والختان مع الإنجيل والعماد. ولسان حاله أنّ «الخلاص والتبرير بالإيمان بالمسيح والإنجيل، لا بأعمال الشريعة» فقد نسخ المسيح الشريعة بصليبه. يقول للغلاطيّين: «الإنسان لا يبرّر بأعمال الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح... إذ ما من إنسان يبرّر بأعمال الشريعة[1]». ويقول في رسالة أخرى حمل عبرها على «أهل الشرّ» و «وأهل البتر» - أي الختان: «في كلّ شيء لا أرى سوى أقذار... حتّى أربح المسيح وأجدني فيه، لا على برّي الذي من الشريعة، بل على البرّ الذي بالإيمان بالمسيح؛ البرّ الذي من الله، القائم على الإيمان[2]». ويقول للكورنثيّين، في ردّ عنيف ضدّ «النصارى» من بني إسرائيل الذين طعنوا في سيرته وفي دعوته وفي رسوليّته، متستّرين خلف بطرس، ومعتمدين على أسلوب الحكمة في تقديم معتقدهم: «لو جاءكم أحد يدعو بيسوع آخر لم ندعُ به، أو نلتم روحاً آخر غير الذي نلتموه، أو بشارة غير التي قبلتموها، لاحتملتموه أحسن احتمال، ولكنّي أحسب أنّي لست أقلّ شأناً من أولئك الرسل الأكابر[3]»... «إنّ هؤلاء القوم رسلٌ كذّابون وعملة مخادعون يتزيّون بزيّ رسل المسيح. ولا عجب فالشيطان نفسه يتزيّا بزيّ ملاك النور، فليس بغريب أن يتزيّا خدمه بزيّ خدم البرّ. ولكنّ عاقبتهم تكون على قدر أعمالهم[4]».

وفي رسائل بولس إلى أهل رومة مواقف مماثلة، وأخرى تحذّر من الشقاق الذي يحاول هؤلاء «النصارى» من اليهود أن يثيروه بين المسيحيّين، ويدعو إلى

---

١ - رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ٢ : ١٦
٢ - الرسالة إلى أهل فيلبي، ٣ : ٨ - ٩
٣ - الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس، ١١ : ٤ - ٥
٤ - الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس، ١١ : ١٣ - ١٥

الابتعاد عنهم «فإنّ أمثال أولئك لا يعملون للمسيح ربّنا، بل لبطونهم، ويضلّون القلوب بمعسول كلامهم وتملّقهم[1] ».

لم تكن «النصرانيّة» البدعة الوحيدة التي عرّضت الرسالة المسيحيّة في بداية عهدها للانقسامات، بل ظهر العديد من البدع والهرطقات، اهمّها الغنوسيّة[2] التي قالت بإله واحد لا يدرَك «صدرت عنه أرواح هي الأيونات والأراكنة. وقد صدرت هذه أزواجاً ذكرا وأنثى، وراحت تتضاءل في الألوهيّة كلّما ابتعدت عن مصدرها الإله الأعلى. وعندما أراد أحد الأراكنة أن يرتفع إلى مقام الإله الأعلى، طُرد من العالم المعقول... فصدرت عن هذا الأركون الخاطئ أرواح شرّيرة مثله، وصدر العالم المحسوس الذي لم يكن ليوجد لولا الخطيئة. وبذلك يكون هذا العالم عالم شرّ ونقص بصانعه وبالمادة المصنوع منها». وقالوا بأنّ «هذا الأركون الخاطئ حبس النفوس البشريّة في أجسامها فكوّن الإنسان، وإنّ هذه النفوس تتوق الى الخلاص، وإن الناجين قليلون لأن الناس ثلاث طوائف متمايزة هي: طائفة تشمل الروحيّين الذين هم من أصل إلهي وهم الغنوسيّون صفوة البشر، وطائفة ثانية تتألّف من المادّيين الذين لا يمكنهم أن يصعدوا فوق العالم السفليّ، وثالثة تجمع الحيوانيّين الذين قدِّر لهم الارتفاع والسقوط: النجاة والهلاك». وقد اختلفوا في طريقة النجاة، فمنهم من قال بقهر الجسد، ومنهم من قال باطلاق العنان للشهوة[3] ».

ومن أصحاب البدع والهرطقات في بداية عهد المسيحيّة، «سيمون الساحر» الذي جاء ذكره في أعمال الرسل، وهو كان يدهش الناس في نواحي السامرة من خلال اعمال السحر، فكانوا «يصغون إليه... ويقولون: هذا هو قدرة الله التي يقال لها القدرة العظيمة[4] ». ذلك أنّهم كانوا يرون فيه انبثاقاً مباشراً لقدرة الله نفسها.

---

١ ـ الرسالة إلى أهل رومة، ١٦ : ١٧ ـ ١٨

٢ ـ من اليونانية: Gnosis أي المعرفة والحكمة.

٣ ـ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦

٤ ـ أعمال الرسل، ٨ : ١٠

في تلك الأثناء، كان فيلبّس، أحد السبعة، قد نزل في السامرة، وراح يبشّر أهلها بالمسيح. وقد لاقت دعوة فيلبّس إقبالاً شديداً، وراح الناس يعتمدون رجالاً ونساء، كذلك فعل سيمون نفسه الذي لزم فيلبّس بعد أن اعتمد. ولمّا سمع الرسل في أورشليم أنّ السامرة قبلت كلمة الله، أرسلوا اليها بطرس ويوحنّا. وهنا يبدو واضحاً أنّ سيمون الساحر لم يكن قد تخلّى عن طموحاته، ذلك أنّه عندما «رأى أنّ الروح القدس يوهَب بوضع أيدي الرسولَين ـ على الناس ـ عرض عليهما شيئاً من المال وقال لهما: ـ أعطياني أنا أيضاً هذا السلطان لكي ينال الروح القدس من أضع عليه يديّ ـ فقال له بطرس: ـ تبّاً لك ولمالك، لأنّك ظننت أنّه يمكن الحصول على هبة الله بالمال. فلا حظّ لك بهذا الأمر ولا نصيب، لأنّ قلبك غير مستقيم عند الله. فاندم على سيّئتك هذه، واسأل الربّ لعلّه يغفر لك ما قصدت في قلبك. فإنيّ أراك في مرارة العلقم وشرك الأثم ـ. فأجاب سيمون: ـ إشفعا لي أنتما عند الربّ لئلاّ يصيبني شيء مما ذكرتما[١] ـ.

ويذكر بعض كتب الأبوقريفة غير المعترف بصحّتها من قبل الكنيسة. أنّ سيمون الساحر قد انتقل بعد ذلك إلى رومة حيث عظم شأنه. ولكن جوستينيان القدّيس، يؤكّد أنّ أتباع سيمون في السامرة كانوا كثراً، وأنّهم اعتبروه الإله الأعلى، وأشركوا معه ENNOIA ـ الفكر، الذي انبثق عنه، فتجّسد في امرأة اسمها هيلانة، وهي الزانية الصوريّة امرأة MENELAUS[٢]. وقد قال سيمون إنّ الإله الأعلى أظهر نفسه بصفة الابن بيسوع بين اليهود، وبصفة الآب بين السامريّين في شخصه هو، أي في شخص سيمون، وفي بلاد أخرى بصفة الروح القدس[٣].

ومن الذين ادّعوا الألوهيّة أيضاً لأنفسهم في هذه الحقبة مستغلّين البشارة

---

١ ـ راجع أعمال الرسل، ٨ : ١٤ ـ ٢٤

٢ ـ St. Justinus, Apol., I, 26, 56; Dial., 120.

٣ ـ St. Irenaeus, Hear., I, 23.

المسيحيّة، وعلّموا بما يشبه ما علّم به سيمون الساحر، ساتورنينوس SATURNINUS في إنطاكية بين نهاية القرن الأوّل وبداية القرن الثاني، الذي تمكّن من استيعاب أتباع كثر، وقد قال بإله واحد آب خلق القوى والملائكة ورؤساءهم، وبأنّ سبعة من هؤلاء الملائكة كوّنوا العالم المنظور، وقد قُدّر لهم أن يرمقوا الإله الأعلى بالرؤيا، فخلقوا الإنسان على صورة هذا الإله، ولكنّهم جعلوه يزحف زحفاً، فشمله الإله الأعلى بعطفه وحنانه لأنّه كان على مثاله، فأمر أن ينتصب فيمشي على قدميه. وقد جعل ساتورنينوس إله اليهود أحد هؤلاء الملائكة، وجعل الباقين مصدر وحي الأنبياء، وأشرك الشيطان في هذا الوحي في بعض الأحيان. وجعل الملائكة السبعة في نزاع مستمرّ مع الإله الأعلى، كما جعل هذا الإله يُصدر عن نفسه مخلّصا ليقضي على هؤلاء الملائكة ويخلّص الإنسان. إلاّ أنّه اعتبر أنّ ذلك المخلّص لم يولد ولادة بشريّة ولم يكن له جسم إنسان[1].

ومن أصحاب البدع أيضاً عصر ذاك، ميناندروس الكبّارتي Menandros cappacatea وذوسيثيس Dositheus وكليوبيوس Cleobius، الذين ادعى كلّ منهم الألوهيّة. وهنالك كيرنثوس Cerinthos، اليهوديّ المصريّ الذي جاء أورشليم في أيّام الرسل، ومنها انتقل الى قيصريّة فلسطين ثمّ إلى إنطاكية حيث راح يعلّم بوجوب حفظ السبت والاختتان وغير ذلك من فروض الناموس، مدّعياً بأنّ السيد المسيح هو ابن يوسف ومريم، وبأنّ ملاكا من الملائكة خلق الكون، وآخر اعطى الشرائع والناموس، وهذا الأخير هو الله إله اليهود، وأنّ شيئا من الروح القدس المنبثق من الاله حلّ على يسوع عند اعتماده في الأردّن فرافقه حتّى الصلب[2]. وقد نفى قيامة السيد المسيح وأرجأها حتّى قيامة «جميع الأتقياء[3]».

١ـ Eusebius, hist. Ecc, IV, 22; St. Irenaeus, I, 23-24; وراجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى. ج١ ص ٢٩ ـ ٣٠.
٢ ـ St. Irenaeus, Haer., I, 26.
٣ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله. ج١، ص ٣٠ ـ ٣١.

وظهر الأبيونيّون Ebionaioi[1] الذين تفرّعوا عن كنيسة أورشليم، وتفرّقوا معلّمين أنّ المخلّص هو ابن يوسف، وأنّ بولس مرتدّ عن الدين القويم، متمسّكين بالناموس، وكانوا يجعلون في صلواتهم أورشليم قبلة لهم.

كذلك ظهر الدوكينيّون الذين قالوا بأنّ يسوع المسيح لم يولد من لحم ودم، ولم يكن له جسد، ولم يتألّم، ولكن شُبّه لهم[2].

ويبدو أن الأنتيمونيّة قد بدأت بالظهور في ذلك العهد أيضاً، وهي القائلة بأنّ من يؤمن لا يخطئ، وبالتالي فلا يربطه ناموس[3].

كذلك ظهر النيقولاويّون «الذين يتمسّكون بتعليم بلعام، الذي علّم بالاق أن يلقي معثرة أمام بني اسرائيل حتى يأكلوا من ذبائح الأوثان ويزنوا[4]» وفيما يذهب البعض إلى أن النيقولاوييّن هم شيعة نيقولاوس الانطاكي احد الشمامسة السبعة الذين رسمهم الرسل، وأن نيقولاوس هذا ضل في الايمان وخرج عن الكنيسة، يعتبر آخرون بأن هذا القول ضعيف لأن مراجع اصحابه متأخرة ونصوصها مبهمة غامضة، ويخلصون إلى الاعتراف بعدم معرفة من هم هؤلاء بالضبط[5].

التنظيم الكنسي

وسط هذا السيل من البدع والهرطقات، كان على الرسل أن يجتهدوا في حفظ الايمان القويم، رغم الاضطهاد الفظيع الذي كانوا يتعرّضون له. وراح المهتدون

---

١ - يختلف الباحثون في أصل التسمية، فبنسبه بعضهم إلى أبيون Ebion على أنّه المؤسس، ويقول آخرون بأنه مشتق من «أبيونيم» العبريّة، ومعناها: الفقراء، وبأنه مأخوذ من الآية: «طوبى لكم أيها المساكين، فإن لكم ملكوت الله» لوقا ٦ : ٢٠ متى ٥ : ٣

٢ - من هذه الفكرة اتخذ الدوكينيون اسمهم، واللفظ Dokein يوناني، معناه لاح وبدا.

٣ - راجع: Antinomisme. Goguel M., Naissance du christianisme, 445

٤ - رؤيا يوحنا: ٢ : ١٤؛ ١٨ : ٢٦

٥ - رستم، كنيسة مدينة الله، ج ١ ص ٣٥؛ راجع: Goguel M., les Nicolaites, Reu. de l'histoire des Religions, 1937, 5 - 36

ينضمّون إلى جماعات، ما لبث سفر اعمال الرسل أن سمّاها كنائس، لم يحل عددها الكثير دون سيرها على طريقة واحدة، فصارت فيما بعد كلمة «كنيسة» تدلّ على مجموعة الكنائس.

وكان من الطبيعيّ أن تبرز داخل الكنائس جماعات من المؤمنين تقوم بأعمال خاصّة، وكان هذا في البداية شأن الرسل الإثني عشر، وعلى رأسهم بطرس، وكان لهم في أورشليم وفي خارجها منزلة فريدة من نوعها، وقد تجاوز دورهم رسالتهم الأساسيّة، وهي أن يكونوا شهوداً وخدّاماً للكلمة، فإنّ وجودهم في أورشليم قد مكّن الجماعة الأولى (كنيسة أورشليم) من أن تكون مركزاً منظّماً، فالرسل هم الذين أقاموا الشمامسة السبعة، بعد أن طغت عليهم الأعباء، فأرادوا أن يحفظوا أهمّها. ومن جهة أخرى، فيسوع نفسه عهد الى بولس برسالة، إن لم تكن على قدر رسالة الرسل، فقد كانت مع ذلك أساسيّة، فجعلت منه مؤسِّساً ومسؤولاً عن كنائس. أمّا الأنبياء فشأنهم يختلف كل الاختلاف عن الرسل، فليس الناس هم الذين «يقيمونهم» بل الروح هو الذي يلهمهم ويقومون بعمل مهمّ في حياة الكنائس.

أمّا الشيوخ الذين يرد ذكرهم في مدوّنات تلك الحقبة، خاصّة في سفر أعمال الرسل، فهم الذين أقامهم بولس للاضطلاع بأعباء الكنائس في غيابه، وهكذا يُفترَض بشيوخ أورشليم الذين كانوا حول يعقوب[1].

بذلك يتّضح أنّه كان للكنيسة (والكنائس) في القرن الأوّل شبه بنية، أصبحت في كنيسة إنطاكية تشمل، إضافة إلى الرسل، الأنبياء والمعلّمين،

---

١ - راجع: الكتاب المقدس، العهد الجديد دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٢٧٠، وراجع أعمال الرسل، ١ : ١؛٢ : ٢؛٣١ : ٥؛١٤ : ٥؛٣ : ٩؛٢٩ : ١٥؛٢٢ : ٤؛٧ : ٢٣ ـــ ٥؛٣٧ : ٥؛١٢ : ٥؛١٨ : ٩؛٤٠ : ٨؛٢٧ : ٩؛١٤ : ١١؛٣٢ : ١١؛١ : ٢٧ ـــ ١٥؛٣٠ : ١٥؛٢ : ١٣؛٣٦ : ٢٠؛٣١ : ١١؛١٨ : ٢١؛٣٠ : ١٢؛١٨ : ١٥؛١٧ : ١٣.

والأساقفة[١]، والشيوخ، ثمّ الشمامسة[٢]، ولا يعني هذا أنّ «الأخوة» العاديّين لم يكن لهم أيّ عمل، سواء كانوا أصحاب رتب أم لا، فقد كانوا يشاركون في اختيارات هامة، ونرى على سبيل المثل أنّ مجمع أورشليم يُختتم بقرار من الروح القدس، بإجماع من الكنيسة كلّها[٣].

الانتشار المسيحيّ

يبقى سفر أعمال الرسل، المرجع الأوثق لتطوّر الانتشار المسيحيّ في بداية عهد المسيحيَّة، رغم أنّ هذا السفر «من جهة كونه وثيقة تاريخيّة، قد أغفل بعض الأمور، فهو لا يقول شيئاً، على سبيل المثل، في إنشاء كنائس كثيرة[٤]». بيد أن مراجعة هذا السفر، بالإضافة الى رسائل بولس، إن حصلت بدقّة، من شأنها أن تكوّن تصوّراً عامّاً عن ذلك الانتشار الذي اتَّسع على يد بولس وغيره من الدعاة الأوائل للدين المسيحيّ الذين كانوا ينطلقون من إنطاكية في أعمالهم التبشيريّة ثمّ يعودون إليها لرفع التقارير عن أعمالهم. وسبق أن ذكرنا أنّ إنطاكية، بعد أن دمّر الرومان في ٧٠م. منافستها أورشليم، أصبحت العاصمة الوحيدة للعالم المسيحيّ، وتمتّعت لبعض الوقت بمقدار معيّن من السلطة على الأبرشّيات، المجاورة على الأقلّ[٥].

يفيدنا سفر أعمال الرّسل أنّ بولس وبرنابا انطلقا أوّلاً إلى سلوقية[٦]، ثمّ أبحرا منها إلى قبرص حيث أخذا يبشّران في مجامع اليهود، ويبدو أنّ عددا لا

---

١ ـ الاسقف، لفظ يوناني مركب Episcopos معناه الرقيب أو الناظر، وهو مركب من .Epi أي على، و Skopein ومعناه لاحظ وراقب. ويتضح من بعض النصوص أن الاسقف إن هو إلاّ شيخ، أي أن الاسقف والشيخ كانا اسمين لمسمّى واحد على الصعيد الكنسي في ذلك العهد.

٢ ـ شماس، لفظ سرياني معناه: خادم ديني.

٣ ـ اعمال الرسل، ١٥ : ٢٢ ـ ٢٣ و ٢٨

٤ ـ الكتاب المقدس، العهد الجديد. ص ٣٦٧

٥ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١

٦ ـ سلوقية: إسم أطلقه السلوقيون على عدة مدن اسسوها أو استبدلوه بأسمائها القديمة، والغالب أن المقصود هنا بسلوقية هي سلوقية بيريا أو السويدية في تركيا التي عرفت أيضاً بسلوقية تراخيا أو سلفكا. أعمال الرسل، ١٣ : ٤ ـ ٣،٧

بأس به قد اعتنق المسيحيّة، ومنهم «الحاكم سرجيوس بولس، الرجل العاقل الذي آمن وقد أُعجب بتعليم الربّ». وفي مرحلة لاحقة تمكّن الرسولان من النجاح أيضاً في أيقونية رغم المصاعب التي لاقياها من قبل اليهود، وكذلك نجحا في مدينة دربة، «فعيّنا شيوخاً في كلّ كنيسة (أسّساها) وصلّيا وصاما، ثمّ استودعوهم الربّ الذي آمنوا به[١]». وفي الحقبة نفسها نشأت كنائس عديدة على أيدي بولس وبرنابا إضافة إلى تلك التي نشأت على أيدي بطرس الرسول وسيلا في سورية وقيليقية[٢]. وكانت «الكنائس ترسخ في الإيمان ويزداد عددها يوماً بعد يوم[٣]. في فيليبي[٤]، وتسالونيقي[٥] وبيرية[٦] وأثينة[٧] التي كانت ميدان اللقاء الأوّل بين الإنجيل والفكر الوثنيّ، إضافة إلى كنيسة قورنتس[٨] التي كانت شهيرة بعبادة أفروديت، وكانت سمعة أهاليها سيِّئة بسبب تلك العبادة، ومع ذلك فقد تأصّلت فيها المسيحيّة من خلال البيئات الشعبيّة[٩]. وكنيسة أفسس[١٠]. وكنيسة غلاطية[١١] التي

---

١ ـ أعمال الرسل، ١٤ : ٢٠ ـ ٢٣
٢ ـ اعمال الرسل، ١٥ : ٤٠ ـ ٤١؛ راجع أيضاً: ١٤ : ٢٤ ـ ٢٥
٣ ـ أعمال الرسل، ١٦ : ٥
٤ ـ فيليبي: مستعمرة رومانية، كانت عظمى المدن في ولاية مقدونية، وكان قسم من سكانها جنوداً قدماء للامبراطور انطونيوس وفلاّحين ايطاليين. وكانت ادارة شؤونها رومانيّة. راجع: أعمال الرسل: ١٦ : ١١ ـ ١٢؛ ١٦ : ٣٣ ـ ٤٠
٥ ـ تسالونيقي: هي «سلانيك» مرفأ في شمالي اليونان (مقدونية) راجع: أعمال الرسل ١٧ : ٢٤
٦ ـ في شمالي اليونان (مقدونية). أعمال الرسل، ١٧ : ١٠ ـ ١٢
٧ ـ أعمال الرسل، ١٧ : ١٦ ـ ٣٤
٨ ـ مستعمرة رومانية. أنشأها يوليوس قيصر. كانت عاصمة اقليم أخائية. كانت مركزاً تجارياً هاماً، له مرفآن، وكان سكانها من أجناس مختلفة، إلى جانب عنصر أساسي لاتيني. راجع أعمال الرسل، ١٨ : ١ ـ ١٧
٩ ـ راجع: رسالة بولس الاولى إلى أهل قورنتس، ١ : ٢٦
١٠ ـ كانت أفسس من أكبر مراكز العالم اليوناني الروماني التجارية والدينية. وفي أفسس أقام بولس سنتين (الرسل، ١٩ : ١٠ وما يليها) وفيها كتب الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس. ويرجّح أنه كتب فيها أيضاً الرسالة إلى أهل غلاطية، وربما الرسالة إلى أهل فيليبي. راجع : الرسل، ٢٠ : ١؛ ٢٠ : ١٨ ـ ٣٥؛ راجع أيضاً: الرسالة إلى أهل أفسس؛ راجع أيضاً: الرؤيا ٢ : ١ ـ ٧
١١ ـ غلاطية: اقليم روماني كان يقع بين قبدوقية والبحر الاسود، ويمتد الى جوار أنقرة، وكان سكانه من أصل كلتي. راجع: أعمال الرسل، ١٣ : ١٤؛ ١٤ : ٢٥؛ ١٦ : ٦؛ ١٨ : ٢٣؛ راجع أيضاً: رسالة بولس إلى أهل غلاطية.

خصّها بولس برسالته الشهيرة، وكذلك كنيسة قولسي[1] التي أنشأها أبفراس تلميذ بولس، وهو الذي أنشأ ايضاً كنيستَي هيرابولِس واللاّذقيّة[2] وهما مدينتان متجاورتان وقد ذكرت اللاّذقيّة «بين الكنائس السبع» من آسية التي ورد ذكرها في سفر الرؤيا[3]، وارتأى بعضهم أنّها لربّما كانت هي التي وُجّهت إليها الرسالة التي يُقال لها الرسالة إلى أهل أفسس[4].

أمّا في لبنان، فكان «المسيح ذاته أتى... إلى نواحي صور وصيدا[5]. وبينما كان يتجوّل هناك، أتته أمرأة كنعانيّة تضرّعت إليه أن يشفي ابنتها المصابة بالجنون فشفاها... وهناك على بعد ميلين أو أكثر جنوبيّ صيدا كهف قديم، ربّما كان معبداً لعشتروت، تقوم على أنقاضه كنيسة شُيِّدت على إسم سيِّدة المنطرة، يصرّ التقليد على أنّ مريم أمّ يسوع أقامت هناك تنتظر قدوم ابنها إلى صيدا. وعلى هذا التقليد سمِّيت الكنيسة بسيِّدة المنطرة. وعلى أثر استشهاد إسطفانوس، أوّل شهيد مسيحيّ، تشتّت تلاميذ المسيح للكرازة، وقد اجتازوا فينيقية[6]. هذه الإشارات الواردة في الأناجيل، وفي التقليد، تدلّ على أنّ المسيحيّة دخلت لبنان في عهد الرسل، ووجدت تربة صالحة. وكانت صور اوّل مدينة فينيقيّة قامت فيها جالية مسيحيّة. يقول لنا سفر أعمال الرسل أنّ بولس الرسول عندما رجع من بلاد اليونان لزيارة أورشليم، وكانت آخر زيارة له، عرّج على صور فوجد فيها كنيسة تضمّ أعضاء من رجال ونساء وأولاد، وقد أقام بينهم سبعة أيّام، وقد حذّره مسيحيّو صور من الذهاب إلى أورشليم لأنّهم كانوا يوجسون خيفة عليه، فتضرّعوا

١ ـ بلدة من «فريجية» في آسية الصغرى، على بعد ٢٠٠ كلم من أفسس الى الشرق. راجع: رسالة بولس الى أهل قولسي.
٢ ـ الرسالة إلى أهل قولسي، ٤ : ١٣
٣ ـ سفر الرؤيا ١ : ١١؛ ٣ : ١٤
٤ ـ راجع: الرسالة إلى أهل قولسي، ٤ : ١٦. وراجع: العهد الجديد، دار المشرق، بيروت ١٩٩١ ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦ـ ١
٥ ـ متى ١٥ : ٢١ ـ ٢٨؛ مرقس، ٧ : ٢٤ ـ ٣١
٦ ـ أعمال الرسل، ١١ : ١٩

إليه ليظلّ عندهم. وعندما شيّعوه الى الشاطئ ليستقلّ السفينة، ركعوا على الرمال وصلّوا من أجله[1]. ثمّ إنّ بولس الرسول عرّج وهو في طريقه جنوباً على مدينة عكّة، حيث استقبلته الجالية المسيحيّة[2]. وعندما قفل راجعاً إلى رومة، عرّج على صيدا، حيث كان هنالك كنيسة وجالية مسيحيّة «ليحصل على عناية منهم» وقد كان ذلك عند منتصف القرن الأوّل ميلاديّ[3]».

أمّا في مصر، فليس لدينا ما يشير إلى أكثر من نشوء كنيسة في الإسكندريّة، وقد ذكر بعض المراجع «أنّ رئيس كنيسة الإسكندريّة كان بادئ الأمر الأوّل بين أقرانه الشيوخ والأساقفة Primus inter Pares وكان هؤلاء يقيمون رئيساً بوضع الأيدي... ولعلّ السبب في ذلك أنّ أسقف الإسكندريّة ظلّ الأسقف الأوحد في مصر حتّى أوائل القرن الثالث. فالأسقف ديمتريوس الثالث (١٨٩ ـ ٢٣٢) كان أوّل من سام أساقفة في مصر خارج الإسكندريّة[4].

ويتّضح من الرسائل التي وجّهها خليفة بطرس الثاني إغناطيوس ثيوفوروس (٦٤ ـ ١٠٧) إلى الكنائس ومن جولاته الرعائيّة، أنّ هذه الكنائس كانت قد انتشرت قبل نهاية القرن الأوّل في آسية الصغرى والبلقان وإيطالية. وقد شملت هذه الرسائل، علاوة على كنائس أفسس ومغنيسية[5] وترلّة وروميه وفيلدلفية[6] وأزير، كلاً من إنطاكية وطرسوس وفيليبي وهيرون[7].

---

١ ـ أعمال الرسل، ٢١ : ٤ ـ ٦

٢ ـ أعمال الرسل، ٢٢ : ٢١ : ٧

٣ ـ حتي، لبنان في التاريخ. ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥

٤ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى. ج١ ص ٤٤ ـ ٤٥؛ Patrologia Gracca, vol. 61, P. 982

٥ ـ Magnésia مدينة في ليديا (آسية الصغرى) على الرموس غربي تركية الاسيويّة. وهي اليوم مدينة مانيسا.

٦ ـ الاسم اليوناني لعمّان. وكانت كنيستها تعد من الكنائس السبع التي كانت تشمل: أفسس، أزمير، برغامس، تياطيرة، سرديس، اللاذقية، إضافة إلى فيلدلفية؛ راجع: رؤيا القديس يوحنّا، ١ : ١١؛ ٣ : ٧؛ Codex Mediceus Lautenlianus. P. 57

٧ ـ أعمال الرسل، ٢٧ : ٣

الحيـــاة المســيحــيــة
فــي الـقـــــرن الاول

عاش مسيحيّو القرن الأوّل الذين اتَّبعوا الرسل وآباء الكنيسة حياة مسيحيّة حقيقيّة، فكانوا «جماعة واحدة، يجعلون كلّ شيء مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلّ منهم، يلازمون الهيكل كلّ يوم بقلب واحد، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، يسبّحون الله وينالون حظوة عند الشعب كلّه[1] ...». وقد اهتمّ سفر أعمال الرسل بالإشارة إلى الملامح التي كانت تميّز الجماعة الأولى، من وحدة[2]، وإجماع[3]، ومشاركة[4]، ومقاسمة الأملاك والأموال[5].

مارس المسيحيّون في القرن الأوّل سرّ الأفخارستيّة، إذ كانوا ينهضون في يوم الربّ باكراً في الساعة نفسها التي تغلّب فيها السيّد المسيح على الموت، ويؤمّون الكنيسة للصلاة والتبرّك والشكر والاعتراف بالخطايا وتقديم القرابين. وكانوا يتناولون في عشيّة الأحد عشاء «الأغبة[6]» مجتمعين حول مائدة واحدة ناظرين في أمورهم المشتركة، ولا سيّما في حاجة المعوزين منهم. فيبدأون حفلتهم بالشكر وينهونها بالشكر وبقبلة المحبّة. والعقيدة تفرض عليهم القول «بإله واحد في أقانيم ثلاثة: الآب والابن والروح القدس. والله هو الآب السماويّ الخالق ذو القدرة والجلال. به كان كلّ شيء وبدونه لم يكن شيء. له المجد الى الأبد باسم ربّنا يسوع المسيح. ويسوع المسيح ابن الله وربُّنا ومخلِّصنا. وهو حيّ في كنيسته

---

١ ـ أعمال الرسل، ٢ : ٤٤ ـ ٤٧؛ ٤ : ٣٢ ـ ٣٥
٢ ـ أعمال الرسل، ٢ : ١
٣ ـ أعمال الرسل، ٢ : ٤٦؛ ٤ : ٢٤؛ ٥ : ١٢؛ ١٥ : ٢٥
٤ ـ أعمال الرسل: ٢ : ٤٢
٥ ـ أعمال الرسل: ٤ : ٣٢ وما بعدها، ٩ : ٣٦ وما بعدها.
٦ ـ Agagné أي: المحبّة.

وسيجيء في يوم الدينونة. والروح القدس هو الله مع الآب والابن وقد نطق بالأنبياء وكنيسة الله جامعة مقدّسة[1] ».

رغم مسالمة المسيحيّة ومناداتها بالمحبّة التي هي أساس هذه الرسالة الجديدة. ورغم أنّ المسيحيّة قد جعلت بالمحبّة الإنسانيّة عائلة واحدة تحت أبوّة واحدة، فإنّ ما تعرّض له المسيحيّون من اضطهاد في القرن الميلاديّ الأوّل، كان من أبشع ما سجّله تاريخ الأمبراطوريّة الرومانيّة بحقّها. وقد « حصل أوّل إضطهاد عنيف في عهد نيرون، بمناسبة حدوث حريق عارض دمرّ قلب مدينة رومة سنة ٦٤ م وفسّر الجمهور الناقم هذا الحريق بأنّه حادث آخر من حوادث لهو الأمبراطور الجنونيّ. وعندما ارتاع نيرون من ذلك، حاول أن يلقي التهمة على المسيحيّين في العاصمة. فأمر بإبادتهم جميعاً[2] ». وقد تلت هذا الاضطهاد أعمال عنف متفرّقة ضد المسيحيّين في الولايات الرومانيّة[3]. وبعد استشهاد بولس بالسيف في رومة حوالى سنة ٦٧ وفق القانون الذي أصدره نيرون[4]، إستشهد بطرس بالصلب في رومة أيضاً في حوالى الوقت نفسه، كما قُتل عدد كبير من المسيحيّين.

لقد كان لامتناع مسيحيّي القرن الأوّل عن الاشتراك في الاحتفالات الدينيّة والرسميّة الرومانيّة، ولجهدهم المستمرّ في كسب الأتباع عن طريق التبشير، ردّة فعل عنيفة عند السلطة الرومانيّة التي أثارت الشكوك حول عزلة المسيحيّين عن بقيّة الجماعات، وهكذا أصبحوا « كبشاً مناسباً للفداء بالنسبة للرعاع كلّما حلّ بالمدينة أو بالسكّان حادث مشؤوم. وكثيراً ما كان الحكّام المحلّيّون يفرضون العقوبات على رعاياهم المسيحيّين لعضويّتهم في ما اعتبروه جمعيّات سرّيّة[5]. فاستمرّ الاضطهاد.

---

١ - راجع: رستم. كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ص ٤٧ - ٤٨

٢ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ج ١، ص ٣٦٦ - ٣٦٧؛ Tacitus, Annales, Bk. XV, ch 44.

٣ - راجع: رسالة بطرس الاولى ٤ : ١٢ - ١٩

٤ - راجع رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس، ٤ : ٦ - ٨

٥ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٧

بعد استشهاد بطرس، خلفه «أفوذيوس» الذي لم تحفظ المدوّنات عنه الشيء الكثير. إلاّ أنّ التقليد يفيد بأنّ الخليفة الأوّل لبطرس قد استشهد هو الآخر في عهد نيرون (٣٧ ـ ٦٨).

خلف بطرس بعد أفوذيوس إغناطيوس ثيفوروس (٦٤ ـ ١٠٧) الذي في عهده قضى تيطس على ثورة اليهود في فلسطين، مدمّراً الهيكل في أورشليم في السنة ٧٠، وقد خيّل للرومان أنّهم بذلك قضوا على اليهود والمسيحيّين معاً، وكان الرومان حتى ذلك الحين لا يزالون يخلطون بين الديانتين في كثير من الأحيان. وحدث الاضطهاد العنيف سنة ٩٥، في عهد دوميتيان. وجاء دوميتيانس (٨١ ـ ٩٦) ليجبي ضريبة الهيكل من اليهود، فأدّى ذلك إلى التفتيش الدقيق عن المسيحيّين وإلى تدوين أسمائهم وإكراههم على دفع ضريبة الهيكل وإرسالها إلى صندوق جوبيتر في رومة. وفي سنة ٩٩ طبّق الأمبراطور الرومانيّ تريانوس القانون الذي كان قد أصدره سلفه نيرون، والذي اعتبر أنّ التديّن بالدين المسيحيّ هو خروج على القانون[١]، (فاستشهد في السنة ١٠٠ في رومة أسقفها الثالث بعد بطرس: إقليموس. وفي بعلبّك، استشهدت أفدوكية البتول بقطع رأسها. أمّا كاهن الأصنام السابق في منطقة الفرات الوسطى الذي كان قد اعتنق المسيحيّة على يد أسقف الرها، برصوم، هو وأخته بيبة، فقد استشهد منشوراً بالمنشار بأمر من الحاكم الرومانيّ لوكيانوس، الذي قتل بيبة أيضاً بسبب مسيحيّتها.

وهكذا، فعند نهاية القرن الميلاديّ الأوّل، كان المسيحيّون في هذه المنطقة من العالم، كما في رومة، عرضة للاضطهادات المريرة. وكانت كنيسة إنطاكية بقيادة إغناطيوس ثيوفوروس، الذي سيستشهد هو الآخر بعد أعوام قليلة في رومة مثلما استشهد قبله بطرس وبولس، ومثلما صلب قبلهما السيّد المسيح، لتكمل المسيحيّة طريقها منتصرة على الموت.

---

١ ـ راجع: Callewaert c. dans: Revue Historique ecclesiastique. 1901 PP. 771 - 797; 1902, PP. 5 - 15, 324 - 348, 607 - 615

الفصل الثالث

بين الاضطهاد والانتصار

- من كنيسة الرسل إلى رسل الكنيسة
- ذروة الاضطهادات في القرنين الثالث والرابع
- نهاية الاضطرابات
- الصراع بين المسيحيّة والوثنيّة

من كنيسة الرسل إلى رسل الكنيسة

كانت بداية القرن الثاني بالنسبة للمسيحيّين حقبة صعبة وقد غاب عنهم أولئك المباركون الذين عاصروا المسيح، والذين أسّسوا الكنيسة، ليخلفهم تلامذة لهم، كان عليهم أن يسيروا على دروب الشهادة كأسلافهم. قبل ذلك التاريخ بقليل، كان المؤمنون ينضوون تحت لواء الكنيسة التي أسّسها الرسل، أمّا الآن، فقد صار للكنيسة رسل، وكان عليهم أن يسيروا بها جامعة واحدة وسط أهوال الاضطهادات وزلازل الانقسامات والبدع والهرطقات والتشرذم.

لم يمضِ سبع سنوات على بداية القرن الثاني حتّى استشهد خليفة بطرس على كرسي إنطاكية: إغناطيوس ثيوفورس[١]. وكان استشهاده في رومة، كما بطرس وبولس. وقد ذكر بعض المدوّنات[٢] أن إغناطيوس هذا، كان ذلك الطفل الذي أشار إليه متّى في إنجيله: «فدعا يسوع ولداً وأقامه في وسطهم وقال: الحقّ أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات، فمن وضع نفسه مثل هذا الطفل، فذاك هو الأكبر في ملكوت السموات، ومن قبل طفلاً مثله إكراما لاسمي، فقد قبلني أنا[٣]». إلاّ أنّ آخرين من مؤرّخي الكنيسة لم يحاولوا تأكيد أنّ إغناطيوس قد رأى المسيح[٤]، ومن بين هؤلاء يوحنّا الذهبيّ الفم. ويذكر مؤرّخو الكنيسة أنّ إغناطيوس هو من أصل سوريّ هلّينيّ، وُلد في حوالى السنة ٣٥، واعتنق الدين المسيحيّ في إنطاكية على أيدي الرسل او التلامذة او المعلّمين، فاتّخذ لنفسه لقب ثيوفوروس، أي حامل الإله، تبرّكاً[٥].

١- راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٥ ـ ٥٦

٢ - Anastase le Bibliotecaire, vindiciae in gnatianae, II. CXII, P.G. Vol 5, Col 404

٣ - متى: ١٨: ٣ ـ ٥

٤ - راجع: Kleist, J. A., st Ignatius, 54.

٥ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٠ استناداً إلى: Bareille, G., Ingace d'Antioche, Dict. Théol. chretien;

على أيّ حال، فإذا كان إغناطيوس لم يعرف المسيح، فهو قد تتلمذ من قرب، دونما أيّ شكّ، على أيدي بطرس وبولس وبرنابا، ممّا جعله متمتّعاً بتلك الروح المتحمّسة للسيّد الذي تجسّد على الأرض. لذلك لم يكن أقلّ حماسة من أسلافه في المحافظة على الكنيسة وفي السير على خطى من سبقوه على دروب التبشير من خلال التجوال على الكنائس وبعث الرسائل لها واعظاً مرشداً في الحالتين. ويظهر من بعض كتاباته ذلك الاهتمام الواضح بوحدة الكنيسة وحرصه الشديد على إفهام المؤمنين أنّ خلفاء الرسل جديرون بالطاعة والاحترام، وقد جاء في رسالة له إلى أهل إزمير: «إتبعوا جميعكم الأسقف كما تبع يسوع المسيح الله الآب. وسيروا في أثر الشيوخ سيركم في أثر الرسل. واحترموا الشمامسة كما تحترمون وصايا الله. ولا تأتوا بعمل يمتّ إلى الكنيسة بصلة منفردين عن الأسقف. والذبيحة الإلهية لا تصبح شرعيّة محلّلة إلاّ برئاسة الأسقف أو من يفوّضه بها. وكونوا حيث يكون الأسقف فحيث يكون يسوع المسيح هناك أيضاً تكون الكنيسة الجامعة»[١]. وفي رسالته إلى أهل مغنيسية قال: «لا تتّخذوا من حداثة أسقفكم حجّة للإفراط في الدالّة عليه بل احترموه لأنّه يحمل سلطة الله الآب... وكونوا مسيحيّين لا بالاسم وحسب بل بالفعل، فإنّ هنالك قوما يدعون الواحد أسقفا ولكنّهم لا يعبأون به في تصرّفاتهم. ويلوح لي أنّ ضمير هؤلاء ليس مستقيما لأنّهم لا يؤمّون الصلاة في الأوقات التي يعيّنها أسقفهم[٢]».

لم تكن محاربة أولئك «النصارى» من أصل يهوديّ للكنيسة الجامعة قد هدأت في بداية القرن الثاني، وبذلك كانت الكنيسة تشقّ طريقها المستقيمة وسط نارين: نار اليهوديّة بشقّيها المتنصّر والباقي على تهوّده، ونار الوثنيّة المضطهِدة، حتّى إنّ بعض المؤرّخين يعتقد بوجود صلة بين الفئتين من خلال التحريضات التي كان يقوم بها اليهود مع السلطات الرومانيّة ضد المسيحيّين[٣]. وعندما أثار اليهود

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٣
٢ - المرجع السابق، ص ٥٣
٣ - Duchesne, Mgr. Louis, Early history of christian church, PP. 71 - 79

الشغب على المسيحيّين في مدن فلسطين في حوالى سنة ١٠٧، وشى بعضهم بأسقف أورشليم الثاني بعد يعقوب، وكان اسمه سمعان، فقالوا «إنّه مسيحيّ من سلالة داود» فأمر حاكم فلسطين الرومانيّ بتعذيب سمعان، وكان طاعنا في السنّ، وأمر بعد ذلك بصلبه[1]. ويعتقد بعض الباحثين بإمكانيّة وجود ظروف مماثلة قد تكون وراء استجواب إغناطيوس أمام حاكم سورية المحلّيّ ممّا أدى إلى استشهاده في رومة إثر ذلك. وتذكر المدوّنات تفاصيل ذلك الاستجواب الذي اتّخذ فيه إغناطيوس موقفاً بطوليّاً رائعاً أكّد فيه للحاكم أنّه لن يتخلّى عن مسيحيّته مهما كان الثمن. وكان الثمن أن أُرسل إغناطيوس إلى رومة حيث طُرح للوحوش الضارية في مدرّج فلافيانوس في الثامن عشر من كانون الأوّل سنة ١٠٧، فمزّقت الوحوش جسده الطاهر مثلما مزّقت أجساد سواه من الشهداء المسيحيّين.

في هذه الأثناء، تابع الرومان التنكيل بالمسيحيّين في الشرق، وكما جاء في كتاب بعثه حاكم فلسطين إلى الأمبراطور الرومانيّ تريانوس، فإنّ «التنكيل لم يأتِ بالنتيجة التي توخّاها لأنّ المسيحيّين لم يتوقّفوا عن التوافد إلى قاعة المحاكمة مقدّمين ذواتهم للموت[2]». وفي عام ١١٢ أصدر تراجان مرسوما ينصّ على أنّ المسيحيّين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللأمبراطور حين يطلب منهم ذلك في المحكمة، فإنّهم سيعاقبون كخونة. وكانت عبادة الأمبراطور أكثر عبادات الدولة قوّة وانتشاراً، وقد أنشأها أغسطس وأصبحت تعبيراً مادّياً عن الولاء للعرش. وجعل مرسوم تراجان المسيحيّين خارجين حقيقيّين عن القانون في مئتي السنة التالية. وكانوا يلاحَقون ويعاقَبون بشكل منتظم في مناسبات متعدّدة[3].

١ - Euschius, hist. Ecc., IV, 22
٢ - Alalas, chrono., P. G., vol. 47, col. 414
٣ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٧

وهكذا، فقد كان على الذين ترأسوا كنيسة الرسل وساسوها بعد الرسل أن يكونوا مبشّرين وفلاسفة لاهوتيّين من جهة، وأن يكونوا مستعدّين للشهادة في أي وقت من جهة أخرى. فقد كان عليهم أن يحافظوا على طهارة العقيدة المسيحيّة واستقامتها ويصدّوا البدع والهرطقات، وأن يُشدِّدوا العزيمة والإيمان في قلوب المؤمنين وسط الاضطهادات والتضييق. وبديهيّ القول أنّه لولا هؤلاء، لما تمكّنت الكنيسة المسيحيّة المسالمة من التغلّب على أعظم أمبراطوريّة في التاريخ. ولم يكن رسل الكنيسة بالضرورة من الذين خلفوا بطرس على كرسيّ انطاكية، بل كان بعضهم فلاسفة وموظّفين وأساقفة ومترسِّلين. ومن هؤلاء كاتب أصبح قدّيساً، اسمه يوستينس Justinus، ولد في أوائل القرن الثاني في مدينة نابلس، ويقال إنّ أبويه لم يكونا سامريّين، وإنّه كان طالباً متحمّساً للفلسفة الأفلاطونيّة ثمّ اعتنق المسيحيّة نتيجة محاورة جرت له مع شيخ متواضع وقور لقيه على الشاطئ، وأوصاه بدراسة الأنبياء العبرانيّين والمسيح. وكان يوستينس قد درس المذاهب الفلسفيّة طلباً للحقيقة، فلم يقتنع. ولمّا اهتدى إلى المسيحيّة، أصبح المقتنع المؤمن بها، والمدافع الأوّل عنها، حتّى إنّه أسّس مدرسة لاهوتيّة فلسفيّة في رومة نفسها، ووضع دفاعين شهيرين عن الدين المسيحيّ. ولم يشذّ هذا القدّيس عن كبار آباء الكنيسة الأوّلين، إذ استشهد في رومة على خطاهم، بعد أن تجرّأ حين خاطب الأمبراطور أنطونينوس بيوس وقال: « ... أمّا نحن فإنّنا مقتنعون بأنّنا لن نسمح لأيّ كان بأن يُلحق بنا الأذى، ما لم يثبُت علينا فعل الأذى، أو يقوم البرهان على أنّنا رجال سافلون. أما بالنسبة إليك فاقتلنا لأنّك تستطيع ذلك، ولكنّك لا تستطيع أن تؤذينا ». وعندما رفض هذا البارّ أن يقدّم الذبائح للآلهة الرومانيّة، جُلد، وقُطع رأسه في رومة، وأضحى من شهداء المسيحيّة وقدّيسيها وآباء كنيستها الأبرار[١].

في هذه الحقبة، كانت الغنوسيّة قد انتشرت بشكل واسع، بعد أن تسرّبت

---

١ ـ راجع: المرجع السابق، ج ١، ص ٣٧٢؛ Justin, Apologia, I ch. 2.

تعاليم مدرستها من السامرة إلى مصر حيث تمركزت بشكل لافت، ويذكر بعض المرويّات أن مدرسة الإسكندريّة كانت قد أضحت مركزاً لتعليم الغنوسيّة وقد اشتهر فيها أساتذة كبار، أمثال ڤالنتينوس، وڤاسيليذس، وكربوكراتس، وكان على آباء الكنيسة أن يتصدّوا لهؤلاء، ومن الذين أفلحوا في ذلك، إيريناوس Iraeneus الذي أصبح قدّيساً. وكان إيريناوس قد تتلمذ على يدي پوليكارپوس Polycarpe الذي أصبح هو الآخر قدّيساً، والإثنان من مواليد آسية الصغرى، أمّا پوليكارپوس، فكان أسقفا على إزمير، بعد أن كان تتلمذ على يدي القدّيس يوحنا الرسول، ومات شهيداً سنة ١٥٦ إذ أحرق حيّاً في مدينته.

تصدّى القديس إيريناوس للغنوسيّة عبر كتاب شهير وضعه تحت عنوان: «ضدّ البدع». وكان لكتابه هذا تأثير فعّال في إظهار ضلال الغنوسيّة. أمّا نهاية حياة إيريناوس، فكانت شهادة أيضاً في مدينة ليون الفرنسيّة التي كان أسقفاً عليها، ويُعتقد أنه استشهد سنة ٢٠٢.

بيدَ أنّ الغنوسيّة تابعت نشاطها بعناد، حتّى إنّ أحد أبناء الأساقفة المستقيمي الرأي، راح يقول بغنوسيّة مسيحيّة طائفاً في آسية الصغرى مبشّراً بهذا المذهب. هذا المبشّر الغنوسيّ، هو مرقيون Marcion، ابن أسقف سينوب، وقد أضاف أتباعه فيما بعد إلى إنجيل لوقا ورسائل بولس العشر، رسالة مرقيون في التناقض بين التوراة والإنجيل. فصار لهم كتابهم المقدّس الخاصّ الذي راحوا يستعملونه في كنائسهم[١].

وكان على القدّيس پوليكارپوس الذي لقّب مرقيون بأنّه «أوّل خلق الشيطان» أن ينظّف الكنيسة من الضلال الذي بثّه فيها مرقيون، بعد أن وصل هذا الأخير إلى رومة، وراح ينشر عقيدته. ويذكر بعض المرويّات أنّ مرقيون الغنوسيّ

١ - راجع: Duchesne, Mgr Louis, Early history of christian church, P. 126; Leberton J., la crise Gnostique, II, PP. 30 - 33; Harnack A., Maricon, PP. 41 - 48, 165.

قد «ندم وارتضى بما اشترطته عليه الكنيسة قبل أن تحصل وفاته في حوالى سنة ١٦٠[١]». غير أنّ الغنوسيّة، رغم ارتداد مرقيون ودفاع الآباء، بقيت شائعة حتّى أواخر القرن الرابع في إنطاكية ومصر وفلسطين والجزيرة العربيّة وسورية وفارس وغيرها من البلدان[٢]. ذلك أنّ المذهب الغنوسيّ بقي يستقطب إليه بعض الدعاة، منهم مرديصان الرهاويّ (١٥٤ ـ ٢٢٢) الذي كتب مقالات كثيرة في الفلك والقدر والشرائع[٣].

إلى جانب تلك البدع، تعرّضت المسيحيّة في هذه الحقبة الصعبة من تاريخها للتشنيع الخبيث من قبل الرومان الذين راحوا يشيعون بين العامّة أنّ المسيحيّة ليست سوى إحدى الديانات السرّية الشاذّة، وأنّ أتباعها «يجتمعون في كلّ أسبوع ليقوموا بضروب العربدة والخلاعة والسكر وسط طقوس من السحر الأسود وسفك الدماء». ولم يتورّع بعض فلاسفة الإغريق والرومان عن تحقير الدين الجديد واعتبار أتباعه «برابرة يكنّون العداء للناس وللشرائع وللعادات والتقاليد ولثقافة المجتمع اللاتينيّ[٤]».

تصدّى آباء الكنيسة لجميع هذه الجبهات الشرسة ضدّ المسيحيّة بالفكر والكلمة والإيمان والشهادة. وقد اشتهر من بين هؤلاء القدّيس كوادراتوس في عهد أدريانوس، والقدّيس الأثيني أريستيدس في عهد أنطونيوس بيوس، وأريستون البلاويّ. وقد يكون أشهر هؤلاء القدّيس يوستينوس (حوالى ١١٠ ـ ١٦٣) الذي استشهد في رومة. وتاتيانوس السوريّ (١١٠ ـ ١٨٠) الذي وُلد في الجزيرة السفلى من أبوين وثنيّين وتنصّر في رومة على يد القدّيس يوستينوس بعدما كان

---

١ ـ Harnack, A op. cit., 25

٢ ـ Epiphanius, haereses, XLII, 1; Haruack A., 153 - 160

٣ ـ راجع: البطريرك اغناطيوس افرام، الدرر النفيسة، ص ٢٤٩

٤ ـ راجع: Marc-Aurèle, Pensées, XI, 3; Labriolle P., La Réaction Paienne, PP. 117 - 118.

قد درس الفلسفات اليونانيّة، ولم يقتنع بالأديان التي كانت سائدة، بل كان من ألدّ أعدائها[1]. الاّ أن تاتيانوس قد انحرف في النهاية نحو الغنوسيّة.

كذلك برز من المدافعين عن المسيحيّة في نهاية القرن الثاني ثيوفيلوس الإنطاكيّ الذي ترأس أسقفيّة انطاكية بين ١٦٩ و ١٨٥، فكان الأسقف السادس بعد بطرس، وترك مؤلّفات عدّة في عقيدتي التوحيد والتثيث. وقد أصبح ثيوفيلوس قديساً ويُعدّ من آباء الكنيسة. كذلك اشتهر في هذا المجال أسقف إنطاكية التاسع بعد بطرس (١٨٥ ـ ١٩١) وهو سراپيون الذي انكبّ على تصويب الإنحرافات العقديّة. ومن الذين تجندوا لمحاربة الغنوسيّة قبل نهاية القرن الثاني، هيغيسيپوس الباحث (١١٠ ـ ١٨٠) صاحب كتاب «الذكريات» الذي أخذ عنه أفساپيوس المؤرِّخ بعض الفصول المتعلّقة بأخبار أساقفة أورشليم وبعض الذين عاصروا السيّد المسيح[2].

ذروة الاضطهادات في القرنين الثالث والرابع

لم يثنِ دفاع آباء الكنيسة واستشهادهم ولا دفاع الفلاسفة والمفكِّرين الذين اعتنقوا المسيحيّة الدولة الرومانيّة عن إصرارها على اضطهاد المسيحيّين، وكانت الاضطهادات تخبو أحياناً وتتعاظم أحياناً أخرى، حسب ميول الأمبراطور ومعاونيه، وحسب الظروف السياسيّة والأحوال السائدة وقد مرّت المسيحيّة في أقسى ظروفها، قبل أن تنتصر على الأديان الوثنيّة إذ أصبحت الأمبراطورية ميّالة إلى الاعتراف بدين المسيح تمهيداً لجعله الدين الرسميّ للدولة، وقد بدأ هذا

١ ـ راجع؛ Lebreton J., Apologétique chrétien ,Fliche et Martin, histoire de l'église, I, 424, N. 2; Eusèbe, Histoire Ecclésial, IV, 6.18; Origène, contra celsum, IV, 52; Bardy G., la conversion dans les premiers siècles, (Année Théal., 1941) PP. 89 - 106, 206 - 232

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٧٨ ـ ٧٩؛ Eusèbe, hist. ecc., IV, 22

الاتّجاه الأمبراطور قسطنطين الكبير، بعد أن قضى على منافسه في الحكم ماكسانس على أبواب رومة سنة ٣١٢، وتخلّص من ليقينيوس سنة ٣١٣.

يبدو أنّ المسيحيّة قد نعمت بشيء من الهدوء في بداية عهد الأمبراطور الرومانيّ ذي الأصل الفينيقيّ الإفريقي سبتيموس سويروس (١٩٣ ـ ٢١١). إلاّ أنّه في السنة العاشرة من حكمه، أمر بتحريم التبشير بالدينين اليهوديّ والمسيحيّ، ثمّ اتّخذ إجراءات عديدة لمنع انتشار المسيحيّة وتوسّعها، خاصّة بعد أن أفزعه إقبال الوجهاء والأعيان في الإسكندريّة على الدين المسيحيّ. ومن شهداء اضطهادات سويروس، ليونيذاس والد أوريجانوس الشهير، والقدّيسة الشهيدة بوثميانة، إضافة إلى عدد كبير من المبشّرين والواعظين والمؤمنين في أنحاء مصر. وكان المبشّرون يومذاك قد انتشروا في نواحي قيصريّة فلسطين وعكّة وصور وبيروت إضافة إلى الجبال اللبنانيّة. فعند «منصرم القرن الثاني، كانت الجالية المسيحيّة في صور قد أصبحت من الكثرة والقوّة بحيث أنّه أُنشئ في المدينة كرسي لمطران. وأصبح لهذه المطرانيّة بعد قليل أربع عشرة أسقفيّة. وفي كنيسة صور دُفن أحد آباء الكنيسة المشهورين: أوريغون، الذي كان يرأس مدرسة الإسكندريّة التي تعنى بتعليم العقيدة المسيحيّة قبل أن تنتقل هذه المدرسة إلى قيساريّة[١]». وكانت قد نشأت في صيدا، جارة صور، كنيسة أيضاً. وفي ما بين النهرين، إعتنق المسيحيّة ملك مدينة الرها[٢]، أبجر التاسع (١٧٩ ـ ٢١٦) فانتشرت بسرعة بين رعاياه.

خفّ الاضطهاد الرومانيّ للمسيحيّين في عهد كركلاّ (٢١١ ـ ٢١٧) خليفة سويروس دون أن ينقطع تماما. واستمرّ الوضع على هذه النسبة من الأمان في عهود الأباطرة الذين خلفوا كركلاّ من الأسرة الشرقيّة. وسط هذه المهادنة،

---

١ ـ حتي ـ لبنان في التاريخ، ص ٢٥٥

٢ ـ الرها، وهي التي عرفت بـ «أورفا» وأوديسّا Uirfa - Edesse

استعادت كنيسة أورشليم بعض نشاطها. وأنشأ فيها أسقف قيصريّة قبدوقية ألكسندروس مكتبة جمعت أهمّ ما صُنِّفَ في الدين المسيحيّ، وما جُمع من وثائق ورسائل في هذا المضمار. وأضحت مكتبة أورشليم المرجع الأساسيّ للتاريخ الكنسيّ لتلك الحقبة. وكان ألكسندروس هذا قد ساس كنيسة أورشليم بين سنة ٢١٢ وسنة ٢٥١ نيابة عن أسقفها الأصيل القدّيس زقيسوس بعد أن شاخ وعجز عن القيام بأعباء الرسالة. وفي زمن سياسة ألكسندروس لكنيسة أورشليم، ازدهر حجّ المسيحيّين إلى الأماكن المقدّسة بشكل علنيّ، ممّا يفيد عن نسبة جيّدة من الأمان الذي شهده المسيحيّون لبعض الوقت. ومن دلائل هذا الاستقرار النسبيّ نشوء مدرسة قيصريّة فلسطين التي أسّسها أوريجانس حوالى سنة ٢٣١، وكان لتلك المدرسة أثر فعّال في انتشار المسيحيّة في فلسطين وجوارها[١].

هذا الهدوء، لم يدم طويلاً. ففي حوالى سنة ٢٣٤، وقع انقلاب عسكريّ ضدّ الأمبراطور سويروس ألكسندروس تُوِّج بنتيجته مدرّب الجند يوليوس مكسيموس أمبراطوراً، بعد أن قتل الجند الثائرُ الأمبراطور سويروس ألكسندروس ووالدته. وكان أوّل ما أقدم عليه الأمبراطور العسكريّ الجديد ان اضطهد حاشية سويروس الذي كان متعاطفاً مع المسيحيّين. هذا التعاطف جلب عودة الاضطهاد من قبل الأمبراطور الجديد الذي راح ينفي ويعتقل رجال الدين المسيحيّين، وقد استشهد في عهده عدد من الأساقفة والمبشّرين في سورية وفلسطين. إلا أن قِصر عهد مكسيمينوس، أدّى إلى محدوديّة نتائج هذه الموجة من الاضطهاد. وعندما تسنّم الأمبراطوريّة فيليبّوس المعروف بالعربيّ (٢٤٤ ـ ٢٤٩) عاد الهدوء إلى أفضل ممّا كان عليه قبل مكسيموس بالنسبة للمسيحيّين. حتّى إن فيليبّوس جعل من بعض أساقفة إفريقية ولاة أمبراطوريّين، إضافة إلى من أدخلهم من نصارى في خدمة الدولة، حتّى إنّ بعضهم اعتبر أنّ فيليبّوس كان مسيحيّاً[٢].

١ ـ راجع: Eusèbe, hist. ecc., VI, 19, 27; Patrologia Graeca, vol. 10, col. 1049 - 1105

٢ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٩٧ ـ ٩٩.

يتّضح من مسار الأحداث أنّ الأسرة الأمبراطوريّة الشرقيّة كانت على شيء من التعايش مع الدين المسيحيّ، يختلف كلّياً عن العداء الذي أظهرته الأسر الغربيّة ضد المسيحيّين. وتتّضح هذه المعادلة أكثر نتيجة انتقال السلطة سنة ٢٤٩ إلى أمبراطور غربيّ: داقيوس، الذي انتزع الأمبراطوريّة حرباً من يد فيليپّوس إثر معركة حاسمة وقعت قرب ثيرُونة الإيطاليّة قضى بخلالها فيليپّوس مقاتلاً. فما أن انتقلت السلطة إلى يد داقيوس حتّى جعل السلطة المركزيّة في الدولة تضع على رأس اهتماماتها القضاء على المسيحيّة والمسيحيّين. وكأنّ في ذلك نوعاً من الانتقام من الأسرة الأمبراطوريّة الشرقيّة، التي يبدو أنّ الغربيّين قد نظروا إليها وكأنّها تمتّ بصلة في شرقيّتها إلى الأصول التي جاءت منها الديانة المسيحيّة.

حرّم داقيوس المسيحيّة تماماً. حتّى إنّ كبار مؤرّخي الكنيسة يقولون بأنّ داقيوس «حاول محو اسم يسوع[1]». ذلك أنّ الحكم الامبراطوريّ ألّف لجانا لتنفيذ إرادة الأمبراطور القاضية بإرغام المسيحيّين على عبادة الآلهة وتقديم البخور والخمر لها وتناول اللحم المقدّس. وفي منتصف القرن الثالث، بدأت اللجان تنفّذ مهمّتها. وكان من الطبيعيّ أن يمتنع المؤمنون عن السجود للآلهة، فكان الاضطهاد المروّع الذي استمرّ سنة كاملة. وكان من جملة من استشهدوا في تلك السنة، أسقف إنطاكية، بابولا، ومعه ثلاثة من معاونيه، وأسقف أورشليم ألكسندروس. وتعرّض أوريجانس لأقسى ضروب التعذيب في السجون الرومانيّة، إلاّ أنه نجا من الموت بأعجوبة. ومن شهداء ذلك الاضطهاد القدّيس خريستوفوروس الذي اعتُقل في إقليم ليقية جنوب آسية الصغرى، «فجُلد بقضبان الحديد حتّى تناثر لحمه واستحمّ بدمه، ثمّ طرح في لهيب النيران. ولمّا نجا منها عُرِّض لسهام الجنود فلم يمت، «فجُزّ رأسه جزّاً[2]». وفي سجلّ الأمبراطور داقيوس «مآثر» كبرى في الاضطهاد شملت الجلد والإحراق والذبح وتقطيع الأوصال. وعندما انتشر وباء الطاعون في

١ - Origène, Homel, IX, in Josuam

٢ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣

نواحي الأمبراطوريّة في عهد الأمبراطور غالوس (٢٥١ ـ ٢٥٣) رأى الوثنيّون أنّ سبب انتشار الوباء، إنّما هو غضب الآلهة لانتشار المسيحيّة، وراحوا يصخبون مطالبين بإبادة المسيحيّين، فكانت جولة جديدة أدّت إلى استشهاد كبير للمسيحيّين في الغرب والشرق[1].

هدأ الاضطهاد قليلاً في بداية عهد خليفة غالوس: ڤاليريانوس (٢٥٣ ـ ٢٦٠). غير أنّ سبب عودة الاضطهادات هذه المرّة كان تعرّض الأمبراطوريّة للخطر بسبب هجومات الإفرنج والألمان على حدودها الغربيّة، وتحرّك القوط في وادي الدانوب وحوض البحر الأسود، وثورة البربر في إفريقية، وعبور شابور الفرات وخرق حرمة الأمبراطوريّة... ذلك أنّ الوثنيّين قد رأوا، هذه المرّة أيضاً، أنّ سبب كلّ هذه الشدائد إنّما هو امتناع المسيحيّين عن إرضاء الآلهة، فكانت جولة جديدة من الاضطهادات إبتداء من سنة ٢٥٨، وكان من أشهر شهداء هذه الجولة أسقف رومة سكنوس الثاني. وقد استمرّ هذا الاضطهاد حتّى بداية عهد غاليانوس (٢٦٠ ـ ٢٦٨) إبن زنوبية، وقد تجاوب غاليانوس مع طلب الأساقفة بردّ كنائسهم ومدافنهم المصادرة إليهم. إلاّ أن بعض الحوادث التي جرت في عهد غاليانوس، تفيد بأنّ الإضطهاد لم يتوقّف بعهد هذا الأمبراطور توقّفا تامّاً وإن كانت قد خفّت وطأته.

جاء الاضطهاد الأعظم الذي شهدته المسيحيّة في العهود الرومانيّة كافّة، نتيجة أمر الأمبراطور ديوقليتيانس (٢٤٥ ـ ٣١٣).

نصّ مرسوم هذا الأمبراطور الذي «صدر في الثالث والعشرين من شباط (فبراير) سنة ٣٠٣ على محو كنائس المسيحيّين وحرق كتبهم وطرد كلّ من يشغل منهم وظيفة مدنيّة وعسكريّة من منصبه. وأمر بفرض جميع أنواع العقوبات باستثناء الإعدام. ولكن حتّى الإعدام طبّق على مقياس واسع[2]».

١ ـ راجع: Allard, P., les dernières Persécutions du IIIème siècle, ch. I.

٢ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٨

قبل ذلك التاريخ، كانت المسيحيّة قد انتشرت بشكل واسع في الشرق وأقدمت الكنيسة على تشييد المعابد الفخمة، منها كنيسة في عمواس فلسطين التي كشفت عن آثارها الدراسات الحديثة، ومثلها في الصالحيّة عند الفرات، وأخرى في نيقوذية على تلّة تقابل التلّة التي كان يقوم عليها قصر الأمبراطور ديوقليتيانس نفسه. وفيما راح المؤمنون يملأون الكنائس وباحاتها في المناسبات، خفّ الإقبال بشكل ملحوظ على الهياكل الوثنيّة.

هذان الازدهار والتوسّع، أثارا حسد كبار الموظّفين والكهنة الوثنيّين والفلاسفة الرومان المحافظين، فراح جميع هؤلاء «يملأون رأس الأمبراطور بتقارير عن مؤامرات مزعومة وعن أعمال شغب لا وجود لها. ويبدو أنّ هذا الأمبراطور، الذي حكم تسعة عشر عاماً ساكتاً عن المسيحيّة، كان يكره سفك الدماء والعنف، لذلك بقي طويلاً يحاول إبعاد كأس اضطهاد المسيحيّين عن شفتيه، متجاهلاً نصائح العرّافين والوزراء والأعوان والكهنة والفلاسفة الرومان الوثنيّين. إلاّ أنّ إجماع تلك الهيئات الوثنيّة على وجوب اللجوء إلى العنف للتخلّص من الدين المسيحيّ وأتباعه، وإصرارها على موقفها، جعل الأمبراطور يصدر مرسومه الذي أثار دهشة أهل الكنيسة، لأنّهم كانوا يعتبرون أنّ ديوقليتيانس يميل إلى المسيحيّة، حتّى أنّ زوجة الأمبراطور وابنته كانتا أغلب الظن اعتنقتا الدين المسيحيّ[١].

ما أن صدر الأمر الأمبراطوريّ حتى هاجمت الشرطة كنيسة نيقوميذية المواجهة لقصر الأمبراطور، وقامت عناصر القوّة المهاجمة بتخريب الكنيسة وإحراق ما كان فيها من كتب. حدث ذلك لحظة صدور القرار الأمبراطوريّ. وفي صباح اليوم التالي، ألصق رجال الأمبراطوريّة منشور الإدارة العليا على جدران الشوارع في نيقوميذية، «فنزع مسيحيّ واحداً منها ومزّقه، فأُلقي القبض عليه

١ - Lactanius, Bk XV.

وأحرق[1] » فكان هذا أوّل غيث الاضطهاد الفظيع. إذ بعد ذلك الحادث ، إتَّهم أهل البلاط المسيحيّين بمحاولة إحراق القصر الأمبراطوريّ، ممّا ألهب الغيظ في قلب الأمبراطور الذي، منذ تلك اللحظة، اعتبر أنّ جميع المسيحيّين في بلاطه وعاصمته أعداؤه، وخيّر زوجته بريسكة وابنتها ڤاليريا بين الموت والرجوع عن المسيحيّة... فاختارتا الحياة الدنيا. إلاّ أنّ كبير أمناء البلاط دوروثاوس، ورئيس الحجّاب بطرس، فضّلا الشهادة. وبعدهما دُقّ عنق أسقف نيقوذية: أنثيموس، وأُعدم جميع كهنته، وعدد كبير من أعضاء رعيّته بمن فيهم الأطفال والنساء[2].

وإذ شبّت ثورة في ملاطية وسورية وسلفكيّة، نسب المقرّبون من البلاط هذا التمرّد إلى المسيحيّين، ممّا زاد في غضب الأمبراطور الذي ألحق بمرسومه الأوّل مَرسوماً جديداً قضى باعتقال رجال الإكليروس، ألحقه بمرسوم آخر ينصّ على « إطلاق سراح من يكرّم الآلهة، وعلى تشديد العذاب على من يرفض ذلك[3] ».

ما من مراجع بوسعها أن تفيد بدقّة عن نسبة الذين خضعوا لتدبير الإغراء والتهويل، ولكن من الثابت أن عدداً كبيراً من قادة الكنيسة استشهد بخلال الشهور الأولى لبدء الاضطهاد، وأُلقي القبض على بعضهم الآخر، وسيقوا للقيام بالأشغال الشاقّة في المناجم، ومن بين هؤلاء أسقف إنطاكية: كيرلّس، الذي خلفه في رئاسة الكنيسة تيرانوس (٣٠٤ ـ ٣١٤). وقد استشهد في قيليقية عدد كبير من النساء والرجال، إضافة إلى ما تعرّض له المؤمنون من فنون التعذيب، كإدخال أسنان القصب تحت أظفارهم وصبّ الرصاص المذوّب عليها[4].

في مقابل ذلك، يبدو أنّ عدداً كبيراً من المؤمنين هاله العذاب، فارتدّ. يؤكّد هذا ما ذكره المؤرّخون عن « رومانوس شمّاس قيصريّة فلسطين، الذي كان مقيماً

---

١ ـ Lactanius, Bk. XIII.

٢ ـ Lactanius, Bk. XIV; Eusébius, Bk VIII, ch. 6.

٣ ـ Eusébius, Bk. VIII. ch. 6

٤ ـ Eusébius, Bk. VIII, ch. 12

في إنطاكية يومذاك، فهاله تدمير الكنائس وارنداد بعض المؤمنين والمؤمنات، فهبّ لساعته يقوّي النفوس ويحذّر من السجود للأصنام، فقُطع لسانه وزُجّ في السجن. وإذ هُيّئت نار لإحراقه، أمطرت السماء بشدّة وأطفأتها، فلجأ الجلاّدون إلى شنقه في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ٣٠٣. وقُبض على أسقف صور تيرانيوس، وعلى كاهن صيدا الطبيب: زينوپيوس، وإذ أعرضت عنهما الوحوش الضارية لمّا أُلقيا إليها في مدرّج إنطاكية، حُزّ رأسهما حزّاً[١]. ومن الذين نالوا إكليل الشهادة في ذلك الحين، الضابطان سرجيوس وباخوس في مقاطعة الفرات حيث أنشئ فيما بعد هيكل لتكريمهما تحوّل لاحقاً إلى صرح روحيّ كبير، وقد حملت المدينة الواقعة هناك اسم سرجيوس، فعُرفت بسرجيوپوليس، وهي التي حوّل العرب اسمها إلى الرصافة.

ومن شهداء السنة الأولى للاضطهاد ما يذكره التقليد عن استشهاد بربارة في بعلبك، وجاورجيوس، الذي تقول الأسطورة أنّه قتل التنّين في خليج بيروت المعروف بخليج مار جرجس. بيدَ أنّ المراجع التاريخية لا تؤكّد شيئاً عمّا يذكره التقليد بشأن بربارة وجرجس. ولكنّ الثابت أنّ أوّل شهداء فلسطين في اضطهاد ديوقليتيانوس كان پروكوپيوس القارئ الذي كان يقرأ الأسفار والصلوات في كنيسة بيسان، وتبعه زكّى شماس كنيسة جدر، وألفيوس قارئ كنيسة قيصريّة[٢].

أمّا أشهر شهداء السنة التالية: ٣٠٤، فكان تيموتاوس وأغاپيوس وتقلا في غزّة، وديونيسيون الطرابلسيّ الفينيقيّ، ورميلوس أبوذياكون في اللدّ، والكسندروس الغزاوي، وهم أشهر الشهداء الثمانية الذين نالوا الإكليل في تلك السنة، ويوليانوس الطرسوسيّ، ويوليته وطفلها كرياكوس اللذين استشهدا في طرسوس. والفاضلة ڤيرونية في نصّيبين. وتحدّث المؤرّخون «عن مسيحيّين في

١ ـ Eusébius, Bk. VIII, ch. 7

٢ ـ Eusébius, Martyr. Palest., I, II

الجزيرة العربيّة ذُبحوا بالفأس، وعن آخرين في إنطاكية شويت أجسامهم على المشواة. كما تحدّثوا عن نساء كنّ يرمين أنفسهنّ في نهر العاصي للخلاص من الاغتصاب. وبلغ من كثرة الذين أُفنوا في الأمبراطوريّة بهذه الطريقة أن أقام الجلاّدون الأمبراطوريون أخيراً عمود نصر يحمل كتابة أثريّة تفتخر بأنّهم أبادوا اسم المسيحيّين وخرافتهم وأعادوا عبادة الآلهة إلى سابق صفائها وزهوها. بيدَ أنّ المسيحيّة أصبحت بعد سنوات قليلة الديانة الرسميّة للدولة[١] ».

كان ديوقليتيانوس عندما استلم أزمّة الحكم إثر مناداة الجند الرومانيّ به أمبراطوراً سنة ٢٨٤، قد جعل للدولة الرومانيّة أمبراطورَين، وجعل لكلّ منهما قيصرا يعاونه في الحكم ويحلّ محلّه عند الوفاة أو اعتزال الوظيفة، وطبّق هذا النظام الجديد، فجعل مكسيميانوس امبراطوراً يشاطره الحكم، وحكم ديوقليتيانوس الشرق، وسلّم حكم الغرب لمكسيميانوس. وكان من الطبيعيّ أن يطبّق مكسيميانوس في الغرب ما طبقه ديوقليتيانوس في الشرق، لا بل إنّ مكسيميانوس قد ذهب في أعمال اضطهاد المسيحيّين إلى ما هو أبعد وأشدّ فظاعة وهولاً، فقد كان يأمر كلّ مسيحيّ أن يختار بين تقديم الذبائح إلى الآلهة المعترف بها في الأمبراطوريّة أو الموت المحتّم. "وإنّه ليصعب على المؤرّخ أن يحصي عدد الذين بُترت أعضاؤهم أو صلبوا أو أغرقوا أو أُحرقوا أو رمي بهم إلى الوحوش الكاسرة في هذه المنطقة[٢] ».

رغم استقالة ديوقليتيانوس وزميله مكسيميانوس من المنصبَين الأمبراطوريّين سنة ٣٠٥، فقد استمرّ الاضطهاد ضدّ المسيحيّين في عهد الأمبراطورين اللذين خلفاهما: قسطنديوس في الغرب وغلاريوس في الشرق. وكان القيصر المعاون لقسطنديوس: فلافيوس سويروس، ولغلاريوس: مكسيمينوس دايا.

١ - راجع: حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٦٨; Eusébius, Bk, VIII, ch. 12, col 1.2
٢ - حتي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٨.

كان أبرز شهداء هذه الحقبة التي استمرّت حتّى سنة ٣١٠ إيفيانوس الذي كان قد تلقّن الفقه في بيروت، وتعمّق في اللاهوت على يدي پمفليس. وفي صور «زُجّ اولپيانوس في جلد ثور مع كلب وأفعى ضخمة وألقي في البحر. وفي إنطاكية بسط الشيخ الفلاح برلاها يده إلى لهيب النار حتى فنيت ونُكّل به تنكيلاً فظيعاً»... وفي إنطاكية أيضاً باغت الجند بلاجيّة الفتاة بمفردها في بيتها، فاستأذنتهم لترتدي أجمل ما لديها وصعدت إلى السطح ورمت نفسها إلى أسفل... وأستشهدت دومنينة الإنطاكيّة وابنتاها برنيقية وبروسذوكي برمي أنفسهّن معاً في الفرات وقد فضّلن الموت على الخضوع لرغبات مكسيميوس الفاسق. كما نالت ثيودوسية الصوريّة إكليل الشهادة في قيصريّة فلسطين بعد أن مشّط الجند جسدها بأمشاط حديديّة. وعَذّب لوكيوس الحاكم الطبيبين العربيَّين قوزما ودميانوس وضرب عنقيهما بالسيف. كما نفّذ حكماً بالأشغال الشاقة على سلوانس كاهن غزّة ورفاقه في وادي عربة. وطُرح دومنينوس في النار وأُدخل پامفيلوس السجن بعد عذاب أليم. واستشهد بولس الغزّاويّ. إضافة إلى أنطونيوس وزبينا وجرمانوس والفتاة البيسانيّة أوناثا. ثمّ استشهد پامفيلوس مع أحد عشر شهيداً بينهم ڤالانسيوس الشيخ شمّاس إيليه وبورفيروس الخطّاط[١].

نهـــاية الاضطهـــادات

عصفت في نهاية العقد الأول من القرن الرابع بالأمبراطورية الرومانيّة موجة عنيفة من الصراع على الحكم أصبح بنتيجتها للدولة الرومانيّة ثلاثة أباطرة وثلاثة قياصرة. وشاعت اغتيالات القياصرة تحت ستار الانقلابات المتواصلة. وعمّ الاضطراب الأوساط العسكريّة والسيّاسية. وقد اتّضح لأتباع الديانات الوثنيّة «ولأولئك الذين كانوا يرون في استمرارها نفعاً مادّيّاً، بأن المسيحيّة آخذة في

١ - Eusébius, Mart. Palest. IV - VII

الانتشار، ولن تعتم حتى تحتلّ المقام الأوّل في الحقل الروحيّ. وكذلك اتَّضح للدولة وموظّفيها أنّه كلّما تدهورت الأمور السياسيّة وتردّت أحوال الأمبراطوريّة تحسّنت أحوال المسيحيّة واتّسع نطاقها[١] ».

وهكذا أصدرت الأمبراطوريّة الرومانيّة بهيئتها العليا مجتمعة في نيسان (إپريل) من سنة ٣١١ تلك البراءة الشهيرة التي اعترفت بوجود المسيحيّة وسمحت للمسيحيّين بصلاة الجماعة شرط عدم الإخلال بالنظام[٢].

ما أن صدرت هذه البراءة حتّى أضحت المسيحيّة ديانة شرعيّة لأوّل مرّة في تاريخ الأمبراطوريّة الرومانيّة. وبدأت إعادة الكنائس إلى أصحابها في الشرق باستثناء سورية ومصر حيث حاول مكسيميليوس يائساً استئناف الاضطهاد (٣١١ ـ ٣١٢) مؤسّساً منظّمة وثنيّة على غرار الكنيسة لمحاربة النصرانيّة متوسّلاً من أجل ذلك أحقر الأساليب[٣] ممّا جعل ألوف المسيحيّين يفرّون من صور وغيرها من المدائن ليتشرّدوا في الأماكن النائية. في هذه الحقبة استشهد أسقف حمص: سلوانس، إضافة إلى شمّاسه لوقا وقارئ الكنيسة موكيوس ويوليانوس الطبيب ولوقيانوس المعلم الإنطاكيّ، الذي قرّظه يوحنّا فم الذهب، وقد دُفن في مدينة ذريبانة حيث شُيّد هيكل فخم فوق ضريحة بأمر من القدّيسة هيلانة. وذريبانة هي التي أصبحت تحمل فيما بعد اسم هيلانة: إيلينوپوليس.ومن كبار شهداء هذه الحقبة الأسقف الشهير ميتوذيوس الأوليمپي[٤].

كان قسطنطين الكبير (٢٧٤ ـ ٣٣٧) قد اعتلى عرش الأمبراطوريّة سنة ٣٠٦، إلاّ أنّه لم يسيطر على كامل الأمبراطوريّة قبل سنة ٣١٢ عندما هزم خصمه مكسانوس على أبواب رومة سنة ٣١٢. وكان أوّل ما فعله قسطنطين بعد هذا

---

١ ـ حتي، لبنان في التاريخ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩

٢ ـ Zeiller j., Dernière persécution, Fliche et Martin, II, 475

٣ ـ Eusébius, Bk. IX, col. 5

٤ ـ Vaillant A., De Autexusio de méthode d'olympe ,Patrol. orientalis, XXII, 5, 636 N. 1

الانتصار أن أطلق الحرّيّة للدين المسيحيّ وشجّعه آمراً بإعادة أملاك الكنائس المصادرة إلى المسيحيين موجباً على موظّفي الماليّة ان يقدّموا إلى الكنائس الكاثوليكيّة الجامعة، لا الأدونانيّة، ما تحتاجه من الأموال. وكتب إلى مكسيمينوس زميله في الشرق موجباً إنهاء الاضطهاد. وفي ٣١٣ صدر نصّ رسميّ عن جناحي الأمبراطوريّة يتضمن التالي:

«نحن قسطنطين أوغسطوس وليكينيوس أوغسطوس بعد تبادل الرأي في ميلان، تبيّن لنا أنّ مصلحة الدولة تقضي بتنظيم أمور التعبّد ومنح المسيحيّين وجميع الرومانيّين حقّ اتّباع الدين الذي يؤثرون، وذلك ليرضى الإله، أيّاً كان، عنّا وعن جميع الخاضعين لنا. وبعد التبصّر في هذا الأمر قرّرنا عدم التعرّض لحرّيّة المعتقد. وهكذا فإنّنا لا نمنع أحداً من الناس عن اتّباع دين المسيحيِّين أو أي دين آخر يختاره المرء لنفسه آملين أن ننال بذلك رضى الاله الأعلى وبركته[1]».

بهذا انتهى عصر الاضطهاد، وأصبحت الديانة المسيحيّة متساوية من حيث الحقوق بالديانات الوثنية القديمة. وكان من الطبيعيّ، وسط هذه المساواة، أن تسجّل المسيحيّة انتصاراً كاسحاً على الديانات الوثنيّة وأن لا يطول الزمن ليصبح دين المسيح دين الأمبراطورية.

الصراع بين المسيحية والوثنية

عندما أصبحت المسيحيّة كدين متساوية من حيث القانون مع الوثنيّة، انتقل الصراع بين الديانتين من مرحلة اضطهاد الوثنيّة للمسيحية إلى مرحلة الصراع بينهما.

تمثل هذا الصراع سياسيّاً بين ليكينيوس أمبراطور الشرق وقسطنطين أمبراطور الغرب. وكان ليكينيوس لا يزال وثنيّاً، ولم تكن خطوته المشتركة مع

---

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٨١

قسطنطين في إعطاء الحرّيّة الدينيّة للمسيحيين سوى مجاراة لزميله قسطنطين ساعياً لخطب وده ولكسب تأييد المسيحيِّين الذين كانوا قد أصبحوا عنصراً مهمّاً جدّاً في الشرق ولا سيّما في آسية الصغرى. وبينما راح قسطنطين يهتمّ بشؤون الكنيسة الداخليّة في الغرب، بقي مكسيمينوس ممتنعاً عن مساعدة أساقفة الشرق لإعادة بناء كنائسه. وهكذا فعندما بدأت طلائع التنافر بين قسطنطين وليكينيوس سنة ٣٢٠، بدأ هذا الأخير يضيّق على رجال الكنيسة وكبار الموظّفين المسيحيِّين. ويذهب بعض المؤرِّخين إلى أنّ الأسباب الحقيقيّة التي كانت كامنة وراء إجراءات ليكينيوس إنّما هي محاولته كسب تأييد وتنيّي الغرب من جهة، وتخوّفه من تعاون مسيحيّي الشرق مع قسطنطين ضدّه.

تفنّن ليكينيوس في تضييقه على المسيحيّين في تلك السنة، فراح يدعو إلى المجامع الكنسيّة، ليحرّم اجتماع الجنسين من المسيحيّين في مكان مقفل، موجباً اجتماعهما للصلاة في الهواء الطلق وخارج المدن، مصدراً أمره بوجوب تدريب كهنة من النساء لإرشاد بنات جنسهنّ. وكثر عدد الإكليريكيّين في السجون. ثمّ لجاء ليكينيوس إلى تطهير البلاط من المسيحيّين. وعاد إلى سياسة أسلافه فأمر بوجوب التضحية للآلهة وكان من الطبيعيّ أن يمتنع الأساقفة والإكليريكيّون وعدد كبير من المؤمنين عن طاعة هذه الأوامر، فتجدّدت المطاردات والتضييقات ومصادرة الأوقاف، وتجددّ تدمير الكنائس وسَوْق المؤمنين للعمل في المناجم والحكم على بعضهم بالإعدام. وهنا استشهد باسيليوس متروپوليت ذيوسپونطه التابعة لإنطاكية، وكثر عدد الشهداء في شرق آسية الصغرى، ومن هؤلاء الأربعون شهيداً في سبسطية في أرمينية الصغرى.

هذه الأعمال أثارت قسطنطين الذي نهى في الخامس والعشرين من ايار (مايو) ٣٢٣ جميع الموظّفين عن المطالبة بالتضحية للآلهة. ثمّ رفع الصليب عالياً معلناً حربه ضدّ ليكينيوس والوثنيّة. وردّ ليكينيوس بدوره مسترضياً الآلهة سائراً إلى الحرب.

بانتصار قسطنطين على ليكينيوس في صيف ٣٢٤، إستتبّ الأمر لحامل لواء المسيحيّة الذي أصبح الأمبراطور الأوحد.

يختلف المؤرّخون في أمر مسيحيّة قسطنطين. فبينما يعتبر البعض أنّه كان مسيحيّاً مؤمنا وأنّ دفاعه عن المسيحيّة ومعتنقيها كان نتيجة هذا التديّن، يقول آخرون بأنّ قسطنطين إنّما اتّبع هذه السياسة طمعاً بتأييد المسيحيّة الظافرة له. على أيّة حال فإنّ قسطنطين كان ابن الأمبراطورة هيلانة التي اشتهرت بدفاعها عن المسيحيّين وبحماسها للمسيحيّة. ومن الثابت أيضاً أنّ قسطنطين قد جعل شارة الصليب شعاراً لعلمه الأمبراطوري. وتُروى حكاية عن ظروف اعتناق قسطنطين للمسيحيّة مفادها أنّه شاهد في السماء أثناء زحفه على رومة سنة ٣١٢ صليباً متألّقاً عليه كتابة يونانيّة تقول: «بهذا ستغلب[1]». والثابت هو أنّ المسيحيّة قد أصبحت في عهد قسطنطين الديانة الرسميّة للأمبراطوريّة. ويُروى أنّ هيلانة والدة قسطنطين المسيحيّة التقيّة قد قامت بزيارة إلى اورشليم سنة ٣٢٦ حيث قيل إنّها وجدت الصليب الحقيقيّ في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة، إذ في ذلك المكان شيّد قسطنطين الكنيسة الأولى للقيامة. كما أنّه أنشأ على نفقة الدولة كنائس قسطنطينيّة ونيقوميذية وإنطاكية وبيت لحم والخليل[2]. واللافت أنّ قسطنطين الذي أصرّ على إعادة الأوقاف المصادرة إلى المسيحيّين وعلى إعتاق الموقوفين منهم والتعويض على من صودرت أملاكهم وعلى ورثة من استشهدوا، لام في الوقت نفسه أولئك الذين اضطهدوا المسيحيّين، وأبان في خطبه السياسيّة نقائص الوثنيّة، وذمّ العرافين الوثنيّين، ونادى بسيّد الكون، وأخذ على عاتقه أمر الدفاع عن المسيحيّة. على أنّه بإعلانه المساواة في الدين منع على المسيحيّين الانتقام من الوثنيّين.

---

١ - راجع: حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٨٧

٢ - Usébius, Bk. III, 25 - 53

عادت الكنائس لتنتشر من جديد في كافّة أنحاء الشرق ومن بينها كنيسة صور التي أعاد المطران پولينوس بناءها وجعلها على مستوى أكبر ممّا كانت عليه، حتّى أضحت أكبر وأجمل كنيسة في جميع أنحاء فينيقية، وعندما دشّنت ألقى مؤرّخ الكنيسة الكبير: يوسيپيوس مطران قيصريّة، خطبة قدّم لها بقوله: إنّه عاجز وليس أهلاً لهذا الإكرام. وفي مدينة صور عُقد مجمع كنسيّ سنة ٣٣٥ حكم بالهرطقة على مطران الإسكندريّة أثناسيوس[١].

وقُدِّر «لفيلوغونوس أسقف إنطاكية الثاني والعشرين بعد بطرس أنْ يرى كنيسته البالية القديمة المتهدّمة تعود إلى سابق رونقها ومجدها. وتوفّي هذا الأسقف سنة ٣٢٤ فنعم خلفه أفستاثيوس بسخاء قسطنطين وبالشروع في بناء الكاتدرائيّة الكبرى قرب القصر في سنة ٣٢٧. ولم يتمّ بناؤها قبل سنة ٣٤١ وذلك في عهد فلاكيلوس السابع والعشرين بعد بطرس. وجاء في مصنّف أفسابيوس عن حياة قسطنطين وأعماله أنّ الفضل في اكتشاف المكان الذي صُلب فيه السيّد المخلّص والمكان الذي دُفن فيه جسده الطاهر يعود إلى مكاريوس أسقف أورشليم آنئذ[٢]».

تتّضح مسيحيّة قسطنطين بشكل لا يقبل الشكّ من خلال تشريعاته المستمدّة من التعاليم المسيحيّة، وهي التي شملت عقوبات قاسية تطبّق على كلّ من يرتكب جرم الاغتصاب، بمن فيهم الإمرأة نفسها إذا ثبتت موافقتها على ذلك! وحرّم اعتداء المربّي على عفاف تلميذته، ومضاجعة السيّدة رقيقها، والعهر بخادمات الفنادق والخانات، وأوجب ملاحقة التسرّر، وصعّب الطلاق. وعُني قسطنطين في الوقت نفسه بحماية الضعفاء والمساكين والأبرياء، فارضاً العقوبات الشديدة على الوشايات والطعون الكاذبة، واضعا حدّا لقساوة السجّانين، مانعاً

---

١ - حتي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٥

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج١، ص ١٨٧–١٨٨

الأسياد عن الإساءة إلى أرقائهم، والآباء عن الغلاظة في معاملة أبنائهم، وشجّع الأمبراطور على الاعتناء بالآرامل واليتامى[١].

وكان قسطنطين قد منح الأساقفة شيئاً من السلطة القضائيّة، ومع الأيّام راح يزيدهم سلطة واحتراماً إلى أن منحهم سلطة إعتاق الرقيق بمجرّد إعلان ذلك في الكنيسة بحضور الكهنة، ثمّ اعتبرهم قضاة فأجاز للمدّعي أو المدّعى عليه أن يترافع في دعوى مماثلة في محكمة مدنيّة أمام الأسقف. واعتبر حكم الأسقف مبرماً غير قابل الاستئناف. ومن أقواله لرجال الكنيسة: «أنتم أساقفة على من هم داخل الكنيسة، وأنا أسقف بمشيئة الله على من هم في الخارج[٢]». فلقد كان قسطنطين الأمبراطور حبر الدولة الأعظم ورأسها في آن. وسجّل بتدخله في شؤون الكنيسة، من خلال هذا الموقع، سابقة خطرة سوف تؤدّي فيما بعد إلى مشاكل جدّيّة بين الكنيسة والدولة، سوف ينجم عنها ذلك الانشقاق العظيم الذي شطر الكنيسة الجامعة في القرن الحادي عشر إلى كنيستين.

---

١ ـ المرجع السابق، ص ١٨٨-١٨٩

٢ ـ Eusébius, BK.IV,col.24

الفصل الرابع

إنقسامات بعد النصر

- إنطاكية وسائر المشرق
- مسألة عيد الفصح
- مسألة العائدين التائبين
- مسألة آريوس
- مسألة الدستور المؤرّخ
- مسألة أپولينارس وسائر البدع
- مسألة نسطوريوس
- مسألة أوطيخة

كان انتصار قسطنطين على منافسيه إيذاناً بحدثين أساسيَّين سوف يطبعان المرحلة المقبلة من التاريخ في الشرق والغرب. الحدث الأوّل هو انتقال العاصمة الرومانيّة إلى الشرق: القسطنطينيّة. والحدث الثاني هو تحوّل إنطاكية الى عاصمة أساسيّة للمسيحيّين.

أسّس قسطنطين عاصمته في موقع بيزنطية التي كان قد أسّسها الإغريق الأقدمون في القرن السابع قبل الميلاد، على ضفّتي البوسفور حيث تلتقي أوروبّة بآسية. وفي ١١ أيّار (مايو) سنة ٣٣٠ دشّن قسطنطين عاصمته الجديدة. «وقد منحها موقعها الإستراتيجيّ الجغرافيّ فوائد عسكريّة واقتصاديّة، واتّحدت كلّ هذه العوامل لتجعل من المدينة الجديدة المركز الطبيعيّ الذي يستطيع العالم الشرقيّ أن يتجمّع حوله بسهولة. وسرعان ما فاقت «رومة الجديدة» على البوسفور رومة القديمة على نهر التيبر. ويدلّ هذا التحوّل ذاته على الاعتراف بالأهمّيّة الفائقة للقسم الشرقيّ من الأمبراطوريّة... واتّجهت كلّ الأمبراطوريّة في ذلك الاتّجاه. وكانت تقع في الشرق الدولة المتحضّرة الرئيسيّة: فارس، التي كانت رومة في نزاع مستمرّ معها. وكان مركز الثقل في شؤون العالم يتحول الى الشرق من جديد[1] ». وسوف تستمرّ عاصمة الرومان تلك التي حملت اسم قسطنطين طيلة أحد عشر قرناً تنتهي مع فتح الأتراك العثمانيّين لها في العام ١٤٥٣ ليجعلوها مستقراً للسلاطين حتّى نهاية عهدهم.

أمّا إنطاكية التي كانت قد اشتهرت قبل ذلك التاريخ هي وضاحيتها دفنة بحياة الترف والخلاعة، حتّى إنّه لم يُعرف مكان في سورية الرومانيّة ظهر فيه التمتّع بالحياة كهدف رئيسيّ للسكان يأتي بعد هدف الواجب مثلما كان عليه الوضع في إنطاكية من شمال سورية، فقد غدت في نهاية القرن الأوّل ثالث مدينة

---

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٨٦ - ٣٨٧

في الأمبـراطوريّة بعد رومـة والإسكندريّة[1]. وفي بداية القرن الرابع كانت بيـوت إنطاكية مجهّزة بشبكات المياه وشوارعها مضاءة بالمصابيح، ممّا جعل مؤرخي تلك الحقبة يصفونها بملكة العرائس[2].

إنطاكية هذه، كانت من النّاحية الإداريّة تشكّل قاعدة لإقليم ينتسب إليها ويتضمّن خمس عشرة مقاطعة هي: فلسطين الأولى، فينيقية البحريّة، فلسطين الداخليّة Salutaire، فينيقية اللبنانيّة، سورية الثانية أو الداخليّة. سورية الثالثة أو الفراتيّة، منطقة الرهى Osrohène، ما بين النهرين، قيليقية الأولى Isaurie، قيليقية الثانية Euphratèsie، شبه الجزيرة العربيّة[3].

بانتقال عاصمة الأمبراطوريّة الى القسطنطينيّة اصبحت إنطاكية العاصمة الكبرى للمسيحيّة في العالم. وإنّ كونها قاعدة لذلك الإقليم الشرقيّ الكبير الذي يضمّ ما ورد من مقاطعات، هو الذي سيجعل بطاركتها فيما بعد يلقّبون ببطريرك إنطاكية «كمدينة أو منطقة» وسائر المشرق. ومن هنا نرى اليوم أنّ أكثريّة الطوائف المسيحيّة في الشرق سواء كانت تابعة للكنيسة الغربيّة أم الشرقيّة، يحمل بطاركتها لقب إنطاكية وسائر المشرق. ذلك أنّ هؤلاء جميعاً هم بطاركة على كنائس ذوات جذور إنطاكيّة. غير أنّ خلف هذا التعدّد في الكنائس والانتماءات سبباً واضحاً ألا وهو الانقسامات.

كانت تلك الانقسامات قد بدأت في رومة يوم كانت كنيستها متقدّمة على سواها من كنائس الإمبراطوريّة، فلقد كان أسقفها هو أسقف عاصمة الدولة، ومثّل الكنيسة الجامعة أمام السلطة المدنيّة العليا، يدافع عن حقوق هذه الكنيسة

١ - Haddad Georges, Aspects of social life in Antioch in the Roman-Hellenistic period. (Chigago, 1949) PP. 70-73

٢ - راجع: Amnianus Marcellinus, Rerum Gestarum, BK. XIV, CH.1, Col.9

٣ - Claude Sélis, les syriens orthodoxes et catholiques, (édition Brepols, 1948) P.210; وراجع: المطران بطرس ديب في: Histoire de l'église maronite (Beyrouth 1962) PP. XII, XIII.

الجامعة ويتحمّل مسؤوليّة أقوال المسيحيّين وأفعالهم في جميع ارجاء الأمبراطوريّة الرومـانيّة[1] . أمّا وقد غدت إنطاكية متقدّمة على رومة بعد قسطنطين، فقد انتقل مركز الصراع إليها .

في رومة بدأ الخلاف على كيفيّة ممارسة عيد الفصح إذ حاول ڤيكتوريوس (١٨٩ ـ ١٩٩) أن يفرض رأي رومة في كيفيّة هذه الممارسة على أساقفة آسية الصغرى. وقام بعده إسطفانوس (٢٥٤ ـ ٢٥٧) ليوجب الاعتراف بعموديّة التائبين العائدين الى حضن الكنيسة والاكتفاء بفرض الندامة والتوبة مهدّداً أساقفة إفريقية وآسية الصغرى وإنطاكية بالقطع[2] إن هم خالفوا العرف والتقليد الرومانيّين. فقد كان موضوع الخلاف في الكنيسة قبل إنطاكية منحصراً في هاتين المسألتين: مسألة عيد الفصح ومسألة التائبين العائدين .

مسـألة عـيـد الفـصح

كان المسيحيّون الأوّلون يؤمّون الكنيسة صباح الأحد في مثل الساعة التي قام فيها السيّد من الموت، وذلك إحياءً لمناسبة القيامة المجيدة. وكانوا في الرابع عشر من نيسان العبرانيّ يعيّدون تذكار الآلام والقيامة ثلاثة أيّام متتالية تنتهي في السادس عشر من ذلك الشهر. إلاّ أنّهم قبل نهاية القرن الأوّل اختلفوا في تعيين يوم ذكرى الآلام والصلب وفي تعيين اليوم الذي يحيون فيه ذكر القيامة. ذلك أنّ كنائس آسية الصغرى وقيليقية وسورية الشماليّة وما بين النهرين بقيت على التقليد القديم مكتفية بإحياء مناسبة الآلام والقيامة في الايّام الثلاثة الواقعة بين الرابع عشر والسادس عشر من نيسان العبريّ، بينما كنائس بلاد اليونان وإيطالية وإفريقية ومصر وفلسطين والبونط خصّت يوم الجمعة وحده بالآلام ويوم

١ ـ Irenaeus, Adversus Haereses, I, P. 27, III, P. 3

٢ ـ القطع: بالمفهوم الكنسي في ذلك الوقت كان يعني الفصل عن الكنيسة

الأحد بالقيامة، «وكانت، في السنين التي لا يوافق فيها الرابع عشر من نيسان العبريّ يوم جمعة، تذكر الآلام في أوّل يوم جمعة بعده، ومثله يوم الأحد للقيامة[1] ».

هذا لناحية التاريخ، أمّا لناحية مفهوم المناسبة، فقد اختلفت تلك الكنائس حول اعتبار يوم الآلام يوم فرح أو يوم حزن. إذ بينما اعتبرت كنائس آسية الصغرى يوم الآلام يوم فرح بحجّة أنّه يوم تحرير من العبوديّة، جاعلة منه نهاية للحزن والصوم، كان سائر الكنائس يعتبر يوم الصلب يوم حزن فلا يسمح بحلّ الصوم قبل تذكار القيامة. ويبدو أنّ الاعتبار الأوّل كان مستمدّاً من يوحنّا الحبيب وفيليبوس، بينما الثاني من تعاليم بطرس وبولس[2].

هذا الخلاف، وإن كان قد أوجد فوضى غير مستحبّة في مسألة عيد الفصح، فإنَّه لم يؤدّ الى انقسام خطير في الكنيسة، إذ أصبح المؤمنون، بحسب الانتماء الإقليميّ يعيّدون كلّ على طريقة إقليمه، حتّى جاء ڤيكتوريوس محاولاً فرض رأي رومة في كيفيّة ممارسة عيد الفصح. قبل ذلك التاريخ كان أساقفة الشرق قد عقدوا مجامع محلية في قيصريّة فلسطين وبين النهرين وغلاطية والبونط وكورنتس، بحثوا فيها مسألة الفصح وأقرّوا رأياً واحداً يقضي بمراعاة عادة ذكر القيامة في يوم الأحد وأن لا يُحل، الصوم إلاّ فيه[3].

بيدَ أنّ هذه المسألة قد تفاقمت في نهاية القرن الثاني إذ في العام ١٩٨ تداعى أساقفة قيصريّة وأوروشليم وصور وعكّة وعقدوا مجمعاً في قيصريّة برئاسة أسقفها ثيوفيلوس، وأقرّوا «أنّ يوم الربّ هو أوّل أيّام الخلق والسبت آخرها. ثمّ بيّنوا أنّ الربيع هو أوّل فصول السنة. وأنّ العالم وجد في الخامس والعشرين من

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٨١

٢ - Usebe Hist. Ecc. V, PP. 23 - 25

٣ - Batiffol, l'église naissante, P. 271; Hefele - Leclerq, histoire des concils, I, P. 150

آذار! حينما كانت الشمس في وسط المشرق والقمر بدراً. ثمّ شرعوا بتعيين عيد الفصح، فأجمعوا على أنْ يقع في يوم الربّ (الأحد) لأنّ الظلام انقشع في هذا اليوم، وأشرق النور، ولأنّ الشعب تحرّر فيه من أرض مصر كما من ظلام الخطيئة، ولأنّ الشعب، مُنح فيه طعاماً سماويّاً، ولأنّ موسى أوجب تكريمه، ولأنّ المرتّل قال عنه أنّه اليوم الذي نبتهج ونفرح فيه، ولأنّه اليوم الذي قام فيه الربّ[١] ».

إثر هذا المجمع الإقليميّ راسل الأساقفة المجتمعون الكنائس الأخرى داعينها الى إقرار رأي المجمع، وذكروا في رسائلهم تلك أنّ كنيسة الإسكندريّة قد وافقتهم الرأي[٢]. غير أنّ اساقفة آسية الصغرى أصرّوا على المحافظة على التقليد القديم، وواجهوا مجمع قيصريّة فلسطين بمجمع عقدوه في أفسس اشترك فيه خمسون أسقفاً. وبعد التداول « كتب أسقف أفسس پوليكراتس بلسان مجمعه الى رومة وسواها يؤكّد أنّهم لا يُزيدون على التسلّم الرسوليّ ولا ينقصون منه وأنّه رقد في بلادهم يوحنّا الذي اتّكأ على صدر الربّ، وفيليپوس أحد الإثني عشر، وپوليكاربوس الشهيد، وأنّ هؤلاء جميعهم حافظوا على اليوم الرابع عشر للفصح وفقاً للإنجيل. وممّا قاله پوليكراتس موجّهاً كلامه إلى كنيسة رومة: ـ أنا أصغركم جميعاً. وما دام لي خمس وستون سنة في الربّ، وقد اجتمعت بالأخوة الذين من المسكونة وقرأت كلّ كتاب مقدّس، لا أجزع ولا أخاف لأنّ الذين هم أعظم منّي قالوا أنّه يجب الخضوع لله أكثر من البشر. وكنت أستطيع أن اذكر الأساقفة الحاضرين معي الذين رمتم أنتم أن أجمعهم، وقد جمعتهم ووافقوا على الرسالة لعلمهم أنّي لم أحمل هذه الشيبة عبثاً بل سلكت بالربّ دائماً[٣] ».

أحدثت هذه الرسالة ضجّة في رومة، ويبدو أنّ ڤيكتوريوس أسقف رومة كان يتّجه إلى قطع كنائس آسية واعتبارها خارجة عن الدين القويم، إلاّ أنّ القدّيس

١ ـ المطران ساويروس يعقوب، الكنيسة السريانية الانطاكية، ج ١، ص ١٢١ ـ ١٢٢.
٢ ـ Usebe, Hist. Ecc., V, Col. 26
٣ ـ المرجع السابق V Col. 24 ؛ وراجع: رستم، ج ١، ص ٨٥

إيريناوس الذي كان أسقفاً لليون وعدداً من الأساقفة قد اعترضوا على هذا الموقف وآثروا عدم انقسام الكنيسة مقنعين أسقف رومة بوجهة نظرهم، ممّا وفّر على الكنيسة، حتّى ذلك التاريخ، مرارة الانشقاق، ولكنّ مشكلة الفصح بقيت معلّقة.

مسألة العائدين التائبين

أدّت شدّة الاضطهادات التي حصلت في نهاية القرن الثالث، قبل قسطنطين، الى أن ارتدّ عن المسيحيّة ظاهريّاً مَن لم يتحمّلوا العذاب. وعندما استتبّ الأمن للكنيسة أظهر بعض هؤلاء توبتهم ورغبتهم في العودة الى المسيحيّة، فكان هذا سبباً آخر للخلاف داخل الكنيسة.

رأى بعض رؤساء الكنيسة وجوب التشدّد مع هؤلاء العائدين، خاصّة رجال الإكليروس منهم، وبشكل أخصّ أصحاب المراتب العليا، بينما رأى فريق آخر وجوب التساهل.

ومن الغلاة من أصحاب الرأي الأوّل من اعتبر أنّ الذين تحمّلوا العذاب باسم يسوع دون أنّ يرتدّوا عن إيمانهم أو أن يتظاهروا بالارتداد هم الذين يجب أن يبتّوا أمر عودة الذين ضعفوا.

هذه المسألة كان لها سابقة في منتصف القرن الثالث، ممّا أدّى الى انعقاد مجمع محلّيّ في قرطاجة اتّخذ قراراً بفصل بعض المتشدّدين المعاندين المستمرّين في تقبيح العائدين. وقد حصلت ضجّة في الكنيسة إثر هذا المجمع الذي عُقد مجمع محلّي آخر بعده بسنة في رومة، أيّد موقف مجمع قرطاجة. كان يومها كورنيليوس رئيساً لأساقفة رومة، فتجمّع معارضوه وساموا أسقفاً منهم على رومة، هو نوفاتيانوس، فأصبح بذلك على رومة أسقفان[1].

---

١ ـ Usebe, Hist. Ecc., VI, 43

انتقل الانقسام من رومة الى الشرق بواسطة الرسائل التي حرّرها كلٌّ من الطرفين الى كنائسه. فبينما رأى أسقف الإسكندريّة رأي كورنيليوس، آثر أسقف إنطاكية رأي الفريق الآخر، كلّ ذلك في مسألة العائدين التائبين. ولم تُجدِ محاولات ديونيسيوس[١] نفعاً في دعوة الطرفين الى الاعتدال اتّقاءً لانقسام الكنيسة[٢]، فظهرت بوادر الانشقاق في كنيسة إنطاكية[٣]، ممّا جعل أسقف إنطاكية فابيوس يدعو الى مجمع محلّيّ للبحث في هذه المسألة. فكان المجمع الإنطاكيّ الأوّل الذي عُقد سنة ٢٥٢ بعد أن توفّي الداعي إليه. وقد أيّد هذا المجمع أسقف رومة كورنيليوس بعد أن انتُخب: ديميتريانوس (٢٥٢ ـ ٢٦٠ [٤]) خلفاً لفابيوس.

لم يكن الخلاف الذي عصف بالكنيسة مقتصراً على مسألة التائبين العائدين، بل كان يتناول أيضاً قضيّة مشابهة هي مسألة معموديَّة الهراطقة والجاحدين، وكان الفريق المتشدّد بالنسبة للعائدين متشدّداً في الوقت نفسه بالنسبة لمعموديّة الهراطقة والجاحدين، فيما أبدى الفريق الآخر ليناً تجاه هؤلاء.

هذه المسألة كانت قد بدأت تشكّل موضوع خلاف داخل الكنيسة منذ العام ٢١٧[٥]. وبعد هدوئها لبعض الوقت عادت لتتفاقم مع بروز الخلاف حول مسألة العائدين، فدخلت الكنيسة الجامعة في أزمة خطيرة.

كان المتشدّدون يطالبون بإعادة معموديّة المرتدّين عن الهرطقة والجحد، بينما كان المتساهلون ينهون عن وجوب إعادة معموديّة هؤلاء. وقد انعقد لكلٍّ من الفريقين مجامع محلّيَّة في الغرب والشرق ظهر فيها الخلاف على أشدّه. وتبودلت رسائل بين الكنائس المختلفة، لا يزال بعضها محفوظاً، يدلُّ مضمونها

---

١ ـ ديونيسيوس Denys: هو الذي اصبح فيما بعد بابا رومة (٢٥٩ ـ ٢٦٨) وقد طوبته الكنيسة قديساً.
٢ ـ Usebe, Hist. Ecc., VI, 44
٣ ـ Bardy G., Paul de Samosate, P. 214
٤ ـ Usebe, Hist. Ecc., VII, 5
٥ ـ Lebreton J., St Cyprien, Fliche et Martin, II, PP. 199 - 200

على مدى العمق في اختلاف وجهتي النظر، وعلى مدى عمق الخلافات. وكان على رأس القائلين بالتساهل كبريانوس أسقف كرسيّ قرطاجة الذي دعا الى مجمع حضره سبعة وثمانون أسقفاً وعدد كبير من القساوسة والشمامسة صدر عنه: «إنّ اختلاف الآراء لا يضرّ ولا ينافي الاتّحاد في الإيمان ولا يفكّ الربط بين الكنائس[1] ».

وكان على رأس الفريق الآخر البابا إسطفانوس (٢٥٤ ـ ٢٥٧) الذي كتب الى كنائس الشرق رسائل توضح وجهة نظره بشأن العماد المعطى على يد الهراطقة، فأرسل إنذارات شديدة اللهجة إلى أساقفة إفريقية وإلى كنائس الشرق: قيليقية، وقبدوقية، وغلاطية، موجباً عبرها المحافظة على تقاليد رومة الموروثة مهدّداً بقطع العلاقات.

كان يومها على قيصريّة قبدوقية التابعة لكنيسة إنطاكية أسقف اشتهر بعلمه وتمسّكه بسلامة العقيدة هو القديس الإنطاكيّ فرميليانوس. كان فرميليانوس يكره رومة، وقد ورث هذا الكره عن أستاذه أُوريجانوس الإسكندريّ. وكان عاتباً على البابا إسطفانوس نفسه « لقلّة اهتمامه ببعض الأساقفة الشرقيّين الذين أُوفِدوا إليه[2] ». لكلّ هذه الأسباب وقفت انطاكية، من خلال موقف فرميليانوس، موقفاً مناهضاً لرومة في هذه المسألة. وعندما هدّد اسطفانوس رومة بقطع العلاقات أجابه فرميليانوس قبدوقية: «إنّك قد بذرت خصومات لا تُعدّ ولا تحصى في كلّ كنائس المسكونة، ويا ليتك تعلم تحت أيّة خطيئة وضعت نفسك إذ انفصلت عن هؤلاء الناس جميعاً. وإنّك بعملك هذا لا تفصل عن شركة الاتّحاد الكنائسيّ سوى نفسك فتصبح أنت العاصي[3] ».

---

١ ـ Cyprien, Epist. LXXII

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١١٦ عن: Lebreton J., St Cypien, Fliche et Martin, II, P. 203

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١١٧.

من شأن هذا الكلام أن يدلّ بوضوح على مدى شراسة المعركة التي قادها رؤساء الكنيسة قبل نهاية القرن الثالث الميلاديّ، والتي كانت ايذاناً بتشتّت كنيسة المسيح وتشرذمها. وكان المؤمنون، دونما أيّ شكّ، يتأثّرون بمواقف رؤسائهم الروحيّين وينقادون كالقطعان لرعيانها. وهذا ما سيؤدّي فيما بعد الى تدخل الأباطرة في شؤون الكنيسة: مملكة ذلك الذي مملكته ليست من هذا العالم، فأصبحت كنيسته بسبب رؤسائها تحت وصاية أولئك الذين ممالكهم من هذا العالم.

مات البابا قبل أن ينفّذ شيئاً من تهديداته وخلفه البابا سيكستوس ذو الطبع المسالم فتجاوب مع دعوات التقارب وإعادة اللحمة بين الكنائس التي كان على رأسها ديونيسيوس أسقف الإسكندريّة، فترطبت الأجواء وتوقّف التراشق، إلا أنّ الخلاف في الرأي بقي قائماً رغم تزايد عدد المسيحيّين بشكل كبير، ممّا أعطى الرؤساء الروحيّين مكانة في الدولة[1]. ويمكن الجزم بأنّ هذا الواقع قد جعل أصحاب الطموحات في السياسة والثروة والسلطة يتهافتون على الكهنوت بدرجاته العالية ليؤمّنوا لأنفسهم المناصب والثروات. يؤكّد ذلك قول المؤرّخ الكنسيّ أفسابيوس: «... إنّ هؤلاء الذين يتظاهرون أنّهم رعاتنا قد استخفّوا بقواعد الدين وتلهّبوا حسداً ولم يتقدّموا في شيء سوى المجادلة والمنازعة والمناظرة والمشاغبة والمباغضة[2]». حتّى إنّ كبريانوس القرطاجيّ قد اتّهم أساقفته «باحتقار السماويات وإهمالها ليتفرّغوا للأمور البشرية، فتركوا الوعظ والإرشاد ليجرُوا وراء المال وجني الربا بالطرق المعوجّة[3]».

في هذه الأجواء أصبح بولس السميساطيّ أسقف إنطاكية (٢٦٠ ـ ٢٦٨) موظّفاً مدنيّاً عالياً ذا مهام ماليّة ومشرفاً على الجباية في مملكة زينب التدمريّة التي منحته لقب ذوقيناريوس. وقد تمتّع هذا الأسقف بصلاحيّات ملكيّة هائلة، حتى إنّ

١ ـ Bardy G., Paul de Samosate, P. 260 - 261

٢ ـ Usebe, Hist. Ecc., VIII, 1

٣ ـ Cyprianus, De Lapsis, 6

الأساقفة الذين نظروا في أمره فيما بعد قالوا إنّه لم يكن بمقدور أحد أن يجرؤ فيشكو جوره[1]. «وتاه بولس بجوره وتكبَّر. وسار في الشوارع بأبّهة الحكّام وفخفختهم. وصنع لنفسه عرشاً عالياً في الكنيسة، وأذن لمريديه بتقريظه فيها. ومنع تسبيح السيد المخلّص في الكنيسة مدّعياً أنّ تلك التسابيح إنّما أحدثها رجال متأخِّرون، واستعاض عنها بمزامير داوود وبتسابيح خصوصيّة أُعدّت لتمجيده وأنشدتها النساء له في الكنيسة نفسها. وأطلق بولس لسانه في انتقاد الآباء الأوّلين[2]».

لقد جعلت تصرّفات بولس بعض المؤرِّخين يفترضون أنّه كان قد عرف أشياء عن اليهود ودينهم وعن التوراة قبل وصوله الى الكرسيّ الإنطاكيّ، وأنّ زينب التي اشتهرت بعطفها على اليهود اختارت بولس من هذا المنطلق[3].

شقّ بولس كنيسة إنطاكية نفسها. ذلك أنّ أساقفتها رأوا في بولس، الذي نشأ فقيراً فاغتنى بطرق غير شرعيّة وساكن النساء واستصحب بعضهن على الرغم من حداثتهن ومظهرهن المغري، ليس أهلاً لقيادة الكنيسة، بينما انقاد له بعض أساقفة الريف وكهنته وشمامسته. ويرى المدقِّقون أنّ كنيسة إنطاكية قد انقسمت في ذلك العهد الى معسكرَين: «أبناء الريف وأمهات القرى من جهة، وهؤلاء بأكثريّتهم شرقيّون سريان وعرب، ومن جهة أخرى أبناء المدن الكبيرة وهم يونانيّون ورومانيّون ومتهلّنون... وكان من الطبيعي أن يرى الشرقيّون العرب في زينب العربيّة زعيمة وطنيّة تحاول التحرّر من حكم رومة وكلّ ما يمتّ إلى الغرب بصلة، فساروا مع بولس ومشى معهم أولئك اليهود الذين عطفت عليهم زينب[4]».

---

١ - Usebe, Hist. Ecc., VII., 30

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٢٠ - ١٢١؛ عن Usebe, Hist. Ecc., VII, 30

٣ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٢٠؛ عن Bardy G., PP. 250 - 258; Aubé B., l'église et l'état, 1, P. 453;

٤ - Harnack A., Lehrbuch Der dogmengeschi chte, I, P. 722; Harnack, Monarchianismus, XIII, P. 320

بلغت الخطورة التي شهدتها كنيسة إنطاكية في عهد بولس حدّ الضلالة، إذ طلع هذا الأسقف الزمنيّ ببدعة تقول بأنّ المسيح مخلوق صالح حمل في أحشائه روح الله[١]، فنشأت مقاومة أسقفيّة روحيّة إنطاكيّة عنيدة لبولس الضالّ، ممّا أدّى إلى اتّساع الانشقاق وإلى حصول اضطرابات كبرى داخل الكنيسة الإنطاكيّة وإلى تدخّل رومة بحسب بعض الباحثين، ممّا جعل أسقف طرطوس إلينوس يدعو الأساقفة الإنطاكيّين الى اجتماع للنظر في قضيّة بولس. كان ذلك المجمع الإنطاكيّ الثاني الذي انعقد سنة ٢٦٤ وحضره عدد كبير من الأساقفة والكهنة والشمامسة من مختلف الاتّجاهات. ويبدو أنّ ما نوقش في المجمع الإنطاكيّ الثاني هو مدى صوابية إيمان بولس والتزامه بالخطّ المسيحيّ القويم، إذ كان ظهر أنّ بولس قد شارك المونارخيّين رأيهم في أنّ الله أقنوم واحد، كما شارك الأراطمة قولهم بأنّ الله قد تبنّى المسيح[٢].

تمكّن أتباع بولس من ستر هرطقتهم، وجاهد الأساقفة الآخرون لكشف حقيقة ضلال أولئك ففشلوا، كما أنّ زينب كانت داعمة لبولس بكلّ ما لها من مقدرة. كلّ هذه العوامل، إضافة الى الموقف الذي اتّخذه بولس في هذا المجمع، وهو موقف سياسيّ مناور، إعترف من خلاله بأنّه «قال قولاً جديداً» وقطع العهود على نفسه بالعودة الى الاستقامة، أدّت إلى انتهاء المجمع دون أن يتّخذ قراراً بشأن بولس.

ما أن انتهى المجمع الإنطاكيّ الثاني الى ما انتهى اليه حتّى استأنف بولس مسيرته الخاصّة. ولم تنفع رسائل الأحبار التي بعثوها إليه واعظين مرشدين، فكانت دعوة أسقف طرطوس ثانية الى مجمع في إنطاكية عقد سنة ٢٦٢ وحضره حوالى الثمانين أسقفاً[٣].

١ - Augustinus, De Civit. Dei. XIX, P. 23

٢ - Bardy G., PP. 324 - 351; Riedmatten H., Actes du procés de Paul de Samosate, (1952) paradosis 6; Usebe, Hist. Ecc., VII, 28

٣ - راجع: Théodoret Haeret, Fabul, Compend. II, 8; Bardy G., PP. 296 - 297; Usebe, Hist. Ecc., VII, 29; Athanase De Synode., P. 43; Hilaire, De Synode., P. 86.

هذه المرّة استعان الأساقفة بـ «ملكيون»، وهو كاهن كان يدرّس المنطق في إحدى مدارس إنطاكية الهلّينية. كذلك استقدموا كتّاباً ماهرين لتدوين المناقشة.

نتيجة ذلك تمكّن المجمع هذه المرّة من إدانة بولس بالهرطقة وبحبّ المال والجاه والفخفخة، وبإقدامه على مساكنة النساء والسماح لبعضهنّ بأن يرتّلن في الكنيسة، وخلع المجمع بولس عن رئاسة كرسي إنطاكية وانتخب دومنوس مكانه. وصدر عن ذلك المجمع رسائل محبّة إلى رومة والإسكندريّة وسائر أساقفة الكنائس والكهنة والشمامسة طالبين عبرها اعتراف هؤلاء برئاسة دومنوس على إنطاكية[1]. ورغم اعتراف رومة والإسكندريّة برئاسة دومنوس، بقي بولس ممتنعاً عن طاعة المجمع، وظلّ يعتبر نفسه رئيساً على كنيسة إنطاكية[2]، متمتّعاً، بفضل دعم زينب، بالسلطتَين الروحيّة والزمنيّة في إنطاكية، إلى أن زال عهد زينب على يد أورليانوس، إذ فرّت أمام جيشه الظافر من إنطاكية إلى تدمر ومنها إلى الفرات حيث أدركها الرومان وأسروها. كان ذلك في أوائل سنة ٢٧١، وكان دومنوس قد توفّي وخلفه تيمايوس في رئاسة إنطاكية فقصد الأمبراطور الظافر عارضاً مسألة الكنيسة طالباً إخراج بولس من كرسي الأسقفيّة وكفّ يده. ولقد كان من الطبيعيّ أن يتجاوب أورليانوس الرومانيّ الغربيّ مع طلب أساقفة إنطاكية المتعاونين الذين قاسوا الأمرّين في عهد زينب، فأمر بأن «تعطى كرسي الأسقفيّة الى أولئك الذين كانوا على صلة بالمراسلة بأساقفة العقيدة المسيحيّة في إيطالية ومدينة رومة[3]». وغاب بولس السميساطيّ عن إنطاكية وانقطعت أخباره، كما انزوى أتباعه منتظمين في شبه كنيسة مستقلّة في إنطاكيةحتّى مجمع نيقية برئاسة أسقف كان يدعى لوقيانوس، وهو غير لوقيانوس المعلم الشهير.

كان لوقيانوس هذا ابن بلدة بولس: سميساط. وقد استقدمه بولس إلى

---

١ - Usebe, Hist. Ecc., VII, 30; 5, 23; Bardy G., PP. 313 - 315

٢ - Usebe, Hist. Ecc., VII, 30; Pierre Ibn Rahib, Chronicon oriental, P. 117.

٣ - Usebe, Hist. Ecc., VII, 30

إنطاكية بعد أن أصبح رئيس كنيستها ورسمه كاهناً ولقّنه تعاليمه[1]. وكان مجمع إنطاكية الثالث قد قطع لوقيانوس هو الآخر الذي سيصبح فيما بعد من آباء الدعوة الآريوسيّة. وقد مات لوقيانوس شهيداً سنة ٣١٢ في نيقوميذيا.

هذه الخلافات التي عصفت بالكنيسة في نهاية القرن الثالث، همدت في بداية القرن الرابع، عندما اشتدّ الاضطهاد للمسيحيّة، فلجأ الأساقفة إلى التفاوض مجتمعين لتوحيد الرأي ومواجهة الأخطار الداهمة. وقد عُقدت لهذه الغاية سينودوسات غربيّة برئاسة البابا، كما عُقدت مجامع إفريقيّة برئاسة أسقف قرطاجة، ومجامع إنطاكية برئاسة أسقف إنطاكية[2]. وكانت موافقة رومة على قرار المجمع الإنطاكيّ الثالث القاضي بخلع بولس السميساطي مفيدة جدّاً على صعيد اللحمة بينها وبين إنطاكية. بيدَ أنّه ما أن توقّف الاضطهاد واستتبّ الأمن للكنيسة بعد قسطنطين، حتّى عادت مسألة قبول الجاحدين لتشكّل عنصر صراع، من جديد، داخل الكنيسة. وكان مسرح الصراع هذه المرّة داخل كنيسة الإسكندريّة حيث ستولد البدعة الآريوسيّة التي ستشقّ الكنيسة مرّة أخرى.

مسألة آريوس

كان على رأس كنيسة الاسكندريّة في بداية القرن الرابع أسقف يدعى بطرس، وقد وضع حوالى العام ٣٠٦ رسالة حدّد فيها كيفيّة قبول الجاحدين، وهو الموضوع الذي طالما شكّل خلافاً في الرأي بين قادة الكنيسة. وقد جاءت معارضة رأي بطرس هذه المرّة من مصر نفسها، وتحديداً من قبل أسقف أسيوط ملاتيوس الذي ردّ على بطرس بعنف وتسفيه. وعندما اشتدّت وطأة الاضطهاد لجأ بطرس الى التخفّي، فتحيّن ملاتيوس الفرصة ليثير مسألتي العائدين التائبين والجاحدين،

١ - Bardy G., P. 376

٢ - Zeiller J., Org. Ecc., II, PP. 398 - 400

وليتفرّد بترؤس الكنيسة المصريّة، إذ راح يرسم الكهنة ويعيّن الإكليروس ويتدخل آمراً ناهياً في أبرشيّة مصر، بينما كان عدد من أساقفتها معتقلاً يواجه الشهادة. وقد هبّ هؤلاء من معتقلهم لتعنيف ملاتيوس، وأقدم بطرس المتخفّي على إصدار الحرم بحقّه قبل استشهاد الأوّل بوقت قصير.

حاول خلفاء بطرس معالجة مسألة ملاتيوس دون جدوى، وبقي هذا الأخير مع أتباعه غير معترفين بسلطة أساقفة الإسكندريّة حتّى حلّ الشقاق في الكنيسة المصريّة وسط تراشق أساقفتها بالحرمان، ممّا سوف يؤدّي إلى إحداث ذلك الشرخ العظيم في الكنيسة الشرقيّة.

ففي منتصف القرن الرابع كان على الإسكندريّة أسقف يدعى ألكسندروس. وكان من كهنة تلك الأسقفيّة رجل يدعى آريوس ليبيّ المولد والمنشأ، وهو ممّن شايعوا ملاتيوس لبعض الوقت إلى أن ارتدّ فسيم شمّاساً. وعندما انتقد رئيسه في أمر الجاحدين قُطع، فعاد الى جناح ملاتيوس حيث سيم كاهناً. وبقي متنقّلاً بين جناح وآخر حتّى وثق به ألكسندروس، أسقف الإسكندريّة، وسلّمه بعض المهامّ، حتّى أصبح خادم كنيسة بافكاليس[1].

مهما كان موقف المرء من بدعة آريوس، فممّا لا شكّ فيه، بحسب المراجع التاريخيّة، أنّ آريوس كان عالماً زاهداً متقشّفاً. وقد تأثّر على ما يبدو بأفكار لوقيانوس المعلّم الإنطاكيّ الذي سبق وجاء الكلام عنه. وعلى الرغم من أنّ الآريوسيّة قد أضحت فيما بعد مذهباً واسع الانتشار، فإنّه لم يبقَ من تعاليم آريوس ما من شأنه أن يدلّ بشكل واضح وموثوق على دقّتها. وتقتصر المعلومات في الواقع على تلك المستقاة من ردود أهل الكنيسة على تعاليم آريوس، من هنا يمكن القول بأنّ محور تلك التعاليم هو التأكيد على وحدانيّة الآب وتخفيض منزلة الابن والروح القدس. وقد جاء في ملخّصات بعض الباحثين الأخصّائيّين أنّ: «الآب

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٩٢ عن: Bardy G. Origines de l'Arianisme, Fliche et Martin, III, PP. 69 - 71

وحده في نظر آريوس استحقّ لقب الإله. أمّا الابن فلم يكن سوى إله ثانويّ منخفض في الرتبة والمنزلة مخلوق من العدم بإرادة الآب، متميّز عن سائر المخلوقات في كونه صورة الله الآب في جوهره وإرادته وقدرته ومجده. والثالوث في نظر آريوس ثلاثة في الأقنوم، ولكنّهم ليسوا واحداً الاّ باتّفاق المشيئات[1] ».

كان أوّل من التفّ حول آريوس الذي يجيد الوعظ والإرشاد عذارى الإسكندريّة اللواتي اشتهرن بالعمل الصالح وبكونهنّ فخر كنيسة مصر في تلك الحقبة من التاريخ، إضافة الى عدد من المؤمنين، وعدد آخر كبير من رجال الإكليروس الذين: «آثروا الإصغاء إليه رغم اختلاف تعاليمه عن تعاليم الأسقف رئيس كنيسة الإسكندرية[2] ». إلا أنّه في الوقت نفسه برز معترضون من المؤمنين على تعاليم آريوس الجديدة، ممّا حدا أسقف الإسكندريّة على دعوة الطرفين لمناقشةٍ علنيّةٍ حول موضوع الخلاف.

كان هذا النقاش بمثابة بدء الانشقاق. فقد استمسك آريوس برأيه في الآب والابن والروح القدس، بينما استمسك خصومه بولادة الابن من الآب قبل كلّ الدهور، وبمساواة الابن للآب في الجوهر. وإذ أصغى ألكسندروس، أسقف الإسكندريّة، الى آراء الطرفين، قال برأي خصوم آريوس آمراً هذا الأخير بأن يقول هذا القول وبأن يمتنع عن أيّ تعليم مخالف. ولكنّ آريوس رفض أمر سيّده ممتنعاً عن الطاعة، فرأى الأسقف الإسكندري نفسه مضطرّاً إلى عقد مجمع محلّيّ حضره مئة من أساقفة مصر، شجب ثمانية وتسعون منهم أقوال آريوس. ممّا أدى الى صدور قرار قطْع عن ذلك المجمع لآريوس والأسقفَين اللذين امتنعا عن شجب أقواله[3]. وكان، خارج نطاق هذا المجمع، عدد كبير من أساقفة الشرق، يؤيّد رأي آريوس،

---

١ ـ Bardy G., III, PP. 72 - 73

٢ ـ Epiphane Haeres, LXIX, 3; Athanisius, Contra Arian. I, 8

٣ ـ Socrates, Hist. Ecc. I, 6

بين هؤلاء أساقفة كلّ من: نيقوميذيا الإنطاكيّة، قيصريّة فلسطين، بيسان، اللدّ، صور، بيروت، اللاذقيّة، وعين زربة القيليقيّة[1].

وهكذا ظهرت في الشرق بوادر الانشقاق العظيم، وراح كلّ من الطرفين يسعى لكسب تأييد قسطنطين لموقفه، وراح آريوس يجوب الأسقفيّات الشرقيّة مكتسباً تأييد أساقفتها، كما راح هؤلاء الأساقفة بما لديهم من نفوذ وصلات مع الأمبراطوريّة، يدعمون آريوس ضدّ خصومه. وعُقدت مجامع محلّيّة في إنطاكية ومحيطها أيّدت آراء آريوس[2]. وقد واجه أسقف الإسكندريّة ألكسندروس هذا النشاط الآريوسيّ بمراسلة الأساقفة خارج مصر داعياً الى وحدة الكنيسة الجامعة[3]. وقد طالت رسائله، إضافة الى أساقفة الشرق، بابا رومة. ويمكن القول إنّ الربع الأوّل من القرن الرابع كان مسرح تراشق بالقطع والحرمان بين رؤساء الكنيسة، وبالنشرات والنشرات المضادّة، ممّا أزاح المسيحيّة عموماً في هذه المنطقة من العالم عن رسالتها الحقيقيّة إلى الصراعات الهدّامة في مختلف الأحوال. ذلك أنّ العامّة تحزّبت لكلّ من الطرفين، ودرجت في ذلك الحين الأغاني والأهازيج الغوغائيّة في أوساط الطبقات كافّة حتّى الأوساط السفلى منها التي نقلت الصراع الى الشارع[4]. ممّا أدى الى غضب قسطنطين الذي لم يدرك، بسبب سطحيّة معلومات مستشاريه، أهمِّيَّة النزاع لناحية العقيدة المسيحيّة. فراح يرسل أتباعه إلى الإسكندريّة في محاولة لحلّ النزاع حبّيّاً، داعياً إلى إقرار السلم والتساهل. بيدَ أنّ المسألة كانت أخطر من ان تُحلّ حبّيّاً كما أراد قسطنطين.

وسط هذه الأجواء عُقد المجمع الإنطاكيّ الرابع الذي حضره ستّة وخمسون

١ ـ Bardy G., Recherches sur St. Lucien d'Antioche, PP. 223 - 228; Epiphane, Haeres, LXIX, 6

٢ ـ Sozomène, Hist. Ecc. I, 15

٣ ـ Alexandre d'Alexandrie, Epist. Encyc. Apud. Socrates, Hist. Ecc., I, 6

٤ ـ Philostorge, Hist. Ecc., II, 2; Usebe, Vit. Con., I, 61

أسقفاً، وقد صدر عنه قرار جاء فيه أنّهم يقولون بـ: « إله فائق القدرة، أزليّ، لا يتغيّر، خالق السماء والأرض وكلّ ما يوجد، وبربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور[١] ». وقد قطع المجمع أساقفة ثلاثة يترأسون كلاً من قيصريّة فلسطين واللاذقيّة وبانياس لمدّة معيّنة بسبب اعتراضهم على قراره. وأقرّ رسالة سلاميّة وجّهها الى بابا رومة وعدد من رؤساء الكنائس والأساقفة.

نتيجة استشراء الخلافات داخل الكنيسة، تدخّل الأمبراطور قسطنطين ودعا جميع الأساقفة في الأمبراطوريّة إلى الاجتماع في نيقية، حيث عُقد المجمع سنة ٣٢٥، وحضره حوالى ثلاثمئة أسقف من كافّة أنحاء المسكونة. لذلك عُرف بالمجمع المسكونيّ، وهو أوّل مجمع مسكونيّ في التاريخ.

بدأ المجمع المسكونيّ الأوّل أعماله في ٢٠ أيار (مايو) ٣٢٥، وقد افتتحه الأمبراطور قسطنطين بقوله إنّه: « يشكر لملك الكون نعمه الكثيرة خاصّة تلك التي سنحت له أن يرى الأساقفة مجتمعين بفكر واحد وقلب واحد ». وقال إنّه: « بقدرة الملك المخلّص تمكن من القضاء على الطغاة الذين قاوموا الله ». وإنّه: « يعتبر كلّ شغب في داخل الكنيسة مساوياً في الخطر لحرب شاملة[٢] ».

أسفر نقاش بدعة آريوس في المجمع المسكونيّ الأوّل عن صدور قانون الإيمان النيقاويّ الذي أيّدته الأكثريّة الساحقة من أساقفة المجمع، ووافق عليه قسطنطين من هذا المنطلق، بينما عارضه أساقفة شرقيّون كانوا يؤيّدون آريوس. وقد نصّ القانون النيقاويّ على الـ « نؤمن » التي لا يزال المسيحيّون، في الكنيستين الشرقيّة والغربيّة، يتلونها صلاة بحرفيّتها حتّى اليوم. وحرم الآباء آريوس وأتباعه وأيّدهم قسطنطين في ذلك حاكماً على آريوس بالنفي.

---

١ ـ Schwartz E., Gesch. D Athaniasius, VI

٢ ـ Usebe, Vit. Con., III, 12

رغم هذا بقيت بدعة آريوس تتفاعل، وتركّز الخلاف بين أتباعه والكنيسة الجامعة على «المساواة في الجوهر»، ممّا حدا قسطنطين نفسه على أن يُنذر أولئك الخارجين بسوء العاقبة. إلاّ أنّ بعض الأساقفة الآريوسيّين المستترين تمكّنوا من التغلغل في البلاط عن طريق قسطنديا أخت قسطنطين، ممّا أعطى الآريوسيّة ليس فقط إمكانيّة البقاء في الكنائس الشرقيّة، لا بل إمكانيّة إعادة تنظيم نفسها واستعادة المبادرة لمهاجمة الكنيسة الجامعة، وراح هؤلاء يحيكون المؤامرات ضدّ أساقفة الكنيسة الجامعة وقد نجحوا في بعضها، حتّى عاد الشقاق ليعصف بالكنيسة كما من ذي قبل. فعاد الأمبراطور قسطنطين للتدخّل محاولاً التوحيد. ولكنّ أساقفة إنطاكية توجّسوا خيفة من تدخّل السلطة في شؤون الكنيسة، فسارعوا الى اتّخاذ قرارات لوضع حدّ لهذا التدخل. ويبدو أنّ هذا الموقف أغاظ قسطنطين الذي أمر بإعادة آريوس من منفاه الى وطنه شرط أن يعترف هذا الأخير بالدين القويم. وبالفعل، فقد عاد آريوس ومثَل بين يدي الأمبراطور «وأكّد أورثوذكسيَّته، واعترف بأنّ الابن مولود من الآب قبل كلّ الدهور، ولكنّه لم يقل شيئاً عن المساواة في الجوهر[١]» فأحاله الامبراطور على مجمع انعقد في صور سنة ٣٣٥.

في هذه الأثناء بلغ الشغب في كنيسة مصر حدّاً لا يصدّق. إذ راح أتباع آريوس يتّهمون أسقف الإسكندريّة أثناسيوس، الذي أصبح قدّيساً فيما بعد، بأنّه أمر بكسر كأس الأفخارستيّة لأحد الكهنة، وبأنّه فرض الضرائب على المؤمنين، حتّى إنّهم اتّهموه بقتل أرسانيوس أحد أساقفتهم. هذه الأحاديث أزعجت الأمبراطور قسطنطين إلى حدّ أنّه أرسل أخاه درماتيوس الى الإسكندريّة للتحقيق شخصياً في هذه الاتّهامات. وإذا به يجد أرسانيوس حيّاً يرزق في أحد الأديرة. وتأكّد في الوقت نفسه من براءة أسقف الإسكندريّة من كلّ التهم الموجّهة إليه، فاكتفى قسطنطين بتعنيف المشاغبين وبتوجيه اللوم إليهم[٢].

١ - Sozomène, Hist. Ecc., II, 27; Socrates, Hist. Ecc., I, PP. 25 - 26

٢ - راجع: Bardy G., Politique relig. de Constantin après le concil de Nicée, Rev. Sc. relig. (1928) No 2, P. 538; St. Athanase, Apologia contra Arianos, Let. 44, 47
رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢١١ - ٢١٢.

عندما انعقد مجمع صور تآمر خصوم أسقف الإسكندريّة حتّى استحصلوا على قرار من المجمع يقضي بإرسال لجنة الى الإسكندريّة للتحقيق في الاتّهامات الموجّهة ضدّ أسقفها أثناسيوس الذي كان حاضراً المجمع. وقد قبل أثناسيوس بذلك شرط أن يكون أعضاء اللجنة من غير خصومه. إلاّ أنّ المتآمرين تمكّنوا من جعل المجمع يوفد الى مصر أساقفة آريوسيّين تألّفت منهم لجنة تحقيق مغرضة كان من الطبيعيّ أن تقدّم تقريراً يدين أثناسيوس، الذي اشتدّت الدعاية في صور نفسها ضدّه نتيجة ذلك التحقيق المغرض، ممّا أثار المؤمنين العامّة، فتوافدوا إلى قاعات المجمع متّهمين أثناسيوس بالسحر والقساوة مطالبين بمعاقبته. وفيما كان مبعوثو الأمبراطور يحثّون أعضاء المجمع على الاتّزان والاعتدال، توجّس أثناسيوس خيفة من نتائج المؤامرة، فانسلّ من صور خفية وانتقل الى القسطنطينيّة، ممّا جعل المجمع يصدر بحقّه حكماً غيابيّاً قضى بعزله من منصبه. وفي القسطنطينيّة تمكّن أثناسيوس من مقابلة قسطنطين الذي أصغى الى شكواه. وإذ استدعى الأمبراطور الأساقفة المجتمعين في صور لاستيضاحهم حقيقة الأمر، جاء بعض هؤلاء ولفّقوا ضدّ أثناسيوس تهمة جديدة، كان من شأنها ان تُغضب الأمبراطور ضدّ اللاجئ الى عدله، فحواها أنّ أثناسيوس هدّد بمنع تصدير الحنطة من الإسكندريّة الى القسطنطينيّة. فأمر قسطنطين بإبعاد أثناسيوس ونفيه إلى تريف في غالية[1].

بالنسبة لآريوس لم نجد في المراجع قراراً واضحاً صدر عن مجمع صور بهذا الشأن، ولكنّ المدوّنات تذكر أنّ مصر لم ترض عن أعمال المجمع الصوريّ، وأنّ القديس أنطونيوس الكبير[2] قد كتب الى قسطنطين مراراً يرجوه العفو عن تلميذه

١ - راجع: Sozomène, Hist. Ecc., II, 25; St. Athanase, Apolog. Contra Arianos, PP. 86 - 87; Socrates, Hist. Ecc., I, 34

٢ - القديس انطونيوس الكبير (حوالى ٢٥٠ - ٢٥٦): وُلد في مصر. ابو الرهبان وتلميذ باولا أول الحبساء. تنسك في الصعيد فجذب الكثيرين الى الحياة النسكية فانتسبوا إليه في قوانينها.

أثناسيوس وإعادته الى أبرشيّته، غير أنّ قسطنطين كان يرى أنه لا يعقل إجماع عدد كبير من الأساقفة المتنوّرين الحكماء على إدانة بريء، وأنّ أثناسيوس كان في نظره وقحاً متعجرفاً مشاغباً[١].

على صعيد آخر، رفض شعب الإسكندريّة تحمّل هذا الجور، فاشتعلت نار الفتنة في مصر ضدّ عودة آريوس إليها، بينما حاول الآريوسيّون إقناع أسقف القسطنطينيّة الجديد ألكسندروس بأن يقبل آريوس في الشركة، ولكنّ هذا الحبر رفض قبول آريوس قطعاً، وعندما أمره قسطنطين بذلك دخل الكنيسة وجثا أمام المذبح باكياً مبتهلاً. ويذكر بعض المدوّنات أنّه لمّا اجتمع أشياع آريوس ليُدخلوا زعيمهم الى الكنيسة «اضطرب آريوس وتنحّى عن القوم لقضاء حاجته... فاندلقت منه أحشاؤه ومات فوقها[٢]».

كان ذلك سنة ٣٣٦. وبعد أن لفظ آريوس أنفاسه بعام، مات قسطنطين الذي خسرت برحيله الكنيسة المدافع القويّ عنها. وخلفه في حكم الأمبراطوريّة أولاده الثلاثة الذين تصارعوا فيما بينهم، فقُتل اثنان منهم وبقي قسطنديوس الثاني المالك وحيداً.

أبرز ما فعله الأمبراطور الجديد بالنسبة لخلافات الكنيسة أنّه أذن لأثناسيوس بالعودة من منفاه الى الاسكندريّة في السابع عشر من حزيران (يونيو) سنة ٣٣٧، كما شمل العفو سائر الأساقفة المنفيّين.

كان لوصول أثناسيوس إلى الإسكندريّة في الثالث من تشرين الثاني (نوڤمبر) ٣٣٧ فعل الاضطراب في الوسط الآريوسيّ. فراح الآريوسيون يسعون في الشرق والغرب لتنصيب أسقف منهم على الإسكندريّة. وبعثوا وفداً الى رومة لإقناعها بمناصرتهم. غير أنّ الأساقفة الأورثوذكس المصريّين عقدوا مجمعاً محلّيّاً

---

١ - Sozomène, Hist. Ecc. II, 31

٢ - St. Athanase, Epist. De morte Arii. Epist. Ad episcopos aegypti et Libyae.

سنة ٣٣٨ أيّدوا فيه أسقفهم أثناسيوس، وحرّروا رسالة سلاميّة إلى يوليوس بابا رومة وجميع أساقفة المسكونة وإلى الأباطرة الثلاثة خلفاء قسطنطين الذين كانوا لا يزالون أحياء[١].

سارع البابا يوليوس[٢] إلى دعوة أثناسيوس الى رومة، وبعث الى الشرق وفداً يدعو الأساقفة الآريوسيّين وسواهم الى مجمع مسكونيّ في رومة للبتّ في المسألة. فرفض الأساقفة الآريوسيّون طلب رومة معتبرين أنّ المسألة شرقيّة وقد بتّ فيها مجمع شرقيّ، هو مجمع صور، مهدّدين بقطع العلاقات مع رومة إن هي اعترفت بأثناسيوس[٣].

جاء ردّ رومة على الآريوسيّين عنيفاً، إذ بيّن يوليوس وجوب اطلاع جميع الأساقفة على القرارات المتّخذة ليشترك الجميع في إحقاق الحقّ.

توفّي البابا يوليوس دون أن يتمكّن من إعادة أثناسيوس الى دياره. وتولّى الكرسي الرسوليّ بعده ليباريوس (٣٥٢ ـ ٣٦٦) فاهتمّ هو الآخر بقضيّة أثناسيوس، وعبثاً حاول مع الأمبراطور قسطنديوس أن يدعو أساقفة الكنيسة الجامعة إلى مجمع في أكويلية للنظر في قضيّة أثناسيوس، ذلك أنّ الأمبراطور كان مهتمّاً بكسب تأييد الآريوسيّين في الشرق لأنّهم كانوا قد أصبحوا أكثريّة راجحة. وفي النهاية دعا قسطنديوس الأساقفة الغربيّين فقط الى مجمع عُقد في ميلان مطلع السنة ٣٥٥ حيث خيّرهم بين نبذ أثناسيوس أو نفيه، فوافق معظمهم على أهون الشرّين: النبذ. إلا أنّ البابا ليباريوس بقي مصراً على تأييد أثناسيوس الذي أُبعد بأمر الأمبراطور الى تراقية[٤].

وعندما أرسل الأمبراطور بارجة حربيّة إلى الإسكندريّة لنقل أثناسيوس إلى

١ ـ St Athanase, Apologe. Contra Arianos, 3 - 19, 87, 19.
٢ ـ يوليوس الأول الذي اصبح فيما بعد قديساً. عاش (٢٨٠ ـ ٣٥٢) ولد في رومة. بابا (٣٣٧ ـ ٣٥٢)
٣ ـ Bardy G., Réaction, III, PP. 118 - 119; Sozomène, Hist. Ecc., III, 8
٤ ـ Bardy G. Variations, III, 138 - 147

الغرب، إمتنع هذا الأخير، فأرسل الأمبراطور فرقة عسكريّة لاعتقاله، صدّها المصلّون، وحصلت مقاومة عنيفة علت بخلالها أصوات العذارى الصالحات حول كنيسة الإسكندريّة حيث بقي أثناسيوس جالساً في كرسيه لا يأتي بحركة، إلى أن رأى وجوب الفرار، فانسلّ من الكنيسة هارباً نحو الصحراء الغربيّة لاجئاً إلى رهبانها الذين أحسنوا استقباله وحموه، فراح يصنّف ويكتب. وتوفّي هذا البطريرك الجليل: أثناسيوس الإسكندريّ، في العام ٣٧٣ فخسرت الكنيسة أحد آبائها، بعد أن حارب الآريوسيّة بصلابة، فنفي خمس مرّات دون أن يحيد عن استقامة معتقده. وفي ملجأه كتب حياة القديس أنطونيوس والعديد من المؤلّفات اللاهوتيّة. بينما استمرّت الآريوسيّة ببدعتها تحتلّ كنيسة الشرق التي بقيت في حال من الارتباك والصراع طوال قرن بكامله بسبب بدعة آريوس، التي لم ينتهِ أمرها في الشرق قبل نهاية القرن الرابع، لتستمرّ عند القوط واللومبرد حتّى القرن السابع حيث انقرضت تماماً.

وبالإمكان القول إنّ بدعة آريوس قد أحلّت بالكنيسة الشرقيّة نكبة أضعفتها، إضافة الى ما مهّدت له من بدع سوف تظهر فيما بعد لتُحدث مزيداً من الانشقاقات داخل الكنيسة، ولتشرذم مسار المسيحيّة بشكل متواصل دونما انقطاع.

مسألة الدستور المؤرّخ

بينما كانت الانقسامات تعصف بالكنيسة الشرقيّة، كانت الأمبراطوريّة نفسها عرضة للانشطار. فبسبب الصراع على السلطة تعاقبت الانفصالات بين شطرَي الأمبراطوريّة: الغربيّ والشرقيّ، أكثر من مرّة، وحكمهما أباطرة مختلفون. إلى أن حصل الانقسام النهائيّ سنة ٣٩٥ «حين توفي ثيودوسيوس الكبير وخلفه أبناه: هونوريوس واركاديوس، الواحد على الغرب والآخر على الشرق. وكان

ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) آخر أمبراطور على الأمبراطوريّة الواحدة. ومنذ ذلك الحين وُجدت أمبراطوريّة رومانيّة شرقيّة كان النجاح حليفها، بينما كان الفشل نصيب شقيقتها في الغرب، وأخيراً سقطت رومة في ٤٧٦ بنتيجة هجمات القبائل الجرمانيّة. وقد كسب ثيودوسيوس لقب الكبير لصموده الباسل أمام القوط ولدعمه المسيحيّة الخالية من البدع. واعتنق جميع خلفاء قسطنطين، باستثناء يوليان وحده (٣٦١ ـ ٣٦٣) الدين المسيحيّ[١]».

يوليان هذا لُقِّب بيوليانوس الجاحد. وهو ابن أخت قسطنطين الكبير. نودي به أمبراطوراً سنة ٣٦١، وهو من مواليد القسطنطينيّة سنة ٣٣١. أمّا سبب تلقيبه بالجاحد فيعود إلى أنّه جحد الإيمان المسيحيّ وشجّع الوثنيّة. وقد أطلق المسيحيّون عليه هذا اللقب لكثرة ما سبّب لهم من اضطهادات. وكانت نهايته قتيلاً في إحدى المعارك مع الفرس.

منح يوليانوس حرّيّة المعتقد لأوّل مرّة بعد قسطنطين. وقد كان هدفه من ذلك إطلاق الوثنيّة التي نشط أتباعها من جديد. وقد أنّب يوليانوس أهل إنطاكية الذين كانوا قد أصبحوا بأكثريّتهم الساحقة مسيحيّين لعدم تقديمهم القرابين لأپولون بمناسبة ذكراه. وأكرم الفلاسفة الوثنيّين فيها، ورقّى وجهاء الوثنيّة إلى أعلى المراتب، وأقدم على التنكيل برفاة القدّيسين فأخرجها من قبورها، فردّ المسيحيّون في إنطاكية بأن أحرقوا هيكل أپولون. فأقفل الأمبراطور كنيسة إنطاكية الكاتدرائيّة وأمر بنهبها وتدنيسها. فكسر المسيحيّون تماثيل الآلهة[٢]. وقد أعمل هذا الأمبراطور الجاحد السيف في رقاب الكهنة والعذارى في غزّة وعسقلان، ورمى بأجسادهم إلى الخنازير لتدوسها: «وفي بانياس أنزل تمثالاً للسيِّد المخلص عن قاعدته وحطّمه تحطيماً وأقام محلّه تمثالاً لنفسه. وأحرق كنيسة بيروت.

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٨٨
٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٣٩

وبعهده أشعل اليهود النيران في كنيستين من كنائس دمشق. ولقي شمّاس بعلبكّ حتفه لأنّه كان قد اجترأ في عهد قسطنطين على قلب الأصنام. وأُحرقت قبور المسيحيّين في حمص التي حُوّلت كنيستها الى هيكل لباخوس. وفي حماة أقيم تمثال لباخوس على مذبح الكنيسة[1] ». ويظهر التعاطف واضحاً بين اليهود وهذا الأمبراطور الجاحد الذي أمر بإعادة بناء هيكل أورشليم.وقد تمّ على يد اليهود بإشراف أحد أمناء الأمبراطور حفر أساسات الهيكل لإعادة بنائه، على أنّه فور انتهائهم من ذلك حدثت زلزلة عظيمة هدمت الأبنية المجاورة وقتلت بعض الفعلة واعادت ردم الأساسات[2]. كان ذلك قبل مقتل يوليانوس الجاحد في ربيع سنة ٣٦٣ بقليل. وقد ذكر بعض المدوّنات أنّ فارساً مسيحيّاً من فرسانه اغتاله خلال معركته مع الفرس انتقاماً لاضطهاده للمسيحيّين.

وكان هذا الأمبراطور الجاحد قد عمل على زيادة الشرخ في الكنيسة، فأعاد جميع الأساقفة المنفيّين الى بلدانهم، ممّا أجج الصراع بين الكنيسة المستقيمة وأصحاب البدعة الآريوسيّة. بيدَ أنّ الأمر قد عاد ليستقيم بعض الشيء في عهد يوفيانوس الذي خلف يوليانوس، وقد كان مسيحيّاً مستقيم الرأي، فما أن تسلم الحكم حتى دعا أثناسيوس الكبير إلى إنطاكية، فوصلها في خريف ٣٦٣ ومنها عاد إلى الإسكندرية. ورغم محاولات هذا الامبراطور لإعادة اللحمة الى كنيسة إنطاكية، فقد بقيت منشقّة يرئسها اثنان: أحدهما مستقيم الرأي والثاني آريوسيّ. وإذ مات يوفيانوس بعد سنة من الحكم طال الانشقاق الأمبراطوريّة نفسها إذ حكم ڤلنتنيانوس الغرب (٣٦٤ ـ ٣٧٥) وأخوه ڤلنس الشرق (٣٦٤ ـ ٣٧٨) فأصبحت بذلك الأمبراطوريّة دولتين: شرقيّة وغربيّة.

حاول ڤلنس أن يجد حلاً للشقاق الذي عمّ كنيسة الشرق بأسرها فوجد في «الدستور المؤرّخ» ما من شأنه أن يكوّن ذلك الحلّ الوسط.

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ Philostorge, Hist. Ecc., VII, PP. 8 - 14

ذلك أنّه في العام ٣٥٩ كان قد عُقد مجمعان كنسيّان في وقت واحد بالتنسيق بين أساقفة الشرق والغرب: أحدهما شرقيّ عُقد في سلفكيّة بالقرب من الساحل القيليقيّ، والثاني غربيّ في رميني على شاطئ الأدرياتيك الإيطاليّ. ونوقش في المجمعين دستور إيمان جديد عُرف فيما بعد بالدستور المؤرّخ، لأنّ الأسقف الذي أعدّه، وهو مرقس أسقف أرسوز، بدأ النصّ بالإشارة الى موافقة الأمبراطور قسطنديوس وإلى السنة والشهر واليوم التي تمّت فيها هذه الموافقة.

نصّ الدستور المؤرّخ على التشابه في الجوهر بين الآب والابن، ممّا من شأنه بنظر واضعه والأمبراطور، أن يشكّل حلاً للخلاف بين الكنيسة المستقيمة والآريوسيّين حول مسألة الجوهر. وبينما أقرّ المجمع الغربيّ هذا الدستور تحت ضغط واضح من قبل الأمبراطور، أنهى المجمع الشرقيّ أعماله دون إقراره. ويبدو أنّ الأمبراطور لم ييأس، ممّا حقّق عقد مجمع في القسطنطينيّة سنة ٣٦٠ حضره ممثّلو المجمعين، وتمّ بخلاله إقرار الدستور المؤرخ الذي قال: «بالتشابه في الجوهر كما في الكتب». ونبذ المجتمعون «التخالف في الجوهر» وحرّموا استعمال اللفظين اللذين أثارا الجدل: "Ousia و Hypostasis" «مستعيضين عنهما بكلمة Omoios[١]».

هذا هو «الدستور المؤرّخ» الذي حاول ڤلنس توحيد الكنيسة حوله. وكان الأمبراطور قسطنديوس قد جعل من هذا «المؤرَّخ» دستوراً رسميّاً للدولة. وقد سار ڤلنس على خطى قسطنديوس فأمر بإعادة إبعاد الأساقفة الذين أقصاهم قسطنديوس عن مراكزهم وأعادهم يوليانوس اليها كما سبق وأشرنا. وإذ ظهرت بوادر معارضة لاعتماد «الدستور المؤرَّخ» من قبل بعض أساقفة الشرق، منع الأمبراطور هؤلاء من عقد مجمع كانوا ينوون تنظيمه في طرسوس ليخرجوا منه بقرار يقول بالمساواة في الجوهر وليس بالتشابه، غير أنّ انشغال الأمبراطور بحربه ضدّ القبائل القوطيّة سمح لأصحاب الرأي المستقيم بأن يجهروا بالعقيدة النيقاويّة من جديد، نابذين «الدستور المؤرَّخ» متشبّثين بوحدة الجوهر، ممّا عرّضهم

١ - Bardy, G., Variations, III, PP. 169 - 170

للاضطهاد من قبل ڤلنس بعد عودته من حربه ضدّ القوط، فأعدم بعضهم بالسيف «وألقى القبض على بعضهم الآخر، وأبعدهم على قوارب في مياه البوسفور حيث أحـرقـوا[1] ». وعادت الكنيسة لتدخل دورة اضطهاد جديدة، طُرد بخلالها المستقيمو الرأي من كنائسهم التي سُلِّمت إلى أصحاب القول «بالدستور المؤرَّخ»، وصودرت أملاك المعارضين وأوقافهم ونُفي الأساقفة المؤمنون وكفّ الجيش الأمبراطوريّ عن محاربة الفرس والبرابرة منصرفاً الى تدنيس الكنائس والمذابح[2]، حتّى إنّ بعض المدوّنات يؤكّد أنّ الأمبراطور أمر بإغراق عدد من المؤمنين في العاصي بسبب تأييدهم للكنيسة المستقيمة الرأي[3].

هنا يلمع أحد آباء الكنيسة الكبار: باسيليوس القبدوقيّ (٣٢٩ ـ ٣٧٩) أسقف القيصريّة الجديدة الذي واجه الأمبراطور بموقف رائع إذ قال له: «أيّ شيء ينتظرني منك؟. فإن لجأت الى المصادرة، فإنّك لن تجد عندي سوى بعض الكتب، وإن قلت بالنفي فإنّي غريب في هذا العالم، غريب أينما حللت. وإن أمرت بالتعذيب فإنّ هذا الجسد النحيل لن يلقى منك سوى ضربة واحدة. أمّا الموت فإنّه سيجعل لقائي بالربّ إلهي الذي من أجله أحيا وأتحرّك، ولأجله أصبحت نصف ميت، وللقائه أتلهّف منذ أمد بعيد[4]».

وعندما توجّه الأمبراطور ڤلنس نفسه يوم عيد العنصرة الى كنيسة قيصريّة وتقدّم إلى المذبح بهديّة، لم يتناولها منه أحد، فارتعد وارتعش، إلى أن تقدّم الاسقف باسيليوس وقبلها، فلانت صلابة الامبراطور وعامل باسيليوس معاملة طيّبة.

وعندما أراد الأمبراطور نفي باسيليوس مرض ابنه الوحيد وأشرف على الموت، فسارع حينها طالباً من باسيليوس أن يصلّي على ولده. فقبل الأسقف

---

١ ـ Sozomène, Hist. Ecc., VI, 14

٢ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٤٧؛ St Gregoire, orat. 20, 25

٣ ـ Socrates, Hist. Ecc., IV, 17

٤ ـ St. Gregoire de Nazianze, Orat. XX, PP. 49 - 50

شرط أن يعمَّد الولد عمادة أورثوذكسيّة. وبذلك تعافى الولد. ثمّ عمّده أسقف آريوسيّ فمات حالاً. فغضب الأمبراطور وأخذ القلم ليحرّر أمراً بنفي باسيليوس فانكسر. فبراه فانكسر، وهكذا للمرّة الثالثة، فارتجف الأمبراطور ومزّق الصكّ[1].

سعى باسيليوس جاهداً للتقريب والتعاون بين كنيستي رومة وإنطاكية، وراسل مع عدد من أساقفة الشرق أساقفة إيطالية وغالية راجياً تدخّل أساقفة الغرب لإنقاذ الكنائس الشرقية من كبوتها، إلاّ أنّ باسيليوس الكبير قد توفي مطلع العام ٣٧٩ دون أن تتحقّق رغبته. وبعد انتقاله من هذه الفانية بسنتين، كان المجمع المسكونيّ الثاني الذي انعقد في القسطنطينيّة سنة ٣٨١ بحضور ١٤٨ أسقفاً وأباً من عظماء رجال الكنيسة، انسحب بعد بداية المجمع بقليل الآريوسيّون ولم يبقَ فيه سوى مستقيمي الإيمان. وقد نتج من هذا المجمع المسكونيّ الهام تثبيت الدستور النيقاويّ بعد إضافة بعض الفصول إليه[2]. وإذ حرّر الأساقفة رسالة إلى الأمبراطور، وكان يومها فيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) الذي كان يسوس كامل الأمبراطوريّة، شكروا له عبرها دفاعه عن الإيمان القويم وسعيه لتوطيد السلم بين الكنائس، أصدر الأمبراطور براءة جديدة مؤرّخة في الثلاثين من تموز (يوليو) سنة ٣٨١، أوجب بها إعادة الكنائس الى الكاثوليكيّين الاورثوذكسيّين. وبذلك انتهت مسألة «الدستور المؤرَّخ»، كما أمر الأمبرطور بطرد الآريوسيين من إنطاكية.

مسألة ابولينارس وسائر البدع

لم تكن البدعة الآريوسيّة التي شقّت الكنيسة محدثة فيها ذلك الشرخ العظيم، البدعة الوحيدة التي ظهرت في ذلك التاريخ من زمن الكنيسة، بل كان

---

١ ـ المطران ساويريوس يعقوب، الكنيسة السريانية الانطاكية، ج ١، ص ٢٤٨؛ Bardy G., Declin, III, PP. 260 - 261

٢ ـ Schwartz. P., zeitschrift fur Neutestament, (1926), PP. 38 - 88

المجال يومها واسعاً للاجتهادات في طبيعة المسيح وفي تحديد لاهوته وناسوته وفي الكثير من الشؤون المتَّصلة به، وكان كلٌّ من تلك الاجتهادات يسبّب خلافات ويتسبّب في اجتهادات مضادّة، حتّى كثرت البدع والهرطقات وتناولت أموراً لم تكن مطروحة من قبل، إلى أن طاولت صفة مريم العذراء : ام الله، وقد أحدثت هذه الصفة بحدّ ذاتها مشكلة داخل الكنيسة.

ففيما أكّد آريوس على الطبيعة البشريّة للمسيح، وبينما كانت الكنيسة المستقيمة الرأي تناضل لصدٍّ بدعة آريوس بعد أن أصبح انتشارها خطيراً، وكردّ فعل ضدّ الآريوسيّة ومفهومها هذا «أكّد أپولينارس، أسقف أُوديسّة (توفّي حوالى ٣٠٩) أنّه بينما كان للمسيح جسد بشريّ حقيقيّ وروح بشريّة حقيقيّة، فإنّ الكلمة (Logos) تحتلّ في شخصه المقدس مكان النفس التي هي أسمى جزء في الإنسان. واتضح أنّ أپولينارس كان يستخدم في تفكيره المبدأ الأفلاطونيّ الحديث القائل بأنّ الطبيعة البشريّة مركّبة من ثلاثة عناصر : جسد، وروح (تبعث النشاط) ونفس (تجعل الإنسان عاقلاً ومختلفاً عن الحيوانات[١])... ».

وقد قال أپولينارس بنقص في طبيعة المسيح البشريّة، فعلّم أنّ اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الإنسان. ولمّا عقدت الكنيسة الجامعة المجمع المسكونيّ الثاني وأدانت أپولينارس مؤكّدة على حقيقة كمال ناسوت المخلّص، أهملت تعيين جوهر العلاقة بين الطبيعتين الالهيّة والبشريّة في المسيح، ومسألة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، ممّا أدّى الى اجتهادات في التفسير. وإذ كانت التعاليم غير موحَّدة ومنّسقة بين مدارس الكنائس إن في الشرق أم في الغرب، وكان لكلٍّ منها نهجها الخاصّ في التعليم وفي استعمال التعابير، فقد أدّى ذلك إلى فتح المجال واسعاً أمام مزيدٍ من البدع.

كانت بدعة أپولينارس الجبهة المواجهة تعاكساً لبدعة آريوس. كما كانت

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١، ص ٤١١

في الوقت نفسه ممهّدة لبدعة خطيرة جديدة سوف تؤدّي الى انشطار آخر في الكنيسة: النسطوريّة.

وتفيد المدوَّنات بأنّ البدعة الأبولينارية، وإن كانت قد شغلت الكنيسة لبعض الوقت، إنّما هي بقيت هامشيّة نسبيّاً. وقد استحكم الخلاف بشكل بارز في إنطاكية بين الآريوسيّين والأپوليناريّين، خصوصاً حول طبيعة المسيح وحول مكانة مريم العذراء. كما تفيد بأنّ البطريرك الإنطاكيّ ثيودوتس (٤٢٤ ـ ٤٢٨[١]) قد حاول ردّ الأپوليناريّين عن ضلالهم، فعاد الى الأورثوذكسيّة حوالى نصفهم[٢].

كذلك برزت بدع يصعب تحديدها والإحاطة بها جميعاً في ذلك الزمن المضطرب من تاريخ الكنيسة، منها البدعة المقدونيّة: صاحب هذه البدعة مقدونيوس بطريرك القسطنطينيّة. وهي على العموم فرع آريوسيّ. أنكر صاحبها لاهوت الروح القدس، فرذل بدعته المجمع القسطنطينيّ الأوّل سنة ٣٨١. ومنها بدعة نوڤاتيانوس التي عُرف معتنقوها بالنوڤاتيّين. ونوڤاتيانوس هذا كاهن رومانيّ كان قد أسس هذا المذهب سنة ٢٥١، وهو المذهب الذي تصلّب تجاه الخطأة كما سبق وجاء في مكان سابق من هذا البحث. والوالنتيّة التي اتَّبع معتنقوها الأمبراطور الرومانيّ ڤلنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨)، وهذه البدعة فرع آخر من الآريوسيّة. إضافة إلى المونتانيّة والمركيونيّة والبوربوريّة والأفخيتيّة والدوناتيّة، التي نُسبت إلى اسقف قرطاجة دوناتوس (حوالى ٣١٥) الذي تصلّب مع الخطأة، والتي أحدثت شقاقاً وفتناً كثيرة في إفريقية. والبولسيّة التي نُسبت إلى بولس السميساطيّ أسقف إنطاكية (٢٦٠ ـ ٢٧٢) والقائل بأنّ المسيح كان إلهاً بالتبنّي. والمركلوسيّة

---

١ ـ ثيودوتس: اسم يوناني: Theodotos ومعناه عطاالله. اختلف المؤرخون في تعيين مدة رئاسته بين (٤٢٤ ـ ٤٢٨) و (٤١٧ ـ ٤٢٩) و (٤١٨ ـ ٤٢٧). راجع:
Musset H., Histoire du christ.,I, 63; Constantius, Patriarchs of Antioche, P 43;
رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٠٦.

٢ ـ Theodoret, hist. Ecc., V, 37

والمانويّة نسبة الى ماني (٢١٥ ـ ٢٧٦) القائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشرّ، النور والظلام، غير أنّنا لا نرى مع بعض الباحثين أنّه من الجائز نسبة المانويّة الى المسيحيّة، بل قد يكون من الأصح اعتبارها من ديانات الشرق الأقصى.

مسألة نسطوريوس

ممّا يدعو الى الدهشة أنّ الذي سيكون، بعد آريوس، صاحب أخطر بدعة لاهوتيّة بعد الآريوسيّة، هو ذلك الذي بدأ حياته الأسقفيّة بمحاربة البدع كافة بشتّى الطرق والوسائل.

وُلد نسطوريوس Nestorius حوالى سنة ٣٨٠ في قيصريّة سورية من أبوين ليس واضحاً إن كانا سوريّين أو فارسيّين، وتتلمذ في إنطاكية إلى أن سيم كاهناً على مذابحها، واعتنى بتفسير الأسفار المقدّسة[١]، الى ان انتخب بطريركاً على القسطنطينيّة سنة ٤٢٨ بدعم من الأمبراطور البيزنطيّ ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠). وعندما احتُفل بتتويج نسطوريوس في العاشر من نيسان (إپريل)، خاطب الأمبراطور على مسمع من جمهور المحتفلين قائلاً: «أعطني بلاداً خالية من الهراطقة أقدِّم لك السماوات بديلا. واستأصِل الهراطقة لنا نستأصِل الفرس معك[٢]».

وبالفعل، فقد استصدر نسطوريوس في الأسبوع الأوّل من ولايته حكماً من الأمبراطور قضى بإغلاق كنيسة الآريوسيّين في القسطنطينيّة. وقبل انقضاء شهرين من ولايته استصدر أمراً آخر قضى باقتلاع الهرطقة بجميع فرقها، فأُغلقت كنائس

---

١ ـ بشأن نسطوريوس راجع: Nauve. F., Naissance de Nestorius, Revue orientale chrétien (1909) PP. 424 - 426; Nauve, F., Analyse du traité écrit par Denys bar Salibi contre les nestoriens Revue orientale chrétienne (1909) P. 302; Brière M., Legende Syriaque de Nestoriuis No 19; Nauve, F., Héraclide de Damas, VI; Loofs F., Nestoriana, P. 171; Bardy G., Débuts du Nestorianisme, Fliche et Martin, IV, 166

٢ ـ Socrates, Hist. Ecc., VII, 29

الآريوسيّين والمقدونيّين والأپوليناريّين والنوڤاتيين والأڤنومـيّين والڤالانتينيّين والمونتانيّين والمركيونيّين والبوربوريّين والمصلّين والافخيتيّين والدوناتيّين والبولسيّين والمركلوسيّين ومعابد المانويّين وسواهم. وقد استُعمل العنف من أجل تنفيذ الإرادة الأمبرطوريّة ـ النسطوريّة، ممّا أدى الى وقوع جرحى وقتلى.

نسطوريوس هذا، الذي بدأ عهده عدّواً للبدع، سوف يصبح أحد أسياد البدع.

لاحظ المؤمنون أنّ نسطوريوس كان يتحاشى ذكر عبارة «مريم، والدة الإله». ولمّا نشب الجدل بين أحد كهنته: أناستاسيوس، والآريوسيّين حول «والدة الإله» وكان اناستاسيوس يقول بأنّ مريم بشر وكبشر لا يمكنها أن تلد إلهاً، ولذا فإنّه لا يجوز القول عنها إنّها والدة الإله، أبى نسطوريوس أن يلوم كاهنه. وعندما حرّم أسقف مركيانوپولس: دوروثيوس، إستعمال صفة «والدة الإله» سكت نسطوريوس عن هذا التحريم دون أن يلوم دوروثيوس، الى أن ردّ نسطوريوس على لائميه بأنّ صفة «والدة الإله» غير واردة في الأسفار المقدّسة ولا في كلام الآباء في نيقية.

برزت بدعة نسطوريوس واضحة عندما قال بـ «طبيعتين في المسيح»: طبيعة ابن الله المساوي للآب في الجوهر، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء، مستنداً في اعتباره هذا الى قول نيقاويّ جاء فيه: «إنّ ابن الله تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء». وهكذا بدأت بدعة نسطوريوس الذي اقترح استبدال قول «والدة المسيح» بقول «والدة الله».

وإذ اعتبر نسطوريوس أنّ الشخص الإلهيّ في المسيح هو الكلمة (Logos) فقد ظهر تأثّره واضحاً بأپولينارس الذي سبقه إلى هذا الاعتبار قبل أربعين سنة.

بينما كان نسطوريوس في طريقه الى القسطنطينيّة لمّا دعاه الأمبراطور ليعيّن بطريركاً عليها، عرّج على معلّمه القديم ثيودوروس الأسقف الشيخ الحكيم،

فأقام عنده في موبسوستي لبعض الوقت، وتقول الرواية أنّ هذا المعلّم الشيخ قال لتلميذه نسطوريوس وهو يودعه: « ... إنّي أعرفك يا بني، لم تلد امرأة رجلاً أشدّ حماساً منك... ولكن... عليك بالاعتدال إذا أردت النجاح في معالجة الاختلافات في الرأي[1] ». ولكن يبدو أنّ نسطوريوس قد نسي وصيّة معلّمه.

هذا البطريرك الإنطاكيّ الذي كان عدوّاً للبدع، تطرّف في تعاليمه القائلة بالطبيعتين إلى حدّ أصبح يقول عنده بـ «شخصين أو أقنومين». ولقد هال المسار اللاهوتيّ لنسطوريوس الأوساط المستقيمة الرأي في إنطاكية، إلى أن اتّهمه بعض علماء اللاهوت بأنّه من أتباع بولس السميساطيّ، ويبدو أنّ معلّم نسطوريوس كان يعرف تلميذه جيّداً إذ حاول ضبط حماسه يوم أسدى إليه النصيحة، ذلك أنّ هذا الأخير ذهب في حماسه لرأيه إلى حدّ أنّه أمر بضرب الرهبان الذين احتجّوا على تعاليمه، وحتّى إلى حرم جميع الذين لم يقولوا قوله.

كان أوّل من تصدّى لنسطوريوس، كيرلّوس (٤١٢ ـ ٤٤٤) أسقف الإسكندريّة، إن على صعيد الطبيعتين أم على صعيد «والدة الإله». وإذ وصلت أصداء بدعة نسطوريوس إلى رومة دعا البابا قليستينس الأوّل (٤٢٢ ـ ٤٣٢) إلى مجمع محلّيّ عقد في صيف سنة ٤٣٠ فاعتبر تعاليم نسطوريوس غير قويمة. وقد كتب البابا بذلك الى أساقفة الشرق وأوجب التراجع عن الضلال فوراً مهدّداً بالقطع، ووجّه رسالة إلى نسطوريوس نفسه فارضاً التراجع عن الضلال بخلال عشرة أيّام وإلاّ كان لا بدّ من القطع[2].

عندما كان هذا السجال قائماً كان يوحنّا بطريركاً على كرسي إنطاكية (٤٢٩ ـ ٤٤٨). وبينما أيّد رومة في موقفها أساقفة آسية وأورشليم والإسكندريّة، أيّد نسطوريوس بطريركُ إنطاكية يوحنّا الذي عُرف نتيجة هذا الموقف المناهض لرومة ببطريرك الشرق. بذلك انقسمت الكنيسة يومها إلى شطرين.

١ ـ Brière M., Légende Syriaque de Nestoriuis, P. 19

٢ ـ Jaffé - wattenbach, Regesta pontificum romanorum, PP. 372 - 373

نتيجة هذا الخلاف دعا الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني إلى مجمع مسكونيّ عُقد في أفسس سنة ٤٣١ وسط تراشق بالمجامع المحلّيّة التي جرت من قبَل الطرفين المتنازعين على هامش ذلك المجمع المسكونيّ وبالتهجّمات اللاهوتيّة. إلاّ أنّه في نهاية المجمع أمر الأمبراطور الحزبين المتنافرين أن يجتمعا في مكان واحد، وقام أحد رجال البلاط: يوحنّا قومس، بقراءة براءة أمبراطوريّة عليهم جاء فيها خلع نسطوريوس، ودعت البراءة إلى ضرورة التمسّك بنصّ الدستور النيقاويّ، وأمرت البطاركة والأساقفة بالعودة الى أوطانهم[١].

استقال نسطوريوس من منصبه وعاد الى الدير في إنطاكية، وبقي هناك سنة واحدة إلى أن أمر الأمبراطور بإبعاده عن إنطاكية سنة ٤٣٢، فانتقل إلى البتراء ومنها الى الواحة الكبرى في صحراء ليبية حيث لم يعد يعرف عنه شيء[٢].

وإمعاناً في التخلّص من النسطوريّة التي بقيت تهدّد وحدة الكنيسة بسبب استمرار الخلافات بين معتنقيها وخصومهم، أمر الأمبراطور في الثالث من آب (أغسطس) سنة ٤٣٥ بتحريم تعاليم نسطوريوس وحرق كتبه. ولّما قام عسكر الأمبراطوريّة باضطهاد أتباع نسطوريوس تنفيذاً للأمر الأمبراطوريّ، وقد شمل هذا الاضطهاد النفي ومصادرة الأملاك، انتقل هؤلاء الأتباع الى نواح بعيدة في الشرق، حيث نشروا المسيحيّة من خلال إرسالهم المبشّرين الى آسية الشرقيّة، بعد أن أنشأوا الرهبانيّات واجتهدوا بالتبشير في الهند والصين وإيران، حيث ظهر فيما بعد النساطرة المعروفون بنساطرة بلاد فارس. وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ هؤلاء النساطرة هم الذين شكّلوا الكنيسة الشرقيّة، أو كما تسمّي نفسها مفاخرة «كنيسة الشرق»... وهم يَعتبرون نسطوريوس بين الآباء اليونان وليس السوريّين[٣].

---

١ - Gerland - Laurent, PP. 55 -56

٢ - Socrates, Hist. Ecc., VII, 34

٣ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ج ١، ص ٤١٢

وبقي النساطرة يقطنون في كردستان بين الموصل وأرمينية إلى أن انضمّ قسم منهم إلى الكثلكة في القرن السادس عشر، فأصبحوا يعرفون بالكلدان، أمّا الذين بقوا على نسطوريّتهم فهم الذين عرفوا بالآشوريين، وقد تبدّد شملهم بعد حرب ١٩١٤ وأصبحوا مشتّتين في الشرق خاصة في العراق وبعض سورية ولبنان.

مسألة أوطيخة

بينما كان الجدل قائماً حول طبيعة المسيح بين نسطوريوس من جهة، وكيرلّس الإسكندريّ بطريرك الإسكندريّة (٤١٢ ـ ٤٤٤) من جهة أخرى، كان يقول قول كيرلّس راهب يونانيّ عاش في القسطنطينيّة، اسمه (Eutychès أوتيشس) وقد اصطلح على تسميته بالعربيّة: أوطيخة، أو، أوطيخا.

ويبدو من خلال المراجعات أنّ مدرسة اللاّهوت الإسكندريّة كانت تشدّد في ذلك التاريخ على الطبيعة الإلهيّة في المسيح بنوع خصوصيّ دون أن تنكر فيه الطبيعة البشريّة[1]. إلاّ أنّ هذا الراهب اليونانيّ، وقد كان «زاهداً ورعاً محترماً، تقدّم جميع رهبان العاصمة وبرّز تبريزاً» تمادى في التركيز على الطبيعة الإلهيّة في المسيح، معتبراً أنّ الطبيعة الإنسانية فيّه، ليست سوى نقطة خمر وقعت في بحر ماء، فامتزجت فيه. وهكذا يكون المسيح ذا طبيعة واحدة وأقنوم واحد[2].

وإذ كان للبطريرك الاسكندريّ أصدقاء كثر، بسبب موقفه المناهض لنسطوريوس، فإنّ هؤلاء الأصدقاء الذين قد لا يجوز تسميتهم بالأتباع، قد اهتموا بأوطيخة بعد وفاة البطريرك، وسرعان ما انتشرت بدعته بينهم في القسطنطينيّة، حيث كان يقيم، إلى أن انتقلت باتّجاه مصر والرها وإنطاكية وقورش وسواها[3].

---

١ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٠٧ ـ ٣٢٧

٢ ـ Tixeront J., Histoire des Dogmes, III, PP. 84 - 85

٣ ـ Duchesne L., histoire Anc. de l'Eglise, III, 398.

كان أوّل من تصدّى لبدعة أوطيخة: دومنوس أسقف إنطاكية (٤٤١ ـ ٤٤٩) إذ ألّف كتاباً ظهر في نهاية سنة ٤٤٧ تحت عنوان «الشحّاذ»، أكّد على وجود الطبيعتين معاً في المسيح بدون امتزاج. وكان واضحاً من قراءة كتاب دومنوس أنّه استهدف الردّ على بدعة أوطيخة دون أن يسمّيه. إلاّ أنّ دومنوس ذكر أوطيخة بالاسم عندما كتب إلى الأمبراطور يشكو بدعة هذا الراهب، متّهماً إيّاه بالهرطقة. ولكن يبدو أنّ صداقة كانت تجمع بين الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٣٧٩ ـ ٣٩٥) وأوطيخة بلغت حدّ إجلال الأمبراطور لأوطيخة. فكان من الطبيعيّ إذّاك أن يرفض الزعيم البيزنطيّ شكوى دومنوس، وبلغ به الحنق أن أصدر إرادة أمبراطوريّة سنة ٤٤٨ تدخّلت بشكل سافر بشؤون الكنيسة، إذ حرّم بموجبها بعض المصنّفات الكنسيّة وعزل بعض الأساقفة من مناصبهم. وهكذا نشب الخلاف من جديد داخل الكنيسة بين حزبين سرعان ما تشكّلا من رواسب الماضي: حزب الأمبراطور وأوطيخة، وحزب دومنوس. وتمادى الأمبراطور في التدخّل بشؤون الكنيسة بشكل لم يسبق له مثيل. وعندما أثيرت مسألة أوطيخة أمام مجمع قسطنطينيّ محلّيّ سنة ٤٤٨، حاول صاحب بدعة الطبيعة الواحدة أن يتهرّب، ولكنّه اضطر في النهاية إلى حضور المجمع محاطاً برهط من موظّفي الدولة ومؤيّديه من الرهبان. ووسط هذا الاستعراض، أصرّ على بدعته، فحكم عليه المجمع بالهرطقة، وقطعه من كلّ رتبة كهنوتيّة ومن الشركة ومن رئاسة الدير الذي كان قد رُئّس عليه. إلاّ أنّ أوطيخة تمرّد على حكم المجمع، وراح يراسل رؤساء الكنائس في الشرق والغرب. مدّعياً أنّ المجمع القسطنطينيّ قد ظلمه، طالبا إنصافه. فقامت ضجّة بين تلك الكنائس، وسط انتصار الأمبراطور لأوطيخة. وإذ طلب الأمبراطور من البابا لاون الأوّل (٤٤٠ ـ ٤٦١) تلميحاً الدعوة لعقد مؤتمر مسكونيّ للنظر في قضيّة أوطيخة، بهدف إسقاط مقرّرات المجمع القسطنطينيّ، تروّت رومة بحكمة، ودرست الموضوع بدقّة، قبل أن تعقد مجمعاً محلّيّاً دقق في أعمال مجمع القسطنطينيّة، فوافق عليها، خلافاً لما كان يتمنّاه

الأمبراطور الذي أغضبه اعتذار رومة عن حضور البابا لأيّ مجمع مسكونيٍّ قد ينعقد للنظر في قضيّة أوطيخة.

لم يمنع موقف رومة الأمبراطور من الدعوة الى مجمع مسكونيّ بدأ أعماله في أفسس سنة ٤٤٩، وقد عيّن الداعي إليه الحضور وجدول الأعمال والرئيس وسائر الأمور المتعلّقة بهذا المجمع، بعد أن أمر بإلقاء القبض على بعض الأساقفة المناهضين لرأي أوطيخة. وفي أجواء يمكن وصفها بالبوليسيّة، تمكّن الأمبراطور من انتزاع قرار من المجمع، أعلن عن استقامة رأي أوطيخة وقرّر إعادته إلى مقامه ورئاسة ديره، بعد «إدخال الجند الى المجمع، والرهبان المؤيّدين لأوطيخة، والبحّارة المصريّين وسواهم من عناصر الغوغاء. وقد جرّ هؤلاء بعض معارضي أوطيخة من الأساقفة جرّاً على الأرض وداسوهم وسجنوهم ومات بعضهم بسبب كلّ هذا بعد أيّام قليلة من تعرّضهم للاعتداء، وتمكّن بعضهم الآخر من الفرار واللجوء الى رومة[1]». كذلك أصدر المجمع قرارات حطّت من مقام كلّ أسقف لا يرى رأي أوطيخة، واتّهمت عدداً منهم بالسرقات، أو بأنّه غير أهل لأن يكون كاهناً، وحرمت آخرين، واتّهمت سواهم بممارسة السحر والعرافة وبكسر الصوم وبالاشتراك في القصف مع اليهود، أو بالنسطرة. وخلع من خلع، وفرض رسم وتعيين أساقفة مكانهم من حزب أوطيخة والأمبراطور[2].

كلّ ذلك جعل هذا المجمع يوصَم باللصوصيّة من قبل بعض المؤرّخين الذين عرّفوه بـ «المجمع اللصوصيّ[3]».

ما أن وصلت أنباء هذا المجمع إلى رومة حتّى انتفض حبرها الأعظم لاون

---

١ ـ Libellus Appellationis, (Ed. Mommsen 1886) PP. 362 - 367

٢ ـ راجع: Martin P., Actes, PP. 11, 77 - 172; Theodoret, Epist. PP. 113, 116.

٣ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٢٣ ـ ٣٣٤

الكبير، الذي سارع إلى إرسال كتاب إلى الأمبراطور يعترض فيه على كلّ ما جرى مؤكّداً على وجوب انعقاد مجمع مسكونيّ جديد لإعادة النظر بكلّ ما صدر من مقرّرات. وعبّر البابا كذلك عن عدم قبوله بما حصل من خلال رسائل مماثلة بعث بها إلى الامبراطورة وإلى الإكليروس وإلى الشعب. غير أنّ الأمبراطور ثيودوسيوس قابل موقف رومة باللامبالاة، ممّا جعل البابا يعيد مراسلته بالمعنى نفسه دون جدوى[1].

لم يمضِ سنة واحدة على انعقاد ذلك المجمع حتّى لاقى الأمبراطور حتفه إذ حرن به حصانه وأوقعه عن ظهره فأرداه. وإذ لم يكن لثيودوسيوس من عقب، أدارت دفّة الأمبراطوريّة أخته بلشيرية لوقت وجيز، وتزوّجت بعد حين من مركيانوس قائد الجيش.

بزواجه المشروط من بلشيرية «بأن تبقى عذراء وأن يقتصر موضوع الزواج على الاشتراك في إدارة الأمبراطوريّة[2]» أصبح مركيانوس سيّد الأمبراطوريّة (٤٥٠ ـ ٤٥٧). كان من بين أوّل الاجراءات التي اتّخذها هذا الأمبراطور الذي اشتهر بعدله وبتأييد الجيش له بقوّة، أنّه أبعد أوطيخة عن البلاط، وأعلن على الملأ عزمه على إنهاء الظلم والفوضى. ثم سارع إلى الدعوة لعقد مجمع مسكونيّ جديد بعد أن أمر بإعادة الأساقفة الذين نفاهم المجمع السابق تعسّفاً إلى ديارهم.

عُقد هذا المجمع، وهو المسكونيّ الرابع، في خلقيدونية[3]. وقد بدأ أعماله في الثامن من تشرين الأوّل (أوكتوبر) سنة ٤٥١ بحضور عدد كبير من الأساقفة

١ـ Inter Epistolas Leonis, Epist. 4, PP. 56 - 58

٢ ـ رستم كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٣٦

٣ ـ Chalcedoine من آسية الصغرى، وهي مدينة قديمة كانت تقع على Bithynie في منطقة بيثينية البوسفور، هي اليوم كاديكوي التركية.

كان عدد الأرمن في تركية قبل الحرب العالمية الأولى حوالى مليون نسمة ونصف. ونتيجة المذابح والاضطهاد لم يبق منهم حالياً هناك إلاّ زهاء سبعين ألف نسمة من الأورثوذكس، معظمهم في القسطنطينية وليس لهم إلاّ أسقف واحد هو البطريرك القسطنطيني الخاضع لجاثليق اشمازين. وقد قُدِّر عدد الذين ذُبحوا بين ١٨٩٤ و ١٨٩٦ بحوالى مئة ألف أرمني. وقد ذُبح سنة ١٩٠٩ في أدنه وحدها بخلال أسبوعين أكثر من عشرين ألف أرمني. وقد قضى أكثر من مليون ونصف مليون نسمة من الأرمن الذين كانوا في الامبراطورية العثمانية، ذبحاً، في أفظع مجزرة بشرية عرفها التاريخ في أوائل هذا القرن[1]. وقد تشتّت الشعب الأرمني في مختلف أنحاء العالم: في الشرق الأوسط واليونان وفرنسة والهند وباكستان وأميركا الجنوبية والولايات المتحدة وأوروبة الشرقية والغربية. ولم ينجُ الأرمن، الذين كانوا يتوطّنون في الامبراطورية الروسية سابقاً والاتحاد السوفياتي لاحقاً، من المذابح. فلمّا نشبت الثورة في روسية سنة ١٩١٧ وقضت على حكم القياصرة، أعلن الأرمن استقلالهم داخل الجمهورية الأرمنية، وتسلّم زمام الحكم حزب الطاشناق. ولما انتصر الشيوعيون في روسية تحالفوا مع الاتراك، الذين احتلّوا قسماً كبيراً من أراضي الجمهورية الأرمنية الواقعة على الحدود التركية، وقضوا على سكانها الأرمن، واستولى الروس على القسم الباقي وفرضوا فيه الحكم الشيوعي نهاية ١٩٢٠، ودمجوه بالاتحاد السوفياتي، قبل أن ينفرط عقده مؤخراً ليعود الأرمن ويحاولوا استعادة استقلالهم. علماً بأن الشيوعيين كانوا قد قمعوا حرية الكنيسة، ولم يعد لجاثليق اشمازين امكانية الاتصال بسائر الأرمن قبل نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، إذ راح يبثُّ الدعاية بين الأرمن المنتشرين في أنحاء العالم كي يعودوا إلى الجمهورية الأرمنية. وحاول جاثليق اشمازين بسط نفوذه وسلطته على جميع الأرمن، خاصّة على جثلقة سيس في سورية ولبنان.

---

١ - يتيم، ص ٣٣٦؛ سركيسيان، ص ٨٩

تكثّفت الهجرة الأرمنية إلى لبنان إبّان المذابح والاضطهادات التي تعرّض لها الأرمن حيث ما وجدوا. ولم تقتصر هذه الهجرة على الأرمن الكاثوليك، بل إنَّ الأرمن الأورثوذوكس الذين قصدوا لبنان يزيد عدد أولئك أضعافاً. وقد بلغت هذه الهجرة ذروتها خلال الحرب العالمية الأولى، وخاصة منذ اشتداد المجازر في ١٩١٥. وفي ١٩٣٩ حصلت هجرة أر نية مباشرة إلى لبنان، إذ جاء حوالى العشرة آلاف أرمني واستوطنوا بلدة عنجر في البقاع. وكانت جماعات أخرى قد توزّعت على مخيمات سُمّيت بأسماء المدن الأرمنية، مثل مرعش، وأدنة، وسيس، وسواها ومن ثم توزّع الأرمن في مختلف المناطق اللبنانية، وخاصة في مُلتقى قضاء المتن ومدينة بيروت، حيث باتوا يعيشون بكثافة ناشطة. ويبلغ اليوم عدد الأرمن في لبنان حوالى ربع مليون نسمة[١].

كاثوليكوسية (بطريركية) الأرمن الأورثوذوكس المعروفة بكاثوليكوسية الأرمن لبيت كيليكية، كانت تستقرّ قبل المجازر في مدينة سيس جنوب تركية الآسيوية (كيليكية) التي جرت فيها رسامة القديس غريغوريوس المنوّر أسقفاً سنة ٢٦٧، فأصبحت ذات مكانة دينية لدى الأرمن. وتحتلّ عندهم كاثوليكوسيّة سيس بدورها مقاماً رفيعاً يرمز إلى الوحدة الأرمنية. وقد تمكّن هذا المقام عبر التاريخ من القيام بدور هام في تطوير حياة الشعب الأرمني من النواحي الدينية والثقافية والعلمية، ومن جمع شملهم من الناحية الوطنية. هذا الكرسي، نقله الأرمن المهاجرون إلى انطلياس من وسط الساحل اللبناني، وجعلوه مركزاً روحياً وقومياً، يغطّي جميع حاجات الكنيسة، ليس فقط في لبنان وسورية، بل وفي قبرص وإيران واليونان والولايات المتحدة الأميركية وكندا، حيث الابرشيات الأرمنية الأورثوذكسية التابعة لهذا الكاثوليكوس[٢]. وقد تعاقب على كاثوليكوسية الأرمن الأورثوذوكس في انطلياس خمسة بطاركة من سنة ١٩٣١، قاموا بدور طليعي في

---

١ - سركيسيان، ص ٩٥

٢ - المرجع السابق، ص ٩٨

مختلف الميادين، فأسّسوا المدارس والأكليريكيات والجمعيات الخيريّة وملاجئ الأيتام ودور العجزة والمستشفيات وسوى ذلك من الأعمال الإسكانية والتعليمية والاجتماعية على أنواعها.

أمّا الشعب الأرمني، فقد نشط في مسيرة استعادة حياته في لبنان، فتمكّن في وقت قصير من تحقيق مكانة ملحوظة وفاعلة له في المجتمع اللبناني المركّب، وبات يشارك في الحياة السياسية للدولة اللبنانية مشاركة حيويّة وعضويّة.

المــــــوارنـــــة

عندما فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣، ومن ثمّ جعل الفاتحون بطريرك القسطنطينية ممثّل المسيحيين في الأمبراطورية تجاه الأمبراطور، كان على السدّة البطريركية المارونية في جبل لبنان البطريرك يعقوب الحدثي، الذي تلقّى من رومة براءتين، بعد أن تمّ انتخابه إثر وفاة البطريرك يوحنا الجاجي سنة ١٤٤٥. وكان هذا الأخير قد انتُخب سنة ١٤٠٤، وأقام في بلدة ميفوق من أعالي بلاد جبيل. وفي العام ١٤٣٨ تلقّى دعوة من البابا أوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) لحضور المجمع الفلورنسي، فأرسل «فراجوان» رئيس رهبان مار فرنسيس في بيروت، «ليعرب للحبر الأعظم عن استعداده لقبول كل ما يحدّده المجمع من عقائد وما يسنّه من قوانين، ويكرر طلب منحه براءة التثبيت[١]».

في ١٢ شباط (فبراير) ١٤٣٩ عُرضت في ذلك المجمع مراسلات البطريرك يوحنا و«أمّة الموارنة في لبنان والقدس وقبرص. وفي ١٠ حزيران (يونيو) من السنة نفسها تقرّر تثبيت البطريرك وايلاؤه كل الإنعامات التي تمتّع بها أسلافه. وأرسل إليه البابا مع الباليوم رسالة أبان له فيها كل ما بذله من جهود حتى توصّل

---

١ ـ الخور اسقف يوسف داغر، بطاركة الموارنة، المطبعة الكاثوليكية، سلسلة نصوص ودروس رقم ٤ (بيروت ١٩٥٧) ص ٤٠

إلى إقناع ملك الروم وبطريرك القسطنطينية بالرجوع إلى حضن الكنيسة وإزالة شقاق مضى عليه ٤٥٠ سنة، حتى شاهد العالم اساقفة الشرق والغرب على أتمّ وفاق في ما يتعلّق بالقضايا المختلف عليها سابقاً، أخصّها قضية رئاسة البابا ومسألة انبثاق الروح القدس من الآب والابن وعدم انفصام عقد الزواج... فتهلّل العالم أجمع وفرحت السماء بهذا اليوم الذي صنعه الرب[١] ». غير أن « هذه البهجة » لن تدوم طويلاً، فبعد ثلاثة عشر عاماً، سوف تفضّل القسطنطينية « عمائم الشيوخ على تيجان الكرادلة[٢] ». وفي ١٤٧٢، سوف ينعقد في القسطنطينية مجمع يتقرّر فيه، تحت تأثير سياسة السلطان العثماني، العودة إلى الانفصال.

في هذه الأثناء، كان المماليك لا يزالون يسيطرون على لبنان. ولدى عودة القاصد الرسولي فراجوان إلى بيروت، قبض عليه الجند بأمر من سلطات بيروت، بحجّة أنه عميل للغرب، «وما أن درى السيد البطريرك بالأمر حتى دعا بعض الأعيان وكلّفهم السعي لإخلاء سبيل القاصد الرسولي، فشخصوا إلى المدينة وخاطبوا الحاكم في قضية الإفراج عن الموفد البابوي، فصرّح لهم بأنه لا يُطلق سراحه إلاّ لقاء كفالة شخصية يتعهدّ بالقيام بها كلّ أعضاء الوفد الحاضرين فقالوا: نحن كلّنا كفلاء. عندئذ صدر الأمر باخلاء سبيل القاصد، فشخص حالاً إلى ميفوق وسلّم البطريرك درع الرئاسة ثم توارى. وما أن عرف النائب بذلك حتى أمر باحضار الكفلاء وفرض عليهم غرامة مالية باهظة، فمن تمكّن من الدفع فاز بالنجاة ومن عجز كان نصيبه الشنق. ثم أمر الحاكم بمداهمة دير ميفوق والقبض على الرهبان، فأخذهم الجند إلى طرابلس بعد أن قتلوا بعضهم وأحرقوا البيوت والارزاق، أما البطريرك فلجأ إلى وادي قاديشا وسكن دير قنوبين[٣] ».

وقبل أن يتمّ الفتح العثماني لهذه المنطقة سنة ١٥١٦، كان المماليك قد

---

١ ـ المرجع السابق.
٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٣ ص ٣
٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، ص ٤١

حمّلوا صنوف المحن للموارنة، وقد اضطر البطريرك بطرس الحدثي (١٤٥٨ - ١٤٩٢) إلى أن يبيع آنية الكنائس وأن يتبرّع بمداخيل الكرسي البطريركي لدفع الضرائب التعجيزية المفروضة على الفقراء، وقد استغاث هذا البطريرك برومة التي بادرت إلى معونته بما خفّف كثيراً من الاثقال عن شعب لبنان.

قبل الفتح العثماني بسنة واحدة، ثبّتت رومة بطريركاً آخر على الموارنة هو شمعون الرابع الحدثي (١٤٩٢ - ١٥٢٤) الذي خلف الحدثي وقد جاء في براءة الباليوم التي أرسلها الحبر الأعظم إليه: «نشكره تعالى لأنه بعظيم حلمه شاء أن تكون الأمّة المارونية، وسط أهل الكفر وأصحاب البدع، مصونة كالوردة بين الاشواك، وذلك لتسبحة اسمه ولارتداد غير المؤمنين إلى الايمان[1]».

هذا البطريرك، هو الذي عاصر الفتح العثماني سنة ١٥١٦، وقد استثناه السلطان سليم الاول من بين بطاركة سائر الطوائف إذ لم يفرض عليه الفرمان السلطاني. وقد كان وراء ذلك عدّة أسباب سياسية، منها أن السلطان سليم اراد ان ينال تأييد تلك الاقلّيات التي طالما عانت من ظلم المماليك، وأن الامراء اللبنانيين غير التنوخيين قد ساندوا السلطان سليم في معركته الفاصلة بمرج دابق ضدّ المماليك، وقد كان من بين جنود اولئك الامراء مقاتلون موارنة. لذلك فعندما اقرّ الفاتح العثماني فخر الدين الأول وسائر الأمراء اللبنانيين على إقطاعهم، لمّا ذهب وفدهم إلى دمشق وأعلن له الولاء، فرض عليهم جزية طفيفة[2] في مقابل الضرائب الباهظة التي كان يجبيها المماليك، وأمرهم بأن يعدلوا بين الرعية. ولكنّ هذا الوضع الاستثنائي، أي حسن معاملة الحكّام العثمانيين للرعايا من غير المسلمين، لن يدوم طويلاً. فلم تكن تلك البادرة سوى مظهر دبلوماسي قضى به ظرف معين.

---

١ - المرجع السابق، ص ٤٣

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨؛ حيدر الشهابي، الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان، نشر نعوم مغبغب (القاهرة ١٩٠٠) ص ٥٦٤ - ٥٩٩؛ عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني (جونيه ١٩٣٤) ص ٩.

في هذه الحقبة الاستثنائية بلغت قوة المعنيين السياسية التي كان قد اسّسها فخر الدين الأول المتوفي سنة ١٥٤٤ «ذروتها في عهد حفيده فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥)... وكان بنو عسّاف من كسروان، يتولّون الحكم في شمالي لبنان وكانت بينهم منافسة. وكان بنو عسّاف من أصل تركماني قدموا كسروان سنة ١٣٠٦، وكانوا من جملة الامراء اللبنانيين الذين أرسلوا وفداً لتقديم الولاء إلى السلطان سليم، وقد أضيفت جبيل إلى ممتلكاتهم، التي كانت في عهد الامير منصور العسّافي (١٥٢٢ ـ ١٥٨٠) تمتدّ من ضواحي بيروت إلى عرقة شمالي طرابلس. وكان مركز الحكم العسّافي بلدة غزير. وفي أيام العسّافيين ازدهرت مناطق كسروان اقتصادياً كما لم تزدهر من قبل. فأتت جماعات من الشيعة من مناطق بعلبك وتوطّنوا في فاريا وحراجل. وجاء مسلمون سنّيون من البقاع واستوطنوا ساحل علما وفيطرون. وانتشر دروز المتن في قرى عديدة، وغادرت طرابلس جماعات من الموارنة ونزلوا في عرمون والكفور ومنطقة الفتوح[١]». وفي الحقبة نفسها أخذت العائلات المسيحية المارونية، التي هجرت القسم الجنوبي من جبل لبنان بسبب اجتياح المماليك له بين نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع، تعود إليه، وإن كان ذلك الجبل قد بقي خالياً من السكان أكثر من مئتي سنة[٢] (١٣٠٧ ـ ١٥١٦).

وقد نشأ في هذه الحقبة، أو تطوّر، نظام لبنان الامارة، وقد كان نظاماً إقطاعيّاً. ومن ضمن هذا النظام أُقطعت المناطق المارونية إلى أسر كانت تمثّل العائلات المارونية أمام الأمير. ومن تلك الأسر المشايخ آل الخازن في كسروان وآل حبيش في فتوح كسروان الذين كانت العلاقة بينهم وبين الأمراء المعنيين، ومن بعدهم الشهابيين، علاقة ممتازة[٣].

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١؛ البطريرك اسطفانون الدويهي، تاريخ الازمنة، المطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥١) ص ٢٣٨ وما بعدها.

٢ ـ مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ١ و ٢ و٣

٣ ـ راجع: طنوس الشدياق تاريخ الأعيان في جبل لبنان، ج ١ و ٢

قبل ذلك التاريخ كان أحد المقدمين الموارنة، وهو مقدم بشري عبد المنعم المتوفي سنة ١٤٩٥ «قد خرج عن دين جدوده، وأفسح في المجال لليعاقبة حتى استقدموا من القدس اسقفهم ديوسقورس واستولى على عدّة أديار في لبنان. مما دعا البطريرك شمعون الرابع الحدثي إلى: إيقاد نار الحمية في نفوس أبنائه، فنهض الاهدنيون وحملوا على الهراطقة حملة شتّتت شملهم. فغضب عبد المنعم واستنجد بأولاد الشيخ زعزوع المتاولة... فحشدوا جيشاً من رجال مقاطعة الضنية وقصدوا إهدن. حتى إذا وصلوا إلى محلة تولا انقضّ عليهم الاهدنيون وضربوهم الضربة القاضية. ولما رأى اليعاقبة ان لا قِبَل لهم بالاقامة بين الموارنة رحلوا عن لبنان مُكرهين[1]».

فقد كان في لبنان بعض أماكن يسكنها يعاقبة جاؤوا من الخارج، وأقدم هذه المواضع ثغر جونية[2]، كما كان لهم مركز في حردين[3]. وقد حدثت حروب طاحنة بين الموارنة واليعاقبة في مناطق لبنان الشمالي أدّت في النهاية إلى انقراض اليعقوبية من لبنان.

مع نهاية القرن الخامس عشر، ونهاية وجود الطائفة اليعقوبية في لبنان، ونهاية عبد المنعم مقدم بشري، كان وضع المقدمين الموارنة في الشمال قد تدهور بسبب طغيانهم وخروجهم على الدين أحياناً، وبرز الدور الفعّال للبطاركة ورجال الدين الموارنة في خدمة المجتمع الماروني، نظراً للصلة الوثيقة بين هؤلاء وعامّة الشعب[4]. وقد كان البطريرك شمعون الرابع الحدثي واضع هذا التحوّل من خلال قضائه على المقدم الخارج على الدين: عبد المنعم.

---

١ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٤٣؛ قابل: بطرس الجميل، زجليات جبرائيل ابن القلاعي، سلسلة أصول ومراجع تاريخية، دار لحد خاطر (بيروت ١٩٨٢) ص ٨٦ ـ ٨٧

٢ ـ الادريسي، فلسطين وسورية، ص ١٧ من النص العربي، نشر جيلدمايستر

٣ ـ الدويهي، تاريخ الازمنة، ص ٢١٩

٤ ـ محمد علي مكّي، لبنان ٦٣٥ ـ ١٥١٦ من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ط ٢، دار النهار (بيروت ١٩٧٩) ص ٢٧٩

خلف الحدثي البطريرك موسى العكّاري الذي انتخب في نهاية ١٥٢٤، يوم كانت المسألة الشرقية قد استعادت أهميتها وأعارها الكرسي الرسولي أهميّة خاصة. وفي عهد هذا البطريرك قصد رومة وفد من موارنة وملكيين ودروز مُبدياً الولاء لحبرها الأعظم، مما جعل هذا الأخير يعين ممثّلاً له تجاه هذه الطّوائف[1]. على أنه في هذه المرحلة كانت العلاقات قد بدأت تسوء بين الحكم العثماني والاقليات اللبنانية واكثريّتها الممثّلة بالموارنة، مما قرب بين الدروز والموارنة إلى درجة جعل الأولين يشاركون في ذلك الوفد الذي قصد رومة طالباً مساعدتها للتخلّص من الحكم العثماني. وقد كتب البطريرك العكّاري إلى الامبراطور «شارل كان» سنة ١٥٢٧، يدعوه لتحرير لبنان من أيدي العثمانيين، مُبدياً استعداده لأن يضع تحت تصرّفه خمسين ألف مقاتل ماروني مدرّبين أفضل تدريب مستعدّين لحرب الاستقلال[2]. وعندما لم يلاق هذا البطريرك أي استعداد من الغرب لحملة صليبية جديدة، كرمى لعين الموارنة، حاول طريقاً آخر لتخفيف الضّغط عن رعيته، فاختار قسّيساً مارونياً يُجيد اللغة التركية، هو الأب أنطون الحصروني، فأرسله إلى حلب لمقابلة السلطان التركي سليمان الملقّب بالقانوني، وقد أُعجب السلطان العثماني بفصاحة الراهب الماروني وقوة برهانه، فأنفذ أمراً همايونياً إلى قاضي طرابلس يقضي بعدم التعرض للبطريرك المارونيّ من قِبَل أيّ كان، وبالسهر على: «أن تبقى حقوق الطائفة المارونيّة مرعية بنوع خاص، وأن يعاقب بشدة كل من يتجاسر على مخالفة هذا الأمر[3]».

هذا البطريرك الداهية الذي أخذ على عاتقه المحافظة على الحقوق القديمة لطائفته، وعلى صيانة حرية أفرادها في أمور دينهم ودنياهم، بقي معفى من طلب الفرمان السلطاني. ولم تتوقّف اهتماماته عند هذا الحدّ، بل سعى لتحسين أوضاع

١ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٤٥
٢ ـ المرجع السابق، ص ٤٥ بالاستناد إلى: Rabbat, Documents... 2, 616
٣ ـ المرجع السابق، ص ٤٦

أبناء طائفته مُبدياً اهتماماً فريداً، في ذلك العصر، بأمور التعليم والثقافة. فقصد المدينة المقدّسة سنة ١٥٦١، حيث زار المرسلين الفرنسيسيين، حرّاس القبر المقدّس، طالباً من رئيسهم إرسال العلماء من رهبانيته لتدريس العلوم الفلسفية واللاهوتية في مدارس لبنان.

لا يمكن أن يكون من المصادفة تدفّق الأسر المارونية من شمالي لبنان إلى جباله الغربية الجنوبية في عهد ذلك البطريرك. فإنّ القرائن تدلّ على انه كان للبطريرك العكّاري اليد الطولى في التشجيع على ذلك الانتقال. وقد ورد في بعض المدونات ان العكّاري قد سعى لنقل سركيس الخازن من جاج إلى عجلتون، وأولاد الجميل من جاج إلى بكفيا، وبيت كميد إلى غزير. ونُسب إليه أنه كان وراء علاقة الصفاء والمودة التي قاربت بين الموارنة والدروز الذين عقدوا في عهده تحالفاً مكّنهم من الوقوف في وجه أهل الفساد وتجاه باشاوات الباب العالي، حتى جعلوا ولاية هؤلاء تقتصر على بعض المدن الساحلية.

حاول البطريرك مخايل الرزي، الذي خلف العكّاري إثر وفاة هذا الأخير سنة ١٥٦٧، أن يسير على خطى سلفه. وكان أهم نشاط له انه سعى إلى انشاء مدرسة للطائفة المارونية في رومة، وبدأ باعداد مجمع طائفي ماروني لن ينعقد إلاّ بعد وفاته سنة ١٥٨١. وقد خلفه شقيقه سركيس الرزي الذي نشأت في عهده المدرسة المارونية في رومة سنة ١٥٨٥ يوم كان البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) على سدة رومة. وفي عهده عُقد أول مجمع طائفي ماروني سنة ١٥٩٦ قبل وفاته بسنة واحدة، ليخلفه ابن أخيه البطريرك يوسف الرزي الذي نقل الطائفة المارونية إلى اتِّباع التقويم الغريغوري المنسوب إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، فكانت ردّة فعل الروم على اتِّباع الموارنة للتقويم الغربي بالغة المعارضة والاستنكار، إذ سارع بطريركهم إلى مراسلة حافظ مدينة دمشق، «بقوله ان الامة المارونية بلبلت جميع الطوائف الشرقية بتغييرها حساب السنين وزمن

الأعياد». فما كان من الباشا إلاّ أن أمر بإلقاء القبض على كهنة الموارنة وأعيانهم، وقد بذل البطريرك الرزي أقصى الجهوّد لفكّ أسرهم[1].

وفي آخر سني هذا البطريرك شهد جبل لبنان أزمة اقتصادية خانقة، بسبب رفع الضرائب من قبل السلطنة على أبناء الجبل انتقاماً من انتفاضة قام بها الشيخ علي جنبلاط، وهو من أتباع الأمير فخر الدين، فكان الانتقام يصل إلى جميع المناطق التي كانت تحت سلطة هذا الأخير. وقد سجّلت المدوّنات لهذا البطريرك انه: «احتمل من أتعاب الكفاح في سبيل إعادة السلم ما لا يمكن وصفه. فاعتلّت صحته وانتقل إلى جوار ربه في شهر آب أغسطس من سنة ١٦٠٨. وبقي الكرسي البطريركي شاغراً مدّة تسعة أشهر بسبب ذلك الاضطراب[2].

خلف البطريرك يوسف الرزي بطريرك إهدني هذه المرة، هو: يوحنا مخلوف المعروف بالاهدناني أو الاهدني. انتُخب سنة ١٦٠٩ واثبته البابا بولس الخامس في ١٦١٠. وقد كان هذا البطريرك الشفوق، كما وُصف، «مسموع الكلمة لدى الباب العالي، يأتمر بأمره الحكام». وقد تمكّن من استصدار أوامر العفو من الباب العالي عن محكومين قبيل اعدامهم بساعات. وقد اقتنى للكرسي البطريركي املاكاً واسعة. وفتح للطائفة مدرسة اكليريكية في حوقا، أعدت لمدرسة الطائفة في رومة طلاباً متفوقين، وقد أشرف شخصياً على اكليريكية حوقا، وكانت علاقته مع الطلاب مباشرة. وكان مخلوف أول من سام مطراناً متخرّجاً من مدرسة رومة. هذا المطران هو أسحق الشدراوي، وقد سيم على طرابلس، واشتهر ببراعته في العلوم الطبيعية والفلسفية واللاهوتية. وقد برز أسقف آخر من تلامذة رومة في هذه الحقبة هو يوحنا الحصروني، الذي ترجم بعض مؤلّفات القديس توما الأكويني إلى اللّغة العربية. ونادى بالحساب الغريغوري في حلب. وعندما استدعاه والي دمشق لمحاكمته إثر قيام القيامة عليه من قبل رؤساء الطوائف الشرقية، دافع هذا الأسقف

١ - المرجع السابق، ص ٤٩ - ٥٠

٢ - المرجع السابق، ص ٥٠؛ الدويهي تاريخ الأزمنة، ص ٢٩٨ - ٣٠٠

عن صحّة تقويم حساب السنين الحديث ببراهين أفحمت الحاضرين، وكان لها الأثر الفعّال في إدخال هذا التقويم إلى الشرق. بيدَ أن هذا الاسقف كان قصير العمر فتوفي سنة ١٦٢٨، وتبعه البطريرك مخلوف بعد خمس سنوات، وكان قد أدار شؤون البطريركية ربع قرن.

يُستفاد من هذه المستجدّات ان الطائفة المارونية كانت قد بدأت تحقّق، في الربع الاول من القرن السابع عشر، بعض التقدّم على دروب العلم والتحصيل. وقد كان لمدرسة رومة المارونية اعمّ الفضل في ذلك. وكانت هذه الحقبة زمن ازدهار نسبي بالنسبة لهذه الطائفة التي عمّرت كنائس عديدة. «وتحرر ابناؤها من شروط أهل الذمّة، فركبوا الخيل بسروج، ولفّوا شاشات بكرور، وحملوا البنادق المجوهرة». واستقبلوا الارساليات، وكان أوّلها الكبوشيين. وكان الأمير فخر الدين يرجع في أهم الأمور إلى البطريرك الماروني. وكان أكثر جنده ومستشاريه وكواخيه من المسيحيين، وخاصّة الموارنة. وفي هذه الحقبة حاول الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير توحيد الإمارة وتحصيل استقلالها، وتوسيع حدود البلاد. وقد عقد المحالفات مع أوروبة. حتى إنه طمع بالاستانة ذاتها. وقد برز في هذا الدور المطران جرجس عميره[1]، الذي أرسله البطريرك مخلوف سفيراً إلى رومة وتوسكانة للمفاوضة مع البابا ومع الغراندوق فردينان الأول أمير توسكانة، وسائر أمراء وملوك أوروبة لخلق حلف ضد تركية. وكان العلاّمة ابراهيم الحاقلي[2] صاحب مكانة خطيرة في الفاتيكان، فساعد كثيراً البطريرك والأمير على ما فيه خدمة الجبل اللبناني. وعندما حضر الأمير فخر الدين إلى أوروبة كلّف المطران جرجس عميره بوضع كتاب في الاستراتيجية الحربية يومذاك، يتناول هندسة الأبراج والحصون والقلاع.

---

١ - جرجس عميره: ولد في إهدن. تعلّم في رومة. سيصبح بطريركاً للموارنة (١٦٣٣ - ١٦٤٤) سعى في طبع كتاب القدّاس الماروني مع سركيس الرزي سنة ١٥٩٤

٢ - إبراهيم الحاقلي أو الحاقلاني (١٦٠٥؟ - ١٦٦٤): ولد في حاقل جبيل (لبنان) وتوفي في رومة. من مشاهير علماء الموارنة. تعلّم في رومة. عمل كاتباً في خدمة فخر الدين المعني الثاني. علّم اللغات السامية في رومة وبيزا وباريس. له: «مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب».

غير أنّ رياح الأقدار جرت بما لم تشتهِ سفينة فخر الدين. فكانت حرب الثلاثين سنة التي اشتدت وطأتها في أوروبة، وكان تفشّي وباء الطاعون في ايطالية مما شغل البابا والغراندوق عن الأمير والبطريرك، فاغتنمت السلطنة هذا الانشغال وجهّزت حملة قاضية على فخر الدين، الذي توقفت عنه الاعانات الغربية، فاضطر إلى الاستسلام، ونُقل مع انجاله إلى اسطنبول حيث غُدر بهم بعد وفاة البطريرك مخلوف بسنتين (١٦٣٥). وتلاشى حلُم[1].

بموت البطريرك يوحنا مخلوف سنة ١٦٣٣، وإعدام الأمير فخر الدين المعني الثاني سنة ١٦٣٥، خلف الأول بطريرك اهدني آخر هو جرجس عميره، وخلف الثاني ابن أخيه يونس: الأمير ملحم. وقد تعاون الخلفان مثلما تعاون السلفان. وقد سعى البطريرك عميره لدى الفاتيكان ليتوسّط مع فرنسة كي يقنع ملكُها حليفَه العاهل العثماني بأن يعترف بالأمير ملحم خلفاً لعمّه في الامارة، وقد تمّ ذلك بفضل وساطة البطريرك[2]. بيدَ أنّ عمر هذا البطريرك كان قصيراً فتوفي سنة ١٦٤٤، كما توفيّ الأمير سنة ١٦٥٨. وكان عمر خليفة الأوّل: البطريرك يوسف العاقوري أقصر من سلفه، فتوفّي سنة ١٦٤٦، بعد أن أشرف على عقد مجمعين مارونيين صدر عنهما قوانين كنسية هامة. ويُعزى إليه أنه كان المؤسس الروحي لطائفة السريان الكاثوليك. وقد انتقلت السدة البطريركية بعد وفاته إلى البطريرك يوحنا الصفراوي، وهو البطريرك الثاني عشر من البطاركة الذين أقاموا

---

١ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٣٠١ - ٣٠٢، ٣١٠، ٣١٢، ٣٢٥ - ٣٣٣؛ بولس قرأ لي: فخر الدين المعني الثاني (حريصا ١٩٣٧) ص ١٣ - ١٤، ٣٧ - ٣٨؛ عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني (جونيه ١٩٣٤)؛ أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الامير فخر الدين، نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، (بيروت ١٩٣٦)؛ أنيس النصولي، رسائل الامير فخر الدين (بيروت ١٩٤٦)؛ Paolo carali, Faklr Ad-din IIe, la corte di., Toscana, (Rome 1936); Colonel churchill, mount Lebanon: A ten year's residense, (London, 1853); De lamartine, voy age en orient, (Paris, 1859); George Sandys, A relalion of a Journey, (London, 1621); Michel chebli, Farkhreddine II Maan, prince du Liban (Beirut, 1946).

٢ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٥٦

في قنوبين[1]. أصله من أسرة البوّاب، وقد نُسب إلى بلدة الصفره في فتوح كسروان حيث نشأت عائلته. وفي السنة التي انتُخب فيها البطريرك الصفراوي جدّد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر عهد حماية فرنسة للموارنة عبر مرسوم جاء فيه:

«ننهي إلى سفيرنا في الشرق وإلى الذين سيخلفونه أن يُسعفوا الموارنة لدى صديقنا المعظم (السلطان) لينجزوا أعمالهم ويتصرّفوا بمقتضيات مراتبهم الروحية بتمام الحرية. ونأمل من قناصل دولتنا في كل موانئ الشرق بأن يساعدوا السيد البطريرك وكل أبنائه الموارنة. ونطلب من السادة الكبار، باشاوات ومأموري الحضرة السلطانية العلية، أن يعاونوا البطريرك ورئيس أساقفة طرابلس وجميع الاكليروس الماروني وكل أبناء الطائفة المارونية[2]».

بلغت مكانة البطريركية المارونية في هذه الحقبة أن أصبح البطريرك يعيِّن قناصلة فرنسة في لبنان. فلقد أرسل الصفراوي إلى فرنسة المطران اسحق الشدراوي ليطلب باسمه قنصلية فرنسة في مدينة بيروت للشيخ أبي نوفل الخازن فأُجيب إلى طلبه[3].

من شأن رواية ما جرى للبطريرك المنتخب جرجس حبقوق البشعلاني الذي كان من المفروض أن يخلف يوحنا الصفراوي المتوفي سنة ١٦٥٦، أن تفيدنا عن مدى الزهد الذي كان يتحلّى به رجال الدين لتلك الطائفة في ذلك الزمان. علماً بأن القداسة تُنسب إلى صاحب السيرة السابق، البطريرك الصفراوي، الذي دُوّنت عنه شهادات تُفيد بأن نوراً سماوياً كان يسطع منه وحوله عندما كان ينفرد للصلاة ساعات وساعات.

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك الصفراوي اجتمع الأساقفة والمشايخ والأعيان وانتخبوا المطران جرجس حبقوق البشعلاني بطريركاً على الكرسي

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الازمنة، ص ٣٤٦
٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٥٨
٣ ـ المرجع السابق

الماروني لانطاكية وسائر المشرق. أمّا المطران جرجس فقد خرج من المجمع واختبأ في صومعة أحد الرهبان، فخلع الشعب باب الصومعة وحملوه عنوة إلى دهليز الكنيسة، حيث قال: «دعوني استرح قليلاً وما ترغبون فيه سيكون». فتركوه ليأخذ بعض الراحة، غير أنّه تمكّن من الفرار واختفى في وادي قنوبين إلى ان تمّ انتخاب البطريرك البسبعلي[1]، وهو جرجس ابن الحاج رزق الله من قرية بسبعل من أعمال زاوية طرابلس، الذي عُرف عنه أنه أجاد جميع اللغات الشرقية وخاصة التركية، وقد كان بارعاً في علم الحقوق البيعية. وكان يخاطب حكام البلاد وأولياء الشأن في الآستانة، ويضع التقارير لاطلاع الباب العالي مباشرة على أحوال البلاد ولابلاغه شكاوى المظلومين[2].

في هذه الأثناء كان شأن الامارة قد ضعف نسبة لما كان عليه في عهد فخر الدين. وقد توفي الأمير ملحم في السنة نفسها التي تمّ فيها انتخاب البطريرك جريس البسبعلي (١٦٥٧) لينتقل الحكم إلى ولده الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيين. أما شأن البطريركية المارونية فكان يزداد خطورة، خاصة إثر انتخاب اسطفانوس الدويهي بطريركاً خلفاً للبطريرك جرجس البسبعلي سنة ١٦٧٠.

وُلد اسطفانوس الدويهي (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤) في إهدن من أعالي شمالي لبنان. تعلّم في رومة وعاد إلى بلاده يعظ ويعلم. عُيّن اسقفاً على قبرص قبل ان يُنتخب بطريركاً. له مؤلفات دينية وتاريخية أهمها: «منارة الأقداس» و «ردّ التّهم» و«تاريخ الأزمنة» و «تاريخ الطائفة المارونية». وكان قد أرسله البطريرك يوحنا الصفراوي إلى حلب حيث أقام خمس سنوات اقنع في خلالها عدداً غير قليل من روم ونساطرة ويعاقبة باتباع الايمان الكاثوليكي.

كان هذا البطريرك أول من سكن قريباً من مركز الامارة في الشوف، إذ

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الازمنة، ص ٣٥٤

٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٦٠ بالاستناد إلى: De la Roque

جعل له مقرّاً مؤقتاً في قرية مجدل معوش، لينتقل فيما بعد إلى كرسي قنوبين. وعلى الرغم من أن مطاحنات أهلية كثيرة جرت في أيامه فقد احتمل مشقّات ومظالم عديدة، واضطر في أحيان كثيرة إلى ان يلجأ إلى أماكن نائية ليجتهد في تصنيف مؤلفاته. وقد بلغ تحمّله لشظف العيش أقصى الحدود، فهو لم يأكل لحماً طيلة حياته إلاّ عند اعتلال صحّته وبناءً على إشارة طبيب.

ركّز الدويهي على إصلاح شؤون طائفته من النواحي الايمانية والتنظيمية. فطاف في كل الابرشيات واختار كهنة ذوي علم وتقوى، وتفحّص الكتب البيعية، وأصلح ما أوقعه فيها النساخ من اغلاط، وردّ القواعد إلى أصولها، وغربل مصاحف المؤرخين، ومصنّفات الآباء القديسين من شرقيين وغربيين، وزادت مؤلفاته على الثلاثين كتاباً جلّها محفوظ في مكتبة الفاتيكان.

وبفضل عناية هذا البطريرك الفذ نشأت حوالى سنة ١٦٩٤ رهبانية القديس انطونيوس المارونية، التي ازدهرت بتدريبه وتوجيهاته، فصار إثباتها من قبله أولاً ثم من قبل الحبر الأعظم.

وعندما تعرّض مسيحيو لبنان للحيف من قبل السلطات العثمانية تدخّل في سنة ١٧٠٠ مع ملك فرنسة، فكان له ما أراد بفضل تدخّل السفير الفرنسي لدى الباب العالي. وعندما طلبت السلطنة إليه أن يقدّم إلها طلباً لتثبيته من قبل الباب العالي بطريركاً عبر فرمان سلطاني، اعتصم البطريرك الدويهي بامتيازات طائفته وحماية فرنسة رافضاً الخضوع للباب العالي.

وبعد أربع وثلاثين سنة قضاها اسطفانوس الدويهي جادّاً ساعياً دون أن يذوق طعم الراحة، توفي سنة ١٧٠٤، وقد أصبح ضريحه مزاراً لمؤمنين كثيرين ذكروا أنهم نالوا بشفاعته منحاً ونعماً غزيرة[١].

---

١ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٦٠ ـ ٦٢

خلف الدويهي بطريرك آخر لم يعش سوى سنة واحدة. هذا البطريرك هو جبرائيل البلوزاني، الذي انتخب في دير مار شليطا مقبس في كسروان. وللدلالة على مكانة البطريرك الماروني في بداية القرن الثامن عشر، تفيد المراجع انه لمّا تقرّر موعد انتقاله إلى كرسيه في قنوبين، أعدّ له استقبال حافل على مستوى وطني، إذ أرسل الشيخ عيسى حمادة الشيعي، متولي مقاطعة الجبة، احد أنجاله على رأس أربعين خيّالاً لمواكبته. وأرسل باشا طرابلس الفرقة الموسيقية الرسمية مع عدد من الموظفين ليشتركوا في استقباله مع المشايخ والأعيان وجمهور الشعب.

غير أنّ مكانة هذه البطريركيّة قد تزعزعت في بداية القرن الثامن عشر اثر انتخاب يعقوب عواد بطريركاً سنة ١٧٠٥ وتثبيته من قِبل رومة سنة ١٧٠٦. فقد حصلت ضجّة داخل الكنيسة اثر رواج إشاعات حول سلوكه، اعتقد صحتها المطران جرجس يمين الإهدني، الذي استدعى الأساقفة إلى اجتماع طلبوا بخلاله محاكمة البطريرك الذي لم يتأخر عن الحضور، وقد صدر الحكم بعزله، وأُقيم مكانه السيد يوسف مبارك الريفوني. وعندما وصل الخبر إلى رومة سارع البابا كليمانص الحادي عشر (١٧٠٠ ـ ١٧٢١) إلى توجيه حارس القبر المقدس إلى جبل لبنان ليحقّق في الأمر. وبعد أن نظر المجمع المقدّس في تقرير الموفد البابوي سنة ١٧١١، تأكدت له براءة البطريرك، فأمر بإرجاعه إلى منصبه وبمعاقبة المطران يمين بفرض الأقامة الجبرية عليه في رومة وبمنعه من الرجوع إلى لبنان، وعاد البطريرك إلى كرسيه بعد أن رضخ جميع خصومه لحكم رومة، وبقي يدير شؤون البطريركية بعد ذلك مدّة اثنتين وعشرين سنة انتهت بوفاته سنة ١٧٣٣، ليخلفه البطريرك يوسف ضرغام الخازن، الذي عُقد في عهده المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦ في دير اللويزه من أعمال كسروان. وبخلال هذا المجمع فضّت الخلافات على يد البابا بينيديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠ ـ ١٧٥٨). وكان أبرز من وضع مقررات ذلك المجمع الشهير، أحد عظماء علماء الموارنة في الشؤون الشرقية، وهو يوسف سمعاني السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) المولود في طرابلس والمتوفى في رومة

والمعروف بالسمعاني الكبير لتمييزه عن يوسف لويس السمعاني (١٧١٠ ـ ١٧٨٢)، المولود في حصرون لبنان والمتوفى هو الآخر في رومة، وهو ابن اخت السمعاني الكبير الذي ألفّ مجموعة نصوص طقسية. ولتمييزه أيضاً عن اسطفان عوّاد السمعاني (١٧١١ ـ ١٧٨٢)، أمين المكتبة الفاتيكانية. وعن أنطون السمعاني (١٧٧٥ ـ ١٨١٨) الذي اشتغل في مكتبة الفاتيكان. وأيضاً عن سمعان السمعاني (١٧٥٢ ـ ١٨٢١) الذي ولد في حصرون وتوفي في بادوا حيث علّم اللغات الشرقية.

أما السمعاني الكبير فقد تعلّم في رومة، وعمل أحد أمناء المكتبة الفاتيكانية قبل أن يعيّن موفداً باباوياً للمجمع اللبناني سنة ١٧٣٦. له: «المكتبة الشرقية الكليمانتينة الفاتيكانية» باللاتينية، وصف فيها المخطوطات السريانية والعربية والفارسية والتركية والعبرية والسامرية والأرمنية والحبشية واليونانية والمصرية والاندلسية والمالابارية التي تحويها هذه المكتبة وجغرافية وتاريخ الشرق.

رغم أن المجمع اللبناني قد حلّ جميع الشؤون العالقة داخل الطائفة المارونية، فإنّ عملية انتخاب بطريرك ليخلف البطريرك يوسف الخازن المتوفى سنة ١٧٤٢، قد أدّت إلى حصول انقسامات. ذلك أن المقام البطريركي، كان قد أضحى رمز القيادة الدينية والسياسية على السواء عند الطائفة المارونية، ولم يكن هناك مركز آخر مماثل أو قريب منه مكانة. فأضحى التنافس على هذا المركز تنافساً سياسياً في أحد وجوهه، لعبت فيه العائلية والاقليمية دوراً ملموساً. واذا لم يكن ذلك التنافس بين المرشّحين على البطريركية انفسهم، فقد كان بين القريبين منهم بصلة الدم أو بصلة الاقليمية. وكانت بوادر هذا الصراع قد بدأت في عهد البطريرك اسطفانوس الدويهي. ويمكن القول إن الطائفة المارونية كانت دوماً، ولا تزال، تتّحد عندما تتعرّض للخطر من الخارج، وتتفرّغ للتصارع على القيادة والزعامة عندما يتراءى لها، ولو خطأ، أن لا خطر عليها من الخارج. تجدر الاشارة إلى أن أعيان الطائفة المارونية وأسرها الاقطاعية كانوا يشتركون في انتخاب البطريرك.

وسط هذه المعطيات، عندما انتُخب الأسقف سمعان عوّاد بطريركاً ليخلف البطريرك يوسف ضرغام الخازن اثر وفاة هذا الأخير ربيع ١٧٤٢، وإذ رفض عوّاد قبول هذا المقام السامي زهداً وتعففاً، صار انتخاب الأسقف الياس محاسب بطريركاً. وكان أحد أبناء الأسرة الخازنية الاقطاعية المارونية، المطران طوبيا، غائباً، فادّعى أنه لم يبلّغ الدعوة إلى مجمع الانتخاب واعترض على قانونيّته، واتّفق مع اثنين من المطارنة على سيامة اسقفين جديدين انضما إلى مريديه، ضامناً بذلك الأكثرية اللازمة لانتخابه، وعقد مريدوه مجمعاً أقاموه فيه بطريركاً. وكانت النتيجة أن أصبح للطائفة المارونية، لأول مرة في تاريخها، بطريركان. ثم رفع كل من المنتخَبَين أمره إلى رومة التي سارعت إلى الحكم ببطلان الانتخابين، وأقدم البابا بينيديكتوس الرابع عشر، أيضاً لأول مرّة في تاريخ الطائفة، وتفادياً للخلاف والبلبلة، على تعيين الاسقف سمعان عوّاد بطريركاً، وهو الذي كان قد رفض قبول هذا المقام عند انتخابه. وقد رأت رومة في ذلك أنها لم تقدم على تعيين بطريرك للطائفة المارونية إنما هي فرضت على البطريرك المنتخب شرعياً القبول بمنصبه.

أقام هذا البطريرك في ناحية الشوف لتسهُل عليه المراجعات مع أمير لبنان. وقد اختار محلاً لسكنه في إقليم جزّين، قرب صيدا، حيث بنى ديراً للرهبان اللبنانيين يُعرف بدير مشموشه. غير أن البطريرك طوبيا الخازن، الذي خلف عواد بعد وفاته سنة ١٧٥٦، وهو أحد البطريركين المنتخبين واللذين أبطلت رومة انتخابهما، قد نقل الكرسي إلى مسقط رأسه عجلتون. وترأس هذا البطريرك السدة مدّة عشر سنوات، ليخلفه سنة ١٧٦٦ البطريرك يوسف اسطفان[١].

يبدو واضحاً، من خلال مراجعة سيرة هذا البطريرك، ان الصراعات السياسة كانت لا تزال دارجة على السدة البطريركية، إذ كانت هذه الاخيرة لا تزال تشكّل المركز القيادي الروحي والزمني الأوحد لدى الطائفة المارونية. كان هذا

---

١ ـ المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٧٢

البطريرك صلب العود لا يهادن في الحق ولا يداور ولا يعرف مرونة أو ليناً[1]، ومن أبرز انجازاته أنه، بناء على الحاح الشيخ غندور بن سعد الخوري[2]، قد حوّل دير عين ورقة، الذي كان موقوفاً لأسرة البطريرك، إلى مدرسة اكليريكية عامة، فتحت عبرها الطائفة المارونية تاريخ التربية في لبنان. إذ مثّلت عين ورقة، أمّ المعاهد في لبنان، دوراً خطيراً في الحقول الدينية والوطنية والثقافية، فخرّجت للطائفة المارونية خمسة بطاركة وثلاثين مطراناً وعدداً كبيراً من الكهنة، إضافة إلى معظم مؤسسي المعاهد اللاحقة. وقد تخرّج منها عدد كبير من رجال العلم والسياسة، كالمعلمين من آل البستاني وشدياق ودحداح وغيرهم ممن ذاعت أسماؤهم في الشرق[3].

ويبدو ان الطموحين من خصوم هذا البطريرك لم ييأسوا من إيجاد مسألة يحاربونه من خلالها، فأوجدوا مشكلة بدأت صغيرة ولكنّها ما لبثت أن تعاظمت فعُرفت بقضية هندية. وهندية هي راهبة مارونية اسم مولدها حنة عجمي (١٧٢٠ ـ ١٧٩٨). وُلدت في حلب وجاءت إلى لبنان سنة ١٧٥١ حيث أنشأت جمعيّة للراهبات، وزعمت أنها تتمتّع بمواهب روحيّة فائقة، فأنشأت الأديار، ومنها دير بكركي الذي سيتحوّل فيما بعد مركزاً رئيسيّاً للبطريركيّة المارونيّة. وقد أضحى ذلك الدير في عهد هندية مركزاً ممتازاً للنقل والترجمة والتأليف.

ناصر هندية البعض وقاومها آخرون. وكان على رأس من دعموا تلك الراهبة، البطريرك سمعان عوّاد، وهو البطريرك الأسبق قبل البطريرك يوسف

١ ـ انطوان عقيقي، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ١٩٢٨)

٢ ـ الشيخ غندور السعد (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠): من أعيان الموارنة اللبنانيين في القرن التاسع عشر. ولد في رشميا (قضاء عاليه ـ لبنان) خلف والده كمدير للأمير يوسف الشهابي. عُيّن قنصلاً لفرنسة في بيروت سنة ١٧٨٧ بناء على طلب من البطريرك الماروني يوسف اسطفان إلى الملك لويس السادس عشر. لحق بالأمير يوسف إلى عكة حيث قتل بأمر الجزّار.

٣ ـ لمزيد من المعلومات حول معهد عين ورقة راجع: مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٣، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٢؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية؛ الأب مخايل غبريل الشبابي، كشف النقاب عن بقعة بيت شباب؛ عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطوف في تاريخ بين المعلوف، المطبعة العثمانية (بعبدا ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨)؛ لحد خاطر، آل السعد في تاريخ لبنان، مطبعة الرهبانية المارونية اللبنانية (بيروت ١٩٧٠)

اسطفان. وقد رفع الخصوم الشكاوى ضد هندية إلى رومة التي وجّهت سنة ١٧٥٣ أحد مبعوثيها ليحقق في أمر الراهبة، فكان تقريره مبرئاً لها من أي اتّهام.

في عهد بطريركية طوبيا الخازن، الذي استمر عشر سنوات، نامت مسألة هندية، كون البطريرك الخازني قد أحسن علاقة الكرسي البطريركي مع جميع الأطراف، فلم تحرَّك ضد الأمّ هندية ايّة مسألة. وبوصول يوسف اسطفان إلى السدة البطريركية، واختلافه مع فريق من الأساقفة جرّاء قيامه بالاصلاحات في أبرشيّاتهم، ألّف هؤلاء حزباً ضدّه ضمّ فريقاً من الأعيان، وانضمّ جميع هؤلاء إلى خصوم هندية السابقين، وراحوا يناصبون البطريرك العداء، مما دفعه إلى انزال التأديبات الكنسية بهم دون هوادة. فاحتدم النزاع حتى أجمع خصوم البطريرك على تنظيم عرائض ورفعها إلى الكرسي الرسولي وإلى الأمير يوسف شهاب، مضمِّنين محتواها شتّى الاتِّهامات ضد البطريرك وهندية. فما كان من رومة إلاّ أن أرسلت قاصداً جديداً إلى لبنان أواخر سنة ١٧٧٨ لاعادة النظر في موضوع الراهبة هندية. فكانت توصية القاصد الرسولي هذه المرة تقضي بحلّ رهبنة هندية للشك في صحة ايمانها بموضوع اللاهوت والناسوت، وصدر الأمر الڤاتيكاني بنفي تلك الراهبة التي ماتت في العذاب والشقاء. وكان قد شارك في مخاصمة البطريرك الأمير يوسف شهاب الذي كان يطمع بثروة الدير[1]، إلاّ أن البطريرك اسطفان قد أكمل ولايته حتى توفاه الله في نيسان (إپريل) ١٧٩٣ فخلفه البطريرك مخايل فاضل الذي لم يعش سوى سنة ونيف. جاء بعده البطريرك فيليپوس الجميّل الذي عاش عشرة أشهر فقط.

في هذا الوقت كان حكم الامارة قد انتقل من المعنيين، بوفاة آخر أمير منهم سنة ١٦٩٧، وهو الأمير ملحم، إلى الامراء الشهابيين الذين تسنّموا كرسي الامارة

---

١ - لمزيد من المعلومات حول الراهبة هندية راجع: مفرّج: الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٣، ص ٤٤ - ٤٦؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية؛ خاطر، آل السعد في تاريخ لبنان؛ داغر، بطاركة الموارنة.

إثر اجتماع قومي عام عقده وجهاء لبنان سنة ١٦٩٧ في السمقانية بالقرب من بعقلين في منطقة الشوف، حيث أجمعوا على انتخاب الأمير بشير الشهابي من راشيا حاكماً على لبنان. وكان هذا الأمير ابناً لأخت الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيين. ولما أُرسل قرار اجتماع السمقانية إلى اسطنبول، أصرّ الباب العالي على أن حيدر الشهابي من حاصبيا ابن بنت الأمير أحمد المعني، آخر المعنيين، هو أحقّ بالولاية من بشير الشهابي إبن أخت أُحمد. و إذ كان حيدر ابن اثنتي عشرة سنة، أعلن الباب العالي أن بشيراً يتولى الحكم بالنيابة عن حيدر إلى أن يبلغ هذا الأخير أشده. وقد احتفظ الأمير بشير الأول بولايته حتى ١٧٠٧ لما توفيّ مسموماً. وقد اتُّهم من كانوا يتولون أمر وصيه بدس السمّ له. وقد حكم حيدر حتى سنة ١٧٣٢، وقضى على الحزب اليمني المناوئ للامارة في معركة عين دارة سنة ١٧٢١، وأعاد التقسيم الإقطاعي لصالح القيسيّين. وكان مشايخ الاقطاع الماروني من الحزب الأخير، بحيث أنّ التوافق الذي نشأ بين الإمارة والبطريركية في عهد المعنيين، قد استمرّ مبدئياً في بداية عهد الشهابيين. وسوف يستمر الشهابيون في الحكم قرابة قرن ونصف (١٦٩٧ ـ ١٨٤١)، وقد عملوا خلال هذه المدّة من أجل المحافظة على نوع من التوازن السياسي بين الموارنة والدروز بتحريض حزب على حزب، أو إثارة شيخ ضد شيخ آخر[١].

كان قد خلف ثاني الأمراء الشهابيين الأمير حيدر موسى شهاب (أمير ١٧٠٦ ـ ١٧٣٢) الأمير الثالث ولده ملحم شهاب (أمير ١٧٣٢ ـ ١٧٥٣) الذي تمكّن من اسقاط ثلثي الضرائب التي كان يتقاضاها السلطان من لبنان. وأقرّ سيادته على البقاع واتّخذ بيروت مرفأ لامارته. وفي سنة ١٧٥٤ تنازل الأمير ملحم عن الامارة وانقطع إلى حياة تديّن وزهد وأقام في بيروت. علماً بأن الشهابيين لم يكونوا يوماً دروزاً بل كانوا من المسلمين السنة. وقد انعكف الأمير

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢

ملحم بعد تزهّده على درس الفقه، ومعاشرة علماء الاسلام. أما ولداه فقد اعتنقا المسيحية، ثم تبعهما اقاربهما من الأمراء الدروز اللمعيين. وأما أخواه: الأمير منصور، الذي كان يميل إلى الحزب الجنبلاطي، والأمير أحمد الذي كان يميل إلى الحزب اليزبكي، فقد اختصما وتحاربا في سبيل الحصول على الامارة.

في خضمّ الصراع على السلطة، وبعد الحروب الحزبية القيسية اليمنية، استمـرّت الاضطرابات الاهلية في الجبل اللبناني إلى أن نودي بالأمير يوسف شهاب، ابن الأمير ملحم، أميراً على لبنان في مؤتمر الباروك سنة ١٧٧٠ بعد تنازل عمّه الأمير منصور. وقد أقر يوسف الأمن في جرود جبيل والشمال بعد أن شهدت هذه المناطق نزاعات بين الموارنة والشيعة. وكان الوصي على الأمير يوسف مارونياً من رشميا اسمه سعد الخوري[1]. هو والد غندور سعد الخوري الذي سبقت الاشارة إلى ان البطريرك يوسف اسطفان عمل على تعيينه من قبل فرنسة قنصلاً لها في لبنان. ويمكن اعتبار الأمير يوسف شهاب (١٧٧٠ ـ ١٧٨٨) أول أمير مسيحي يتمتّع بالسلطة التّامة من السلطنة العثمانية[2]. ومع نهاية القرن الثامن عشر إنتقلت الامارة الشهابية إلى الأمير بشير الثاني الكبير، بعد أن أمر والي عكة، أحمد باشا الجزّار[3] سنة ١٧٨٨ وجهاء لبنان بأن ينتخبوا بشيراً، وهو أحد أقارب يوسف الذي قتله الجزار في سجن عكة، وكان بشير في الحادية والعشرين من عمره. ولن يطول الزمن حتى يدرك الجزار «ان الأمير بشير لم يكن بالحاكم

---

١ ـ راجع: حيدر شهاب، الغرر الحسان، ص ٧٨٣

٢ ـ Churchill. Vol. III, P. 109

٣ ـ أحمد باشا الجزار (بين ١٧٢٠ ـ ١٧٣٥ ـ ١٨٠٤): ولد في البوسنة مسيحياً. في السادسة عشرة من عمره اعتدى على امرأة أخيه وهرب إلى اسطنبول وباع نفسه الى تاجر رقيق يهودي. استقرّ مباعاً كعبد إلى علي بك في القاهرة، الذي أقامه جلاداً. بعد ان اعتقه سيده انتقل إلى دمشق حيث التحق بالجيش السوري. جزاءً لخدماته في الجيش أعطي ولاية صيدا. وسرعان ما استولى على بيروت ثم جرّد لبنان من أقسامه الداخلية فأحكم قبضته على الجبل. لقّب بالجزار بعد المجزرة التي أوقعها بالبدو في مصر فذهب ضحيتها نحو سبعين ألفاً منهم. حصّن عكة وقاوم فيها حصار بونابرت بمساعدة الاسطول الانكليزي سنة ١٧٩٩.

الذي يتلقّى التعليمات، ويدرك المشايخ والمقاطعجية والوجهاء ان سلطتهم ستزول عندما يتسلّم أميرهم الجديد سلطاته كحاكم على لبنان[1] ». وإذ كان بطاركة الطائفة المارونية جهة من الجهات التي كانت تفرض، بشكل أو بآخر، بعض المواقف على الأمير، فبعد استلام بشير الثاني الحكم لن يكون للبطريركية المارونية من سلطة، بعد بداية القرن التاسع عشر، كما كان لها من قبل.

صادفت نهاية القرن الثامن عشر عملية زحف القائد الفرنسي نابوليون بونابرت على المنطقة اوائل سنة ١٧٩٩. وقد وجّه نابوليون إلى الأمير بشير منشوراً شهيراً قال فيه: «قد افتتحت مصر وقطعت التيه ودخلت سورية وهزمت جيش الجزار وحصرته في عكّة فأطلب أن توافوني لنسحق العدو المشترك» ولمّا كان الأمير مدركاً قوة عكة الدفاعية التزم الحياد، ناوياً الانضمام إلى الجيش الفرنسي إذا ما سقطت قلعتها.

في هذا الوقت كان قد انتُخب الاسقف يوسف التيان بطريركاً على الطائفة المارونية سنة ١٧٩٦. فأوعز إلى ابنائه بأن يتطوّعوا في الجيش الفرنسي، وإلى الشيخ يوسف حمزه حبيش الماروني بأن يقود المتطوّعين إلى ساحات القتال. وأمر بارسال المؤن والذخائر إلى الجيش الفرنسي مع وفد من أعيان البلاد. ولكن حملة نابوليون قد فشلت أمام هجوم الجزار في ربيع ١٧٩٩. وبذلك قوي مركز الأمير وضعف موقع البطريرك.

هنا بدأ الصراع واضحاً بين الأمير الطامح إلى الاستفراد بالحكم، والبطريرك الماروني الذي أراد أن يحافظ على موقع كرسيه. وإثر خلافات مبدئية، أقدم الأمير على رفع قيمة الضرائب ستة أضعاف، فعارضه البطريرك دون جدوى إلى أن هدّده بالحرم إن لم يتراجع عن قراره. فما كان من الأمير إلاّ أن استدعى القاصد الرسولي إلى قصره في بيت الدين ونقل إليه أنه من المستحيل عليه التفاهم مع هذا

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٠٠

البطريرك، وانه لم يعد بأمكانه الصبر. فنقل السفير تهديد الأمير إلى البطريرك في دير مار شليّطا مقبس في كسروان. وكان ردّ البطريرك أنه بذل كل ما بوسعه لأجل الاتفاق مع هذا الأمير الذي أناء الشعب تحت وطأة الضرائب والفتن، فكانت نتائج سياسته حروباً ومداهمات، خصّ منها بالذكر الثورة المعروفة بـ «عامية لحفد» التي ذهب ضحيتها أبرياء. وتدخّل في الشؤون الروحية فأحدث تشويشاً في إدارة الكنيسة. وأنهى البطريرك كلامه إلى القاصد الرسولي بتسليمه نص استقالة كان قد أعدّها لتنقل إلى الحبر الأعظم. وقد أصرّ هذا البطريرك على استقالته رغم مبادرة الأساقفة الموارنة إلى مطالبة الأب الأقدس بعدم قبولها. وعندما أدركت رومة أن البطريرك التيان قد أراد من خلال تنحّيه عن الكرسي البطريركي خير البلاد، ورد جواب من المجمع المقدّس يثني على فضيلة هذا البطريرك وتواضعه وتنازله، وسرعان ما دعا القاصد الرسولي الاساقفة إلى انتخاب بطريرك في دير مار يوسف عينطورة كسروان فانتخبوا المطران الحلو في ٨ حزيران (يونيو) ١٨٠٩.

لقد سجّلت الامارة عبر هذا الحدث انتصاراً على البطريركية. ونجد البطريرك الذي خلف البطريرك المستقيل، ينصرف إلى إعادة ترميم دير قنوبين البعيد عن مركز الامارة. وفي عهده عُقد مجمع اللويزة سنة ١٧٣٦ تحت إشراف القاصد الرسولي، وقد قرّر هذا المجمع فصل الرهبان عن الراهبات في الأديار المختلطة، وتعيين كرسي ثابت لكل مطران ضمن أبرشيته. فانتقل بذلك اهتمام الكنيسة المارونية إلى الشأن الرعوي، وبقي البطريرك ينظر في الاحوال الشخصية لأبناء طائفته. إلاّ أن البطريرك الذي خلف الحلو بعد وفاته سنة ١٨٢٣، وهو البطريرك يوسف حبيش، قد حاول استعادة مكانة البطريركية المارونية، فانتهز مناسبة تحالف الأمير بشير مع المصريين ضد العثمانيين، وغضب الأستانة عليه، ونقمة اللبنانيين على الحكم المصري الذي جاء إلى لبنان نتيجة تحالفه مع الأمير بشير، ودعا إلى اجتماع صار عقده في انطلياس بحضور عدد من الاكليروس والمشايخ

والأعيان من دروز ونصارى، يتقدّمهم الأمير حيدر اللمعي، صديق البطريرك. وفي هذا الاجتماع الذي عُرف بعامِّيَّة إنطلياس، تعاهد الدروز والنصارى على طرد المصريين وإسقاط الأمير بشير. وقد انتهت ثورتهم بتحقيق أهدافهم. ونُفي الأمير بشير إلى مالطة في ١٠ تشرين الأول (أوكتوبر) من سنة ١٨٤٠. وكانت ردّة فعل الباب العالي على موقف البطريرك «تقديراً»، فأهدى السلطان العثماني البطريرك حبيش الوسام العثماني المرصّع. واستجاب السلطان لطلب البطريرك تعيين الياس الحلبي وكيلاً عنه في الاستانة، ليكون همزة الوصل مع الباب العالي مباشرة دون المرور بوزارة الخارجية. ثم طلب تخفيض الضرائب عن لبنان فأُسقطت إلى ربع ما كان يُدفع في أيام المصريين.

غير ان ما حققه البطريرك حبيش من تعزيز لكرسيه ولطائفته بالتالي، لن يذهب من دون ثمن غال. فقد عينّت الدولة العثمانية الأمير بشير قاسم ملحم عساف الشهابي المعروف ببشير ابو طحين خلفاً لبشير الثاني. ولا يدري أحد ما الذي حصل بعد هذا التعيين لينقضّ دروز الشوف على موارنة دير القمر وجزّين وباقي القرى المارونية بمساعدة المتسلّم التركي. ثم هاجم المدينة المسيحية البقاعية: زحله، ستة آلاف مقاتل درزي سلّحهم والي الشام، ولكنّ القوى المارونية التي جمعها البطريرك قد تمكّنت، مع الزحليين، من صد الهجوم وإيقاف المذبحة عند حدّها.

ان ما جرى في جبل لبنان قبل نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يكن سوى محاولة فاشلة شبيهة بعملية إفناء المسيحيين وتهجيرهم التي ستجري فيما بعد، بعد حوالى أربعين سنة، في مناطق عراقية وتركية. ومثلما استعمل العثمانيون الدروز هنا استعملوا الأكراد هناك. ولكن البطريرك الماروني سارع إلى الصراخ، فاحتجّ لدى الباب العالي كما احتجّ لدى الدول الغربية. فرأى الباب العالي الفرصة مناسبة لضم لبنان إلى الولايات العثمانية. فأوفد إلى بيروت مصطفى باشا نوري الذي جمع أعيان البلاد وطلب إليهم أن يوقِّعوا على عريضة يلتمسون فيها

من الباب العالي تعيين حاكم عثماني على لبنان، سرعان ما أوعز البطريرك إلى أمراء الطائفة ومشايخها بالامتناع عن توقيعها، فامتنعوا. على أنّ اسطنبول لم تبال بهذه الممانعة، وعيّنت سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمساوي حاكماً على لبنان. وقد كان هذا مسيحياً فأسلم وتسلّم فرقة من الجيش العثماني لمحاربة المصريين. فأخذ هذا الحاكم يحاول استرضاء البطريرك، فعيّن أبا سمرا غانم[1] قائداً للجيش، ويوسف الشنتيري مساعداً له، والشيخ فرنسيس الخازن حاكماً على كسروان. وكان هؤلاء الثلاثة من الموارنة الأشدّاء الذين يناصرون البطريرك وضيّق الحاكم العثماني على الدروز الذين نقموا عليه وحاولوا الاتفاق مع الموارنة فلم يرضَ البطريرك بذلك.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أحدث العثمانيون فتنة بين المشايخ الدحادحة الموارنة وأندادهم المشايخ الحبيشيين الذين قُتل ثلاثة منهم. وكالعادة تحجج الوالي العثماني بهذه الفتنة ليرسل فرقتين عسكريتين إلى القرى المارونية في شمالي لبنان حيث أُحرقت الكنائس وعبثت بالقرى. وبدت ملامح ثورة مارونية عارمة اضطر على أثرها الوالي التركي إلى زيارة البطريرك، حيث أكثر له من الوعود ليقبل به حاكماً على لبنان. فأجابه:

«أنت من الأشخاص الأكفاء لتولي الحكم، إنما عيبك الوحيد هو أنك أجنبي ونحن لا نقبل أجنبياً[2]».

إثر هذا الاجتماع الذي لم يحقّق منه مصطفى باشا أهدافه، إذ لم يتمكن من إقناع البطريرك بقبول حاكم عثماني، لجأ إلى تزوير أختام بعض الأعيان وإلى

---

١ ـ ابو سمرا غانم (نحو ١٨٠٢ ـ ١٨٩٥): ولد في بكاسين (لبنان الجنوبي) وتوفي فيها. بطل لبناني. انخرط في خدمة الامير بشير الثاني ١٨٢٥. اشترك في الثورة على ابراهيم باشا ١٨٤٠. وثورة جبل الاكراد ١٨٤٧. قاد جزءاً من المقاومة الزحلية سنة ١٨٤٠. عيّن شيخاً على شمالي لبنان ثم تقلّب في المناصب الإدارية والعسكرية.

٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٨٨

اغتصاب تواقيع قسم من المسيحيين في الجنوب، ونظّم عريضة تطالب بعمر باشا حاكماً على لبنان. غير أن البطريرك أوفد إلى اسطنبول مبعوثاً من قبله لينقل إلى سفراء الدول مطالبته بايقاف المحاولة العثمانية للقضاء على الحكم الذاتي في جبل لبنان، ورغبته بإعادة الأمير بشير الثاني إلى حكم لبنان لأنه وحده القادر على ضبط أموره. وكان هذا الأمير، قد اقتنع بمشورة البطريرك، بعد أن زال النفور من بينهما، وانتقل إلى اسطنبول مع أسرته ساعياً لاسترضاء الباب العالي.

«نجح الموفد البطريركي في حمل سفراء الدول على تأييد رغبة البطريرك. وقد جابه الصدر الأعظم هؤلاء السفراء بالعريضة المزعومة التي يطالب فيها اللبنانيون بحاكم عثماني، فأبانوا له أن تلك العريضة مزوّرة. فاعترض السلطان على إعادة الأمير بشير إلى الحكم بحجة انه خان الدولة وحارب إلى جانب المصريين، وبأن الدروز لا يقبلون حاكماً نصرانياً. وقد رأى السفير البريطاني الفرصة ملائمة لعرض اقتراحه بشطر لبنان إلى قائمقاميتين، يتولّى أمير درزي القائمقامية الجنوبية الآهلة بأكثرية درزية، ويحكم الشطر الآخر، حيث الأكثرية المسيحية، أمير ماروني. وسرعان ما أيّد سفير النمسة هذا الاقتراح، وجرّ وراءه باقي السفراء ما عدا سفير فرنسة الذي قبله بصورة مؤقتة على سبيل التجربة. ورأى الباب العالي أن من شأن هذا التقسيم أن يزيد شقّة الخلاف ويفسح في المجال للقضاء نهائياً على استقلال لبنان فسرّ به، وعزل مصطفى باشا وعمر باشا فوراً وأرسل يسأل البطريرك الماروني عمّن يريده حاكماً على القائمقامية المسيحية. وإذ لم يجد البطريرك مناصاً من القبول بهذا الحلّ، اختار الأمير حيدر اللمعي لهذا المنصب، وهو يتحدّر من أسرة درزية كانت قد تنصرّت منذ عهد قريب، كان قد تولّى اقطاع جدوده في منطقة المتن من جبل لبنان. وقد بقي هذا الأمير من سنة ١٨٤١ إلى يوم وفاته في ١١ أيار (مايو) من سنة ١٨٥٤ يدير شؤون القائمقامية المسيحية، مع رجال أكفّاء بينهم كهنة كانوا يتولّون القضاء. وكان يحكم مع مجلس مؤلّف من اثني عشر عضواً، وكانت بكفيا عاصمة حكمه.

وكان حجم القائمقامية المسيحية، الذي يمكن تسميتها بالإمارة المارونية، يشكّل ثلثي لبنان آنذاك. وإذ أدرك الباب العالي أنّ من شأن هذه المساحة أن تزيد في مكانة تلك الإمارة، سلخ عنها مقاطعات جبيل والبترون والكوره والجبة، وضمّها إلى ولاية طرابلس، وعيّن لها حاكماً عثمانياً، وفرض عليها جزية إضافية. فسارع البطريرك من جديد إلى إرسال مندوبه إلى باريس ليقدّم لحكومتها تقريراً يبيّن الاجحاف اللاحق بالطائفة المارونية جراء هذا التدبير، لأن لبنان الشمالي هو مهد المارونية وقلبها ومركز بطريركها. تلقّت الحكومة الفرنسية هذا التقرير بمزيد من الاهتمام، وأوعزت إلى سفيرها في الاستانة فاحتجّ على ذلك الاقتطاع الجائر، واقتنع الباب العالي بإرجاع المقاطعات المسلوخة، فبقي موضوع القرى المارونية الواقعة في حكم القائمقام الدرزي، وقد اطلع البطريرك سفراء الدول على ما في وضع الموارنة تحت رحمة خصومهم من خطر، فألحّوا على الباب العالي حتى رضي بتعيين وكيل ماروني في كل من تلك القرى، يرجع إليه بنو ملّته في جميع مشاكلهم، وهو يتعاطى حلّها مع القائمقام[1] ». وقد توفي هذا البطريرك القدير مع بداية أحداث ١٨٤٥ التي سوف تقضي على نظام القائمقاميتين وعلى كل من القائمقاميتين المسيحية والدرزية، وستمهّد لأحداث أكثر منها خطورة، هي أحداث ١٨٦٠ التي ستؤدي إلى نشوء المتصرفية.

عندما صار انتخاب المطران يوسف الخازن بطريركاً على الطائفة المارونية في ١٨ آب (أغسطس) سنة ١٨٤٥ ليخلف البطريرك يوسف حبيش، كانت «الغيوم المكفهرّة المتلبّدة في الأفق السياسي تنذر بشر مستطير. فبعد أن أحرق الموارنة أربع عشرة قرية درزية زحفوا على المختارة مقرّ الجنبلاطيين[2] حيث كان بانتظارهم

---

١ - المرجع السابق، ص ٨٨ - ٩٠؛ راجع: سجل بكركي III، ص ٤٧٧ وما يليها؛ الشدياق، تاريخ الاعيان، ج ١، ص ٩٩ وما يليها

٢ - من أسر لبنان الدرزية. تنتسب إلى جان بولاد الكردي. استقلت بحكم كلس قرب حلب في بداية القرن السابع عشر. هاجرت إلى لبنان ١٦٣٠ بدعوة من فخر الدين ٢ المعني، فأصبح مشايخها من زعماء الإقطاع في لبنان.

فيلق تركي أصلاهم ناراً حامية. وفي حادثة عبيه[1] انحاز الأتراك أيضاً إلى جانب الدروز. وامتدّت نار الفتنة إلى جزّين[2] ودير القمر[3] وإلى أماكن أخرى[4]». فسارعت اسطنبول إلى ارسال وزير خارجيتها شكيب افندي في صيف تلك السنة ومعه مطلَق الصلاحيات، معزّزاً بقوة عسكرية لنزع السلاح من جميع السكان (مبدئياً). وإذ سارع الوزير إلى البدء في تنفيذ مهمّته لاقى مقاومة مارونية في شمالي لبنان حيث نشبت معركة بين المقاومين وعسكر السلطان، تدخل البطريرك الخازن لإيقافها بعد أن مالت كفّة الحسم لمصلحة العثمانيين. وراح شكيب أفندي، الذي وضع نظاماً مؤقتاً ساد لبنان إلى سنة ١٨٦١ وعُرف بنظام شكيب أفندي، يسعى للحدّ من سلطة الأمراء والوجهاء مما سيؤدي في النهاية إلى الانفجار العنيف: حركة ١٨٦٠.

أبقى شكيب أفندي لبنان مقسوماً إلى قائمقاميتين، على الرغم من كل ما بُذل من مساعٍ لإعادة الامارة إلى الشهابيين. وأنشأ مجلساً إدارياً في كل من

١ - عبيه، أو أعبيه: بلدة في جبل لبنان (قضاء عاليه). مقر أمراء الغرب التنوخيين الدروز (القرن ١٤). والامراء الشهابيين (القرن ١٧). فيها قبر الامير عبد الله التنوخي المتوفي سنة ١٤٩٧. والتنوخيون (بنو تنوخ): قبيلة عربية مسيحية الأصل من شعوب مملكة الحيرة في العراق. انتقلت إلى بلاد حلب واعتنقت الاسلام في عهد المهدي العباسي (خليفة ٧٧٥ - ٧٨٥). استوطنت جماعة منهم جبل لبنان، فتحدّر من سلالتهم الامراء التنوخيون الذين عُرفوا بأمراء الغرب، وهم البحتريون أو بنو بحتر الذين استولوا على بيروت بعد نزوح الصليبيين منها سنة ١٢٩٤ (راجع: الدروز، من هذه الموسوعة).

٢ - جزّين: بلدة في جبل لبنان الجنوبي. مركز قضاء جزّين متصلة بالشوف. بالقرب منها المغارة التي لجأ اليها فخر الدين. سكانها مسيحيون جلّهم من الموارنة.

٣ - دير القمر: بلدة في جبل لبنان (قضاء الشوف). عاصمة الثقل الماروني فيه. عاصمة الامراء المعنيين والشهابيين. تحفظ آثاراً من عهد الامارة: سرايا فخر الدين، ودور لبنانية من عهد الأمير بشير ٢. معبد سيدة التلّة الماروني الشهير.

٤ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٢٩؛ اسكندر ابكاريوس، نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان (مخطوطة) ص ٢٢، ٢٣؛ Churcill, Druzes, PP. 91- 92; Correspondance relative to the affairs of Syria, PT. I, 1843, 1844, 1845, (London 1844) PP. 106 Seq.

ميخائيل مشاقه، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، نشر ملحم عبده واندراوس شاخاتيري (القاهرة ١٩٠٨) ص ٥٢ - ٥٣

القائمقاميتين يمثّل الطوائف جميعاً، ونظّم القضاء والادارة والضرائب، وأوجد هيئات إدارية أشرك فيها جميع السكان على اختلاف طبقاتهم ومللهم، وبقي القائمقامان موظّفين يختارهما والي صيدا. وكان كل قائمقام يرئس مجلس الادارة في قائمقاميته، ويراقب أعماله، دون أن يكون له حق مخالفة رأي المجلس، الذي كان يتّخذ قراراته بالأكثرية، إلاّ أن القائمقام كان مسؤولاً عن تنفيذ القرارات.

بالرغم من أن نظام شكيب أفندي قد أضعف الاستقلال الاداري لجبل لبنان، فقد وافقت الدول الأوروبية عليه إذ كانت ترغب في إنهاء المشكلة بأي ثمن. كما كان اللبنانيّون بحاجة ماسة إلى الراحة والاستقرار، للانصراف إلى أعمالهم المنتجة، بعد أن انهكتهم القلاقل وأفسدت عليهم حياتهم.

أضعف هذا النظام نفوذ الاقطاعيين في الحقلين القضائي والاداري، بل وتعداهما إلى الحقل المالي، إذ أوجب أن تكون الضرائب عامّة ومتناسبة مع الملكية. وقد اتّضح أنه كان لذلك النظام ميّزة رئيسية هي إضعاف النظام الاقطاعي بشكل كبير، خاصة وأنه أوجب المساواة أمام القانون في دفع الضرائب، وفتح باب التوظيف وعضوية المجلس الاداري أمام جميع اللبنانيين دون تفرقة في الطبقات. كما يتّضح من خلال مراجعة سيرة البطريرك يوسف الخازن انه رغم تحدره من أسرة اقطاعية، ورغم أنّ نظام شكيب أفندي، بإضعافه نفوذ الاقطاعيين قد، أضعف نفوذ المقامات الروحية وخاصة البطريرك الماروني، فإنّ هذا البطريرك قد أصدر جملة مراسيم، وأوجب وضعها موضع التنفيذ، استهدف بعضها امتيازات الاقطاعيين، منها مرسومه الذي شدّد فيه على عدم سماع الاعترافات خارج منبر التوبة. ولمّا كان من عادات المشايخ استدعاء الكاهن إلى بيوتهم لسماع اعترافاتهم، تهدد البطريرك بالحرم كل كاهن يسمع اعترافاً في بيت أي كان من مشايخ أو غيرهم إلاّ في حالات المرض الشديد. ومن مراسيمه تلك التي منعت النساء من الدخول إلى الكنائس كاشفات الرأس وبلباس غير لائق. ولا شكّ في أنه قد استهدف منهن نساء المشايخ لأنّهن الوحيدات اللائي كنّ يقدمن على مثل

هذه الجرأة. وكثيراً ما كان هذا البطريرك ينذر بسوء العاقبة بعض أقاربه من جراء ما كانوا يأتونه من تصرفات غير لائقة[1].

عندما انتُخب بولس مسعد بطريركاً للطائفة المارونية بعد عشرة أيام من وفاة البطريرك يوسف الخازن في ٢ تشرين الثاني (نوڤمبر) سنة ١٨٥٤، كان نظام شكيب أفندي في منتصف عمره! وكان بولس مسعد من عائلة مارونية كسروانية من بلدة عشقوت[2]، وهو من خرّيجي مدرسة رومة المارونية. وقد اشتهر ببراعته في العلوم الدينية والتاريخية، وبتقواه، وبحكمته. وشهدت المدوّنات على أنه عالج بفطنة نادرة الأحداث التاريخية التي عايشها[3]. وقد انصرف بشكل أساسي إلى تنظيم الشؤون الكنسية فعقد بأمر من البابا بيوس التاسع مجمعاً مارونياً في بكركي من ١١ إلى ١٣ نيسان (إپريل) ١٨٥٦، وُصف بأنه أطول وأفضل مجامع الطائفة بعد المجمع اللبناني. أمّا الأحداث والقلاقل التي حصلت في الحقبة التي تولّى فيها مسعد البطريركية المارونية فأهمّها: ثورة الفلاحين على المشايخ الخوازنة في كسروان، والحرب الأهلية التي عُرفت بحركة ١٨٦٠ والتي أدّت إلى تدويل الجبل اللبناني ووضع «نظامه الأساسي» سنة ١٨٦١، ونشوء المتصرفية. وفي هذه الحقبة كان قائمقام النصارى الأمير بشير أحمد اللمعي.

سنة ١٨٥٨ كثرت القلاقل والفتن في المجتمع الماروني، وقد بدأت بغزو

---

١ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٩٥ ـ ٩٦

٢ ـ عشقوت بلدة في وسط قضاء كسروان. اسمها سرياني الاصل: «عسقوته» ومعناها: «الوعرة والعاصية»، علماً بأن كسروان نفسه كان يعرف بالعاصية. سكنها الشيعة بعد ان خرب المماليك المنطقة في القرن الرابع عشر قبل أن يعود الموارنة إليها في أوائل القرن السابع عشر. وأصل أسرة مسعد من بني المشروقي الذين منهم أسر عواد والشدياق والسمعاني. راجع: مفرّج: الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٣، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨؛ الاب ميخايل غبريل الشبابي، كشف النقاب عن بقعة بيت شباب؛ المحامي ابراهيم عواد، ابرشية قبرص المارونية، (بيروت ١٩٥٠)؛ الدكتور انيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، الجامعة الاميركية في بيروت (١٩٥٦)؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية

٣ ـ راجع: منجد الاعلام، المنجد في اللغة والاعلام، دار المشرق، الطبعة ٢٢ (بيروت ١٩٧٥) ص ٦٦١.

الحماديين الشيعة بلدة قرطبا في أعالي بلاد جبيل، ثم وقعت فتنة بين المتزعّمين في زحلة وفي المتن وفي العاقورة، ونشأ خلاف بين مدينتين مارونيتين تعدان من أهمّ البلدات المارونية في شمالي لبنان هما: إهدن وبشرّي. كذلك اقتتل فلاحو بلدة غزير مع مشايخها من الحبيشيين. وإذ كان للقائمقام خصوم يتزعمهم الشيخ إبراهيم الخازن، قرّر القائمقام محاولة القضاء على الاقطاع في كسروان أولاً، ثم في سائر المقاطعات. ذلك أنّ الحزب الذي كان يخاصم القائمقام، جلّه من الاقطاعيين.

« كان أكبر معاوني القائمقام على اثارة هذه الفتنة الهوجاء رجل من طائفة الروم الكاثوليك من ذوق مكايل يُدعى الياس المنيّر، نشر فكرة الثورة في قرى كسروان الجنوبية، وأقام في كل قرية وكيلاً لبثّ الدعاية، ووكيلاً عاماً اسمه صالح صفير العجلتوني، وكان القائمقام يرسل الأوامر من بيروت إلى الذوق، وهذا في دوره يرسلها إلى العجلتوني الوكيل العام، وأخذ المشايخ يستعدّون للمقاومة، ولمّا أدرك غوائل الثورة استقال من الوكالة العامة فعُيّن مكانه طانيوس شاهين الريفوني، فهجم الشعب بقيادته على دور المشايخ بإطلاق الرصاص، فهرب المشايخ بنسائهم وأولادهم إلى جهات جبيل والبترون وقاطع بيت شباب. ونهب الفلاحون بيوتهم ووضعوا أيديهم على المواسم، وقتلوا عدداً من النساء والرجال والأولاد[١] ».

هكذا رأى بعض مؤرّخي الطائفة المارونية ما عُرف بحركة طانيوس شاهين. غير أن بعض المؤرخين الأكثر شمولية واستقلالية رأى أنه «سنة ١٨٥٨ قد نشبت ثورة مارونية قام بها الفلاحون بزعامة رجل من العامة: طانيوس شاهين من ريفون، الذي كان بيطاراً يعمل في دير للعازاريين هناك[٢]. فطردوا آل الخازن وجماعة أخرى من أعيان الموارنة من اقطاعاتهم واستولوا عليها ووزّعوها على

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٩٨

٢ - "Comte de Paris", Damas et le Liban (Paris 1861) P. 102

الفلاحين. وفي السنة التالية أعلن شاهين قيام حكومة فلاحين ونصّب نفسه حاكماً مطلقاً[1]. أمّا البطريرك الماروني، بحسب هذا النص، فقد تجاهل الأمر. وأمّا الخوارنة والقسس الذين كانوا من عامة الناس فقد شجّعوا الناس على الثورة هذه وأيّدوها. لأن سلطة الاكليروس الماروني ونفوذه كان قد تضاءل (كذا) كثيراً إزاء نفوذ الاقطاعيين الموارنة وسلطتهم الواسعة. أما موظّفو الأتراك فإنهم وقفوا يترقّبون أن تنتهي الحوادث الجارية إلى ما فيه صلالِحهم ونفعهم. وفي هذه الأثناء كانت حياة المسيحيّين وممتلكاتهم في المناطق الدرزية على كفّ عفريت. فإنه في غضون عشر سنوات قُتل منهم ما يربو على سبعمئة قتيل بدون أن يعاقَب قاتل واحد وبدون أن يجري أي تحقيق قضائي[2]».

بيدَ أن مؤرّخي البطريركية المارونية يبيّنون أن البطريرك بولس مسعد قد قام بجهود كبرى بخلال هذه الفتنة، خلافاً للرأي السابق، إذ «استدعى وكلاء القرى وكبار المشايخ وأشار بعقد اجتماع لانتخاب أحد المشايخ حاكماً للمقاطعة الكسروانية. وقبِل الوكلاء بهذا الحلّ. أمّا المشايخ فلم يرضوا بأن يشترك معهم الفلاحون بهذا الانتخاب، وكانوا يأملون بأنّ خورشيد باشا[3] سينجز وعده بإرجاع الأهالي إلى طاعتهم. عندئذ ازداد طانيوس شاهين اندفاعاً في شن الغارات. وكرّر المشايخ عرائضهم إلى الباشا الذي أتى بعسكره إلى المديرج ليدخل كسروان من الجهة الغربية، فاحتج البطريرك على دخول العسكر النظامي إلى لبنان بدون إنهاء (إنباء!) مجلسه، فرجع الوزير بجيشه إلى بيت مري، وطلب رأي ديوان قائمقامية النصارى فأشار بتنبيه الأهالي ونصحهم بالإخلاد إلى السكينة قبل اللجوء إلى القوة العسكرية، وكلّف الشيخ عيد حاتم القيام بهذه المهمة فقام بها خير قيام وهدأت

---

١ ـ انطوان العقيقي، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ١٩٣٨) ص ٨٢ ـ ٩٠

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٠

٣ ـ خورشيد باشا، والي بيروت وصيدا العثماني (١٨٥٧ ـ ١٨٦٠). كانت له اليد الطولى في اشعال الفتن في لبنان. حُكم عليه بالنفي المؤبّد.

العاصفة... وأقام المشايخ ثلاثة وكلاء في بيروت للمطالبة بحقوقهم فلم ينالوا سوى وعود فارغة. وظلّ البطريرك المرجع الوحيد، وتوصّل بحكمته وطول اناته إلى كبح جماح الثائرين[1] ».

في الوقت الذي كان الموارنة يقتتلون في عرينهم، كان الدروز يداً واحدة بزعامة أعيانهم. وما كاد الاقتتال الماروني ينتهي إلى ما انتهى إليه حتى جاءت سنة الشؤم في تاريخ لبنان: سنة ١٨٦٠ التي عرفت أحداثها بـ «مذابح الستين» أو «حركة الستين» كما تعرفها العامة، وهي الحرب الأهلية التي وقعت بين الدروز والموارنة، والتي لم يكن هنالك من أسباب مباشرة لنشوبها. «بل كان هنالك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت فتنة مدبّرة. بدأت الفتنة في شهر نيسان (إپريل) وظلّت نيرانها تستعر حتى آخر شهر تموز (يوليو) من تلك السنة المشؤومة. كانت الحوادث التي أدّت إلى نشوب الفتنة قد بدأت في صيف السنة السابقة عندما تشاجر صبيّان، ماروني ودرزي، كما يتشاجر الصبيان. ولكن هذا الحادث أدّى إلى قتال بين دروز القرية والنصارى فيها واسفر عن مقتل عدد من الدروز أكبر من عدد القتلى من النصارى. وقد حدثت مناوشات متقطّعة بين الدروز والنصارى في المناطق التي يقطنها من الفريقين. ثم حلّ الشتاء، وكان شتاءً بارداً قاسياً، فخُيّل للناس ان هذه الفترة من الهدوء النسبي كانت فترة تهيؤ واستعداد لأمر لا مفرّ منه. وكان مشايخ الدروز يتّصلون علناً بخورشيد باشا في بيروت ويجرون معه مفاوضات. ويقال إنهم تسلّموا أسلحة بواسطته. ولما نشبت الثورة شعر كل مسيحي قاطن في المنطقة الدرزية ان حياته في خطر شديد. وفي خلال أسابيع قليلة أُحرق أكثر من ستين قرية من قرى المتن والشوف. أمّا الجيش التركي النظامي (باش بزق) فإنه لم يحاول ان يوقف القتال، بل كان موقفه على نقيض هذا، فإنه أساء معاملة (المسيحيين) الهاربين اللاجئين إلى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه

---

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٩٨

من ثياب وأموال. أما كسروان ومنطقة شمالي لبنان فلم يصبها أذى من هذه الفتنة. ولم يكن لها من أثر حاسم في القتال. فقد جاءت قوتان رمزيتان من تلك المناطق لمساعدة إخوانهم في (جبل) لبنان الجنوبي وفي المتن. وكان على رأس أحداهما يوسف بك كرم[1] من إهدن، وكان زعيماً وطنياً في منطقته، وطانيوس شاهين من ريفون، وقد سبقت الاشارة اليه. غير أن الموظفين الأتراك حاولوا بالوعد والوعيد أن يمنعوا اتصال هذين الزعيمين بإخوانهم في الجنوب. وكذلك كان لتدخل فرنسة في الامر يد في وقف هذه المساعدة. أما رجال الدين من الموارنة فكانوا يهاجمون العدو بسيل من الاحتجاجات والشتائم ويشجعون أتباعهم على متابعة القتال بشتّى الوسائل والوعود. وكان الاكليروس في هذه الفتنة أقرب إلى الضرر منه إلى النفع. أما المعسكر الثاني، المعسكر الدرزي، فقد انهالت عليه المساعدات العسكرية من حوران، إذ جاءته نجدة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة اسماعيل الأطرش. وأما قائد الثورة في لبنان فقد كان سعيد جنبلاط يعاونه خطّار العماد وعلي حماده (دروز). ثم جاء دور المدن. وقد كانت أساليب الثورة في المدن الأساليب ذاتها في الأرياف: كان قائد الحامية التركية في المدينة يعرض حمايته للنصارى مقابل تسليم الأسلحة، ثم يقف يتفرج عليهم يُذبحون. هكذا كان مصير دير القمر حيث قُتل ٢٦٠٠ نسمة. وفي جزّين وجوارها قُتل ١٥٠٠ نسمة. وفي حاصبيّا[2] قُتل من الروم الاورثوذكس ١٠٠٠ نسمة، وبصورة بربرية من أصل مجموع سكانها الاورثوذكس البالغ ستة آلاف. وفي راشيّا[3] هلك ثماني

١ ـ يوسف بك كرم: (١٨٢٢ ـ ١٨٨٩)، ولد في إهدن من أعالي لبنان الشمالي زعيم ماروني اشتهر بفضائله وبسالته في مقاومة العثمانيين.

٢ ـ حاصبيّا: بلدة في لبنان الجنوبي. قاعدة قضاء حاصبيا (وادي التيم سابقاً) بالقرب منها خلوة البياضة للدروز، وهي المقام الديني الأعظم لدروز لبنان وفيه مجلس شوراهم.

٣ ـ راشياّ أو راشياّ الوادي: بلدة في البقاع الغربي من لبنان فيها قلعة للأمراء الشهابيين. عندها قاتل الزعيم الدرزي شبلي العريان جيش ابراهيم باشا (١٨٤٠). وعندها سوف تقع المعركة بين الفرقة الأجنبية الفرنسية وبين فرسان الدروز (١٩٢٥). وإليها سوف تنفى حكومة الاستقلال ١١ ـ ٢٢ تشرين الثاني ـ نوڤمبر ١٩٤٣م.

مئة نسمة[1]. وكانت أوامر قيادة الثورة (الدرزية) المتعلقة بحاصبيا ألاّ يبقى على ذكَر من سن السابعة إلى السبعين. وقد وقف الثوّار القساة يمتّعون أبصارهم بأشلاء الأجساد المختلطة كباراً وصغاراً، في صحن الدار في قصر الشهابيين في حاصبيا. أما زحلة أكبر المدن في داخلية لبنان، وكان عدد سكانها آنذاك ١٢ ألف نسمة، فقد صمدت في بادئ الأمر بشجاعة إلى أن غُلبت على أمرها في وجه هجمات جماعات كبيرة من الحوارنة ومن بدو الصحراء. هذه المدينة، القابعة في وادي (نهر) البردوني المنساب سلسبيلاً من سفح صنين لم ينجُ بيت واحد فيها من الحريق... وقد ازدحمت الطرقات المؤدية من القرى إلى مدن الساحل بالهاربين الذين لم ينجوا من تعدّيات الجند التركي. فقتل مسلمو صيدا نحواً من ثلاث مئة لاجئ. وقد كان عدد الضحايا الذين سقطوا خلال أشهر ثلاثة وفي بقعة قطرها بضعة أميال اثني عشر ألف قتيل. وكانت الخسارة في الأملاك تُقدّر بأربعة ملايين ليرة انكليزية ذهبية. وقد وقعت الفتنة في موسم تربية دود الحرير. ذلك الموسم الرئيسي في حياة الناس الاقتصادية. ولم يقتصر الخراب والحريق على البيوت بل شمل الكنائس والاديرة[2] ». وعندما لم يعاقب المجرمون في لبنان وقد تواطأ الموظفون الأتراك معهم، تشجع أهل دمشق المسلمون على مهاجمة المسيحيين فأحرقوا الحي المسيحي في المدينة وقتلوا عشرة آلاف نسمة. وفي العام ١٩٢٦ طوّب البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) ثلاثة إخوة من أسرة مسابكي

---

١ ـ راجع: Further, papers relating to the disturbances in Syria, June 1860 (London, 1860) PP. 40 - 46

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣٢؛ اسكندر ابكاريوس، نوادر الزمان، ص ٤٢ وما يليها؛ مشاقة، ص ١٥٨ ـ ١٦٨؛ حسين ابو شقرا، الحركات في لبنان، نشره عارف ابو شقرا (بيروت ١٩٥٢) ص ١١٣ ـ ١٣١؛ للاطّلاع على الوثائق الرسمية: Correspondence relating to the affairs of Syria 1860 - 61 (London 1861); Edward Driault, la question d'orient, 8e ed. (Paris, 1921) PP. 194 - 5; Souvenirs de Syrie, (Paris 1903) PP. 32 - 89; F. Charles-Roux, France et Chrétiens d'orient (Paris 1939) PP. 183 - 6; I. de testa, Recueil des traités de la porte ottomane, Vol. VI, PP. 67 - 101; Isaac. Riley Syrian Home - life (New York 1874) PP. 250

المارونية كانوا قد استشهدوا عند مذبح الكنيسة الفرنسيسكانية في دمشق حيث كانوا لجأوا يومذاك هرباً من القتل[1].

كان أكثر ضحايا أحداث سنة ١٨٦٠ من الموارنة. وقد هزّت تلك المذابح الضمير العالمي. فعُقد مؤتمر دولي دعت إليه فرنسة ضم بريطانية والنمسة وبروسية وروسية وتركية تقرّر فيه التدخل لإيقاف المذابح، وإيفاد قوة إلى الجبل اللبناني قوامها اثنا عشر ألفاً. غير ان فرنسة وحدها نفَّذت القرار وأرسلت جيشاً مؤلفاً من سبعة آلاف جندي. وقد قال الامبراطور الفرنسي نابوليون الثالث (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣؛ امبراطور: ١٨٥٢ ـ ١٨٧٠) في مجال شرحه لذلك: « إذا كنت قد اقترحت إرسال بعثة عسكرية إلى لبنان وسورية فلأني اشعر كالشعب الذي انتخبني رئيساً عليه، ولأن أنباء سورية ولبنان أثارت مزيد استيائي. أنا أتمنى أن لا أضطَّر إلى ارسال هذه البعثة لأسباب عديدة، إنما يتعذَّر علي مقاومة الرأي العام في بلادي[2] ». ومنذ ذلك الحين أصبح موارنة لبنان يرون في فرنسة السند القوي، وأصبح تقليدهم يطلق عليها اسم :« الأم الحنون ».

كان على رأس الحملة العسكرية الفرنسية الجنرال بوفور دوتپول. وكان قد اشترك في حروب سورية لمّا كان ضابطاً في أركان جيش الكولونيل سيف (Seve). وقبل أن تصل الفرقة العسكرية إلى لبنان منتصف صيف ١٨٦٠ كانت السلطنة العثمانية قد أرسلت جيشاً على رأسه وزير الخارجية فؤاد باشا الذي راح يعاقب الموظفين الأتراك الذين تواطأوا مع المجرمين، متشدِّداً في ملاحقة القتلة، وقد أعدم أكثر من مئة جندي تركي رمياً بالرصاص وشنق بعض الأهالي. ولمَّا كان الأمير المغربي اللاجئ إلى سورية هرباً من الفرنسيين في الجزائر، قد حمى في دمشق أكثر من ألف مسيحي من القتل، فقد قلَّده وزير الخارجية التركي وساماً

---

١ ـ Acta Apostolicae sedis, Vol. XVIII (1926) PP. 411 - 415

٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ١٠٠

رفيعاً لعمله الشريف. ثم شكّل فؤاد باشاً لجنة دولية مهمّتها اكتشاف المسؤولين عن الفتنة، والمجرمين الذين اشتركوا في أعمال القتل، وتعيين التعويضات الواجب اداؤها للمتضررين، ودرس الأنظمة التي من شأنها أن تمنع حدوث مثل هذه الكوارث، ورفع تقرير إلى حكومات تلك الدول لاجراء المقتضى. وكان فؤاد باشا رئيساً لهذه اللجنة فسيّرها بدهائه وتحايله على هواه. وراح يماطل مدَّعياً بأن الخلافات بين أعضاء اللجنة هي التي تؤخر الوصول إلى اتّفاق[١]. «وكذلك استطاع اللورد دوفرل الانكليزي بدهائه ان يتفوّق على موفد نابوليون الثالث ويضعف من شأنه. وكان دوفرل يقف إلى جانب فؤاد ويدافع عن سيادة تركية وسلامتها. وطالب بشدة أن تُخفّف الاحكام الصادرة بحقّ الدروز. وكان يماشيه في سياسته هذه ممثلا النمسة وبروسية. أما فرنسة فكانت تدافع عن وجهة نظر المسيحيين وتحاول ان تدعم قضيتهم، وكانت روسية تقف إلى جانبها وقفة المتردد. وقد تسلّمت اللجنة قائمة بأسماء ٤٦٠٠ متّهم درزي. فحكمت على ٤٨ بالإعدام، وعلى ١١ بالسجن المؤبد، وعلى ١٣ بالحبس ٦ سنوات، وعلى ٢٤٩ بالحجر أو بالنفي المؤقت[٢]. وإنّ حكْم الاعدام الصادر بحق سعيد جنبلاط استُبدل، وهرب كثيرون من أتباع خطار العماد إلى حوران، ونُفي حوالى ١٢٠ شخصاً إلى طرابلس الغرب. ونجا خورشيد باشا من الموت. ولكن والي دمشق أُعدم، كما أُعدم قائد حامية حاصبيا، ونُفي بعض الموظفين الأتراك من ذوي المناصب الدنيا إلى قبرص ومالطة واسطنبول. وفي دمشق حُكم على ثلاث مئة رجل بالاشغال الشاقة مدى الحياة. وقد أُحضروا مكبَّلين إلى بيروت سيراً على الاقدام، ومنها نُقلوا إلى اسطنبول... ولكن بعد غياب ستة أشهر، عادوا يظهرون في أسواق بيروت وهم في طريقهم إلى دمشق[٣]. وقد قُدِّرت مبالغ التعويضات التي كانت ستدفع

---

١ ـ Souvenirs de Syrie, PP. 274 - 276

٢ ـ للاطّلاع على هذه اللوائح وعلى أسماء المتّهمين: Correspondance Relating to the affairs of Syria, 1860 - 61 (London 1861), P. 509; Souvenirs, PP. 238 Seq., 270 seq.; Churchill Druzes, P. 222; Edward Driault, PP. 403 - 410

٣ ـ Riley, PP. 87 - 88

للمتضرّرين بمليون ومئتين وخمسين ألف ليرة انكليزية. وقد اقتُرح في اللجنة أن يقوم الدروز بدفع هذه التعويضات. غير أن فؤاد باشا اعترض قائلاً إنّ الدولة العليّة ستدفعها من خزينتها. ولكن الخزينة العثمانية دفعت قسطاً ضئيلاً منها ثم امتنعت بعد ذلك عن الدفع واعتبرت الامر منتهيا[1] ».

بينما سارع الباب العالي بعد وقت قصير إلى إعلان العفو عن المجرمين، كانت حالة المسيحيين الهاربين والمهجّرين من بيوتهم وأرزاقهم إلى بعض المدن والبلدات تسوء كثيراً، فأصيبوا بالمجاعة والأمراض الفتّاكة. فمات منهم كثيرون، وباعت نساء أولادهن بيع العبيد، وأُخذت كثيرات عنوة إلى حريم الرجال الذين سبوهن[2].

إنّ أحداث ١٨٦٠ التي دفع الموارنة بشكل خاص، والمسيحيون بشكل عام في لبنان، وفي دمشق، ثمناً باهظاً جرّاءها، أدّت إلى خلق نظام جديد لجبل لبنان مضمونٍ من الدول الست الكبرى في ذلك الوقت، ضمن استقلال لبنان من قبل الدول الاوروبية، وكان بمثابة خاتمة عهد من الفوضى والعنف. وقد وقَّع على ذلك النظام في اسطنبول في التاسع من شهر حزيران (يونيو) ١٨٦١، كل من فرنسة وبريطانية والنمسة وبروسية وروسية وتركية، وانضمَّت إلى مجموعة هذه الدول سنة ١٨٦٧ ايطالية. وقد عُرف هذا النظام رسمياً بنظام المتصرفيَّة، وبنظام لبنان الاساسي. وكان عدد بنوده سبعة عشر، مندرجة في صفحتين. وفي السادس من أيلول سپتمبر ١٨٦٤ جرت تعديلات طفيفة على ذلك النظام مددت ولاية المتصرِّف إلى خمس سنوات، مع إمكانيَّة تجديد ولايته. ونصَّ النظام على أن يكون المتصرف مسيحياً أجنبياً تُوافق عليه الدول الموقِّعة عليه. وقد اعترض بطريرك الموارنة بولس مسعد على بعض ما جاء في نظام المتصرفية خاصة لجهة الأحكام

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥
٢ ـ The world (Newyork) April 23, 1861

الشرعية، فطالب بتأليف هيئة تشريعية وطنية، غير أن المتصرف اتَّخذ لنفسه السلطة التشريعية. فوقع الخلاف بين البطريرك والمتصرِّف رستم باشا (١٨٧٣-١٨٨٣)، وهو المتصرِّف الثالث الذي حكم جبل لبنان. أمّا مجلس الادارة فقد تألَّف من اثني عشر عضواً منتخباً بواسطة مشايخ الصلح. وكان الهيئة الوحيدة التي تمثِّل الشعب اللبناني في الحكم، إلاّ أن سلطته كانت استشاريه وقراراته لا تلزم المتصرِّف التقيُّد بها[١].

إنَّ لبنان المتصرفية لم يكن، لا لبنان الامارة التي سبقتها، ولا لبنان الدولة التي لحقتها، بل كانت مسلوخة عنه مناطق البقاع، ووادي التَّيم، وبيروت وصيدا وطرابلس وعكار. فلقد كان لبنان المتصرفية الجزء الجبلي من لبنان الامارة فقط.

قُسِّم لبنان المتصرفية إلى سبعة أقضية، على رأس كل قضاء قائمقام من الطائفة التي تمثِّل الأكثرية في القضاء. وعلى هذا كان للموارنة ثلاثة قائمقامين، بينما كان الاربعة الباقون: درزياً ومسلماً واورثوذكسياً وكاثوليكياً.

رغم ان هذا النظام قد أعطى الموارنة حجمهم من خلال إعطائهم ثلاثة قائمقامين من أصل سبعة، فانهم قد شعروا بكثير من فقدان الاستقلالية وخفض للشَّأن عندما تسلَّم داود باشا[٢] الحكم في ٩ حزيران (يونيو) ١٨٦١، فسرت فيهم حركة نفور ظهرت بوادرها في أوساط يوسف بك كرم الذي ثار القوم بقيادته على داود باشا مثلما ثار آباؤهم على عمر باشا سنة ١٨٤٢.

كان يوسف من مشايخ إهدن وتعلَّم في مدرسة الآباء اليسوعيين في عينطورة كسروان. فأحسن الفرنسية ومال بجوارحه إلى ثقافتها وحضارتها. وكان

١ - للاطّلاع على النص الكامل لنظام المتصرفية وتعديلاته: British and Foreign State papers, 1860 - 1861, Vol. LI. (London, 1868) PP. 288 - 292; Thomas E. Holland, the European Concert in the eastern question, (Oxford, 1885) PP. 212 - 218

٢ - داود باشا (١٨١٨ - ١٨٧٣): أول متصرف على جبل لبنان (١٨٦١ - ١٨٦٨). سياسي عثماني. ولد في الآستانة. عدّل النظام الاساسي وطبّقه. أنشأ جريدة رسمية.

أبوه يستضيف السيَّاح الفرنسيين وهم في طريقهم إلى زيارة الأَرز. وكان يوسف بك شاباً وسيماً شجاعاً دَمِث الخلق وقور الشخصية محبوباً بين قومه وعشيرته. وكان الجنرال الفرنسي ديكرو، وهو الجنرال الثاني في قيادة الجيش الفرنسي في لبنان، قد سمَّى يوسف بك كرم، الذي ولاه فؤاد باشا قائمقامية النصارى في نهاية أحداث ١٨٦٠، ليكون متصرفاً على لبنان. وقد ايَّدت روسية اقتراح فرنسة بدون حماس، وقاومته السلطنة العثمانية مقاومة عنيفة وكذلك فعل البريطانيون. وقد ظلّ يوسف بك كرم يتطلّع إلى منصب المتصرفية، لذلك رفض قائمقامية جزين عندما عرضها عليه المتصرف الأول. ووجَّه كتاباً مفتوحاً إلى كل من القاتيكان وباريس يحتجّ فيه على كون الحاكم غير لبناني، وعلى صلاحياته المطلقة، وعلى تحديد بعض الأقضية المسيحية، وعلى الفصل في القضايا التجارية في محاكم خارج لبنان (في بيروت)، وعلى سدّ العجز في ميزانية لبنان من مال الخزينة العثمانية مما يجعل لبنان خاضعاً لسلطة الباب العالي[١].

أعلن يوسف بك كرم العصيان ورفع لواء الثورة وخاض بعض المناوشات الدامية. ولكنه لم يكن بحجم الدولة العثمانية، فتمكَّن المتصرف من إلقاء القبض عليه وارساله إلى اسطنبول، حيث بقي هناك حتى سنة ١٨٦٤ قبيل نهاية ولاية المتصرف، آملاً في أن يعيَّن متصرِّفاً. وكانت عودته خلسة، وقد استقرّ في شمالي لبنان. غير أنَّ الولاية الثانية كانت من نصيب المتصرف الأول الذي جُددَّت له، فراح كرم على مدى ثلاث سنوات يطوف البلاد داعياً إلى محاربة الحاكم الأجنبي، فتألَّب حوله محازبون سار بهم سنة ١٨٦٧ زاحفاً إلى بيت الدين، مقر المتصرف. ولدى وصوله إلى بلدة بكفيا الواقعة في منطقة وسط قضاء المتن، منتصف المسافة بين الشمال وبيت الدين، نشب القتال بينه وبين العسكر النظامي. وفيما كان العراك على أشده وصل شيخ خازني ليبلغ كرم طلب قنصل فرنسة بأن يكفّ عن

١ ـ بطرس كرم: قلائد المرجان في تاريخ جبل لبنان، (بيروت ١٩٣٢) ج١، ص ١٩١ ـ ١٩٢

القتال، وبأن ينتقل إلى ملاقاته في بكركي. ففهم كرم أن الذين كان يعتمد عليهم قد تخلَّوا عنه، فسار في درب منفاه: إلى الجزائر أولاً، ثم إلى باريس، وأخيراً إلى نابولي إيطالية حيث توفي وهو في الثالثة والستين من عمره سنة ١٨٨٨[1]، ونُقل جثمانه إلى مسقط رأسه اهدن ووضع في كنيستها ليُعرض على الناس. وما زال بعض موارنة تلك المنطقة من شمالي لبنان يقولون بقداسة هذا الرجل الذي أقيم له نصب على مقبرة الكنيسة، ويروون أن جثمانه الذي لم يبلَ، غير محنّط.

ختم عهد المتصرفية العهد العثماني بالنسبة إلى لبنان، موئل الموارنة في الشرق. وكانت ثورة يوسف بك كرم آخر ثورة مارونية في ذلك العهد الذي ستكون خاتمة ويلاته عليهم سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التي علّق العثمانيون بخلالها نظام المتصرِّفية، ودخلوا لبنان، وحاصروا السكان، فدفع الموارنة من أرواحهم وكراماتهم وأرزاقهم، هذه المرة أيضاً، الثمن الباهظ. ومثلما أدَّت أحداث ١٨٦٠ إلى ما يشبه الكيان لهم في نظام المتصرفيَّة، فإنَّ معاناة الحرب العالمية الأولى سوف توصلهم إلى ترؤس جمهورية لبنان الكبير، فيتوهمون بأن كياناً متيناً قد تحقّق لهم هذه المرَّة تشاركهم فيه طوائف متعدِّدة أخرى.

مثلما قضى نظام المتصرفية على نفوذ الاقطاعيين ومكانتهم، كذلك هو انتزع، أو أنه ألغى دور البطريركية المارونية كممثلة للموارنة تجاه السلطان. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد للبطريرك ذلك التأثير الذي كان له في شؤون السياسة والمجتمع. إلاّ أن الجبل اللبناني قد بقي، في الحقبة الفاصلة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، ملجأً للطوائف المسيحية الكاثوليكية التي اضطُهدت في الجوار (راجع بداية الفصل). وبقي للبطريركية المارونية وللاكليروس الماروني ذلك الدور الذي وصفه الكاردينال لودوكفسكي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس بأنّه

---

١ ـ راجع: اسطفان البشعلاني، لبنان ويوسف بك كرم، (بيروت ١٩٢٥)، ص ٣١٢ ـ ٦٤٤؛ نسيم نوفل، بطل لبنان، (الاسكندرية)، ص ٢٢٤ ـ ٢٤٨؛ المطران يوسف الدبس، تاريخ سورية، الجزء الثامن، ص ٧٢٦ ـ ٧٣٣.

قد «حمى وحفظ في الشرق على مدى الأجيال الإيمان الكاثوليكي... ولم يألُ جهداً عن العمل في هداية قسم معتبر من الطوائف الشرقية المنفصلة إلى الايمان القويم[1]». وجاءت هذه الرسالة بمناسبة براءة التثبيت الفاتيكاني سنة ١٨٩٠ للبطريرك يوحنا الحاج الذي انتُخب خلفاً للبطريزك بولس مسعد المتوفى في ١٨ نيسان (إبريل) من تلك السنة. وقد كان هذا البطريرك، قبل انتخابه، قد شغل منصب قاضٍ في عهد القائمقامية، وفي ديوان الأمير بشير أحمد، كما تقلَّد وظيفة كاتب سرّ للقصادة الرسولية في لبنان. وكان ذا بعد نظر سياسي، وهو أول من نصح المشايخ الخوازنة بإعادة النظر في سياستهم تداركاً لسوء العاقبة قبل ثورة طانيوس شاهين. وكان بخلال أحداث ١٨٦٠ قد انتقل خلسة إلى فرنسة حيث راح ينشر التقارير في الصحف حول المذابح التي كان يتعرَّض لها شعبه في لبنان، مما جعل الرأي العام الفرنسي يتحرَّك بفعالية. كان المسؤول الوحيد الذي رفض توقيع الاتفاق الذي نصَّته اللجنة الدولية لعدم إنصافه. ومن أجلّ أعماله أنّه رطّب الأجواء بين المشايخ الخوازنة والعامة الذين ثاروا عليهم، فعاد الأولون وتسلَّموا أرزاقهم التي كان رجال الثورة قد استولوا عليها. وكان البطريرك بولس مسعد قد سام الخوري يوحنا الحاج مطراناً لأبرشية بعلبك بناء على طلب أهل الأبرشية.

حاول السلطان العثماني أن يسلب البطريرك الماروني آخر امتيازاته، فأرسل إلى المتصرف يطلب إليه إبلاغ البطريرك المنتخب حديثاً ان عليه طلب الفرمان من السلطان والاّ اعتُبرت ولايته غير شرعية. فكان ردّ يوحنا الحاج: «نحن الموارنة أبناء لا غرباء، والأبناء ليسوا بحاجة لأن يُعترف بحقوقهم».

جعل يوحنا الحاج للبطريركية المارونية صرحاً شتوياً في بكركي حيث شيَّد بناء فخماً فسيح الأرجاء على أنقاض الدير القديم، لا يزال قائماً حتى اليوم شاهداً على أنه كان أهمَّ صرح عرفه لبنان يومذاك. وقد تمكَّن من ضم أملاك واسعة إلى

---

١ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ١٠٥

البطريركية، كما رصد أموالاً كثيرة لتجديد المدرسة المارونية في رومة التي كانت قد أُقفلت مدَّة قرن بسبب الأحوال الاقتصادية، وأنشأ وكالتين بطريركيتين مارونيتين في كل من أورشليم وباريس. ومن أهم مراسيمه أنه حرم تعاطي الميسر وحضور مجالسه. وكان هذا البطريرك آخر بطاركة القرن التاسع عشر إذ توفي نهاية سنة ١٨٩٨، ليلة الميلاد، فخلفه أول بطاركة القرن العشرين: الياس الحويِّك، الذي انتُخب بداية سنة ١٨٩٩، فاستهلَّ منشوره الأول بقوله إنَّه سيبذل جهده لتعزيز الطائفة، ثمّ إنّ اسم هذا البطريرك قد اقترن بـ «لبنان الكبير». فلقد كان من أهم الدَّاعين إلى توسيع نطاق جبل لبنان إلى ما كان معروفاً به من التخوم تاريخياً وجغرافياً، ذلك أنَّ ممثِّلي الشعب اللبناني قد انتدبوه إلى مؤتمر الصلح في باريس بعد الحرب العالمية الاولى، للمطالبة باستقلالهم واسترجاع الاراضي المسلوخة من لبنان. وقد قام بمهمته بحماس وإخلاص، واثقاً من أن قيام دولة حديثة مركَّبة من شأنه أن يبعد عن طائفته مخاطر المستقبل، وقد اعتقد أن من شأن هذا الاتحاد أن يزيل الأحقاد من قلوب المتخاصمين. غير أن المستقبل لن يكون عند حسن ظن هذا البطريرك. وسوف تعود ظروف الشؤم لتعيد الاقتتال بعد أكثر من مئة عام كانت قد مرَّت على أحداث بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

***

عرفت الطائفة المارونية بخلال حكم المتصرفية هجرة كبيرة بدأت في سبعينات القرن التاسع عشر ونشطت بين نهايته وبداية القرن العشرين. وقد كانت الاسباب الرئيسية لهذه الهجرة رداءة الحالة الاقتصادية التي خلَّفتها الحروب الأهلية، وساعد على استفحالها ضيق رقعة الجبل اللبناني المنفصل عن المدن الساحلية الكبرى وعن السهول الزراعية في البقاع وعكار. وكانت هجرة هؤلاء إلى الاميركتين حيث نشأت لهم جاليات أصبحت، مع المتحدِّرين من أولئك الروَّاد الأوَّلين، تعدّ أعداداً مضاعفة لأولئك الذين لا يزالون في لبنان. ولكنّ أكثر أبناء

تلك الجاليات قد تخلّى عن مارونيته وامتزج في الطوائف المحلية حيث أقام. ويقتصر وجود الموارنة على لبنان بأكثرية ساحقة. ومنهم بضعة آلاف في سورية وفي قبرص، إضافة إلى آلاف أخرى من المهاجرين والمغتربين، بشكل دائم أو مؤقّت، في مختلف بلدان العالم.

عزّز الاكليروس الماروني في القرن التاسع عشر أدياره العائدة إلى الرهبان والراهبات، ونشأت فيها وحولها مدارس حديثة نسبياً إتّبع بعضها نظام المدارس الفرنسيّة، حتى بات لهذه الطائفة سلسلة من المدارس الكبرى التّابعة لعدد من الرهبانيات، يفوق عددها تلك التي للإرساليات الأجنبية مجتمعة. كما نشأت لهذه الطائفة مؤخّراً جامعات ثلاث، يتبع كل منها لأحدى رهبانيات الطائفة: اللبنانية (البلدية)، والمريمية (الحلبية) والانطونية.

الكنيسة القبطية

عندما دخل السلطان العثماني سليم الأول مصر فاتحاً سنة ١٥١٧، كان مسيحيو مصر، وجلّهم من الأقباط «قد وصلوا إلى انحلال كبير» بسبب المعاناة الرهيبة التي تحمّلوها طوال مدة حكم المماليك الذين جعلوهم «في وضع ذليل ملؤه الخزي والاهانة والتغريم لحدّ يفوق الوصف[١]». وكان جلّ كنائسهم قد هُدم، ولم يبقَ، قبيل الفتح العثماني، كنيسة واحدة في مصر لم يلحق بها ضرر[٢]. وإن المراجع التي تصف دخول السلطان العثماني إلى أرض النيل وصفاً شائقاً ومفصلاً[٣]، لا تذكر الاقباط إلاّ مرة واحدة في مجرى الحديث عن: «انتقال بعض الصناع الذين انتقاهم السلطان للسفر إلى الآستانة». وما جاء عن الاقباط لم يأت أكثر منه عن سائر الطوائف المسيحية في مصر.

١ - السنحاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، (طبقة بولاق) ص ٣٦
٢ - د. جاك تاجر، أقباط ومسلمون، (نيوجرسي ١٩٨٤) ص ١٩٤
٣ - ابن أياس، تاريخ مصر، (طبعة بولاق ١٣١١ هـ.) ج٣، ص ١٤٩

من شأن هذا أن يدل على أن الاقباط والمسيحيين عامة في مصر، كانوا قد أُقصوا عن تعاطي السياسة والشؤون العامة في البلاد، بعد أن أدَّت التدابير المذلَّة إلى اعتناق بعضهم الاسلام هرباً من هذا الاذلال. فانتقلوا من جحيمه إلى نعيم الاجلال والاكرام... وقد بلغ اليأس ببعضهم الآخر أن افتعلوا الاستشهاد افتعالاً. من تلك الحوادث أن مسيحياً من مواليد مدينة الطور، كان كاتباً في أحد الدواوين، قصد القاهرة ووقف يخطب جهراً ضد الديانة الاسلامية. فلمّا أُرسل إلى القاضي مكبّلاً، قال المسيحيّ: «إنّ هدفي الحصول على شرف الاستشهاد». كذلك قدم القاهرة جماعة من الرجال والنساء وأعلنوا على الملأ خروجهم عن الاسلام وعزمهم على العودة إلى حظيرة المسيحية، وقالوا: «لقد جئنا لكي نغتفر الخطايا التي اقترفناها، فنقدّم حياتنا على مذبح التضحية لننال نعم سيدنا المسيح»، فقُطعت رؤوسهم جميعاً. وقد قام أربعة من الرهبان وتحدّوا علانية فقهاء الاسلام، وتكلّموا بأسلوب ملؤه الاحتقار، فحُكم عليهم بالحرق أحياء[1].

وتذكر المدوّنات عن أحداث جرت بعد الفتح العثماني مباشرة، تدلّ على أن الامور لم تتغير كثيراً، بالنسبة إلى المسيحيين، رغم أن هؤلاء قد رأوا في ذلك الفتح ما يمكن أن يكون إنقاذاً لهم من ظلم المماليك. فإثر الفتح مباشرة قبض جنود الانكشارية على بعض المسيحيين بتهمة أنهم قد شربوا الخمرة وأفحشوا في السباب. وقام هؤلاء الجنود بتقطيع أجساد هؤلاء المسيحيين بالفؤوس، ثم اجتمع السواد الأعظم من العوام «وأخذوا رمم النصارى وأطلقوا فيها النار وأخذوا السقائف التي تقع على الدكاكين ووضعوها عليهم وأشعلوها بالنار، فاحترقوا وصاروا كالرماد[2]». وقد جرت أحداث مماثلة بعد أربع سنوات من الفتح (١٥٢١)، فاضطر بعض المحكومين إلى أن يعتنقوا الاسلام لينجوا من الموت[3].

---

١ - Quatremere E., Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines. (Paris, 1811), II, PP. 251 - 257

٢ - ابن أياس، ج٣، ص ٢٦٨ - ٢٦٩

٣ - المرجع السابق، ص ٣١٥

أمّا الحدث التاريخي البارز في تاريخ الأقباط أبّان العصر العثماني فهو محاولة اليعاقبة الأقباط اعتناق المذهب الكاثوليكي. وكانت قد جرت محاولة من قبل الكنيسة الكاثوليكية لمصالحة الاقباط اليعاقبة والكاثوليك في العصر الأيوبي، عهد البطريرك القبطي كيريللوس الثالث، ولكنها باءت بالفشل. وفي عام ١٤٣٩ كانت الكنيسة القبطية قد تمثّلت في مجمع فلورنسة الذي دعت إليه رومة والذي أُعلن بخلاله عن اتحاد الكنيسة الجامعة، بيدَ أن ذلك لم يؤدّ عملياً إلى اتحاد الكنيسة القبطية مع الكنيسة الجامعة.

سنة ١٥٦٠ زار رومة قسيِّسان قبطيان يحملان عريضة تشهد برغبة رؤساء الاقباط وشعبهم بأسره في العودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية والخضوع لسلطة البابا نائب المسيح.

لقد وجد الأقباط أنفسهم مهملين متروكين مستفردين في بداية العهد العثماني. ذلك أن العثمانيين قد جعلوا البطريرك القسطنطيني مرجعية مسيحية أولى في الشرق. ثم إن علاقاتهم الدولية فرضت عليهم مسايرة رومة التي كانت تحافظ على مصالح الكنائس الكاثوليكية في الشرق. وكان الأقباط خارج المرجعيتين. وبالنظر للخصومات المتأصِّلة بينهم وبين كنيسة بيزنطية، وإلى أن بعضهم قد اعتنق الكثلكة منذ زمن بعيد، فقد رأوا أن من شأن الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية أن يخلّصهم من ذلك الاستفراد، إذ أملوا بدعم رومة وسائر دول الغرب التي تتأثر بها، لتحسين أوضاعهم وللتخفيف من معاناتهم ومن جور الحكم العثماني.

عندما قصد القسِّيسان القبطيان رومة كان على السدّة البابوية بيوس الرابع (١٥٥٩ ـ ١٥٦٥)، الذي استجاب لطلب الأقباط، وسارع إلى إرسال راهبين يسوعيين إلى مصر ليحادثا البطريرك القبطي في الموضوع، وليتأكدا من صدق نواياه. فسافر اليسوعيان «وجرت محادثات بينهما وبين عضوين من الطائفة

القبطية عيّنهما البطريرك جبرائيل للقيام بهذه المهمّة. ولكن اليسوعيَّين لم يتوصّلا إلى ما كانا يتوخيان، إذ اعترف محدثاهما القبطيان بأن الأقباط لقَّبوا البابا في الكتاب المرسل إليه بلقب: «أب الآباء» و «راعي الرعاة» و «رئيس جميع الكنائس»، إلاّ ان هذه الالقاب لم يقصد منها سوى الإكرام، وقد جرت العادة أن تحرر الخطابات إلى الأصدقاء بهذا الاسلوب. غير أنهما اعتبرا أن كل بطريرك له السلطة التامة على كنيسته، وذلك منذ مجمع كلسيدونية الذي عيَّن عدة بطاركة مستقلِّين عن بعضهم بعضاً[1] ».

وبعد مضي عشرين سنة على تلك المحاولة الفاشلة، عاود اليعاقبة مسعاهم لدى الكرسي الرسولي سنة ١٥٨٢، وطلبوا أن يزور الأب جان باتيست إليانو مصر، وكان يومها في سورية، ليتحقق بنفسه من صدق نيَّاتهم، وليعطوه البرهان الملموس على إيمانهم وخضوعهم. فاستجاب هذه المرة أيضاً الأب الأقدس إلى طلبهم، وكان على كرسي رومة يومذاك البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي طلب من الأب إليانو أن ينتقل إلى القاهرة ويجتمع بأركان الطائفة القبطية بحضور البطريرك. وكاد أن يتمّ الاتفاق لو لم يتوفَّ البطريرك فجأة. ويزعم الكاثوليك أنه مات مسموماً. على أي حال فإنّ المجلس انفضّ بعد وفاة البطريرك وأُلقي القبض على مندوب البابا باعتباره جاسوساً أجنبياً. وقد اضطّر البابا إلى دفع فدية قدرها خمسة آلاف دينار لاطلاق سراح ممثله وتمكينه من العودة إلى بلاده.

ومرَّ سبع عشرة سنة، فأوفد البطريرك القبطي جبرائيل الثامن هذه المرة مبعوثَين إلى رومة يحملان إقراراً بالايمان عليه توقيعه. وقد ذكر في هذا الاقرار المؤرخ في سنة ١٥٩٧ أنه «يؤمن ايماناً ثابتاً بقوانين مجمع نيقية وبقانون مجمع القسطنطينية، ويعترف بأن أحداً من الذين خارج الكنيسة الكاثوليكية لن يستطيع أن ينال الحياة الأبدية». ولم يأت هذا التصريح على قرارات مجمع

---

١ ـ راجع: تاجر، أقباط ومسلمون، ص ١٩٧ ـ ١٩٨

كلسيدونية (خلقيدونية). وبينما كان المندوبان القبطيان في رومة، أرسل إليهما البطريرك القبطي معلومات تقول: «لا تدعوا أحداً يخدمكم من المترجمين إلاّ من كتّاب جبل لبنان الموارنة. فإنهم من أقاربنا ويعرفون بلساننا. ثم إنكم تُقبِّلوا لنا أيادي السيد البابا وتسألوا من تفضلاته وإحسانه بأن ينعم علينا ويتصدق في كل سنة بترتيب جامكية (عطية) فإننا في غاية الضيق والشدّة. وما تحتاجه كنائسنا وأديرتنا والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام الذين بالسجون والحديد لسبب الجوالي وغيرهم... وأنتم يا أولادي تعرفوا ذلك أكثر مني، ومن عملكم «أن» تعرِّفوا السيد البابا عن ذلك. فإنّ السيد المسيح أعطاه السلطة على سائر المسيحيين، وهو أبوهم وأبونا نحن أيضاً، وحيث ما هو أبونا، فيساعدنا في ضيقنا الذي نحن فيه». وقد أرسل البابا كليمانص الثامن (١٥٩٢ ـ ١٦٠٥) بعض المساعدات إليهم[١].

لا شكّ في أن هذه الرسالة التي بعث بها بطريرك الأقباط إلى رومة نهاية القرن السادس عشر، تكشف عن أن وضع الأقباط في مصر كان في تلك الحقبة صعباً للغاية. ولا عجب في أن يحاول المسؤول الأول عن الأمة القبطية أن يستنجد برومة من أجل حاجات أبناء كنيسته، وإن كان ثمنُ ذلك الرضوخَ لسلطة البابا. على أي حال، فإن رومة قد استجابت لذلك الطلب، واعتبرت الأقباط كاثوليكاً، كما بقي الأقباط في حال اتحاد مع رومة زهاء قرن ونصف. على أنه مثلما دعت الحاجة الأقباط إلى الاتحاد برومة، فاتحدوا، فهم سوف ينفصلون عنها متى دعتهم الحاجة إلى اكتساب تأييد الباشاوات الأتراك، وهذا ما حصل فعلاً[٢].

إذا كان الإنسان المعاصر يعتبر أن مثل ذلك التقلُّب في الولاء وفي الانتماء

---

١ ـ الأب انطون رباط، البابا اكليماندوس الثامن وبطريرك الأقباط جبرائيل، مجموعة مجلّة المشرق، (١٩٠٧ ـ ١٩١٤)

٢ ـ Renaudot (Abbé E.), Historia patriarcharum Alexandrinorum Jacobitarum, (Paris 1713) PP. 601 - 602

مُشين لصاحبه، فيكون من الظلم وصم الأقباط بمثل هذه الصفة، بالنظر إلى واقع حالهم في ذلك العصر من الزمان. بيدَ أن أبناء هذه الطائفة المنسيَّة من قبل عمالقة القيادة المسيحية في العالم، قد عانوا معاناة فيها من الظلم والاضطهاد، ومن غياب إمكانية الصمود والدفاع، ما أجبر مثلُه شعوباً على الهجرة أو إلى التنازل عن الدين. إلاّ أن أبناء هذه الطائفة الذين تمسَّكوا بأرضهم ودينهم، بعد أن تنازل بعضهم عن دينه أو عن أرضه، لا يُلامون إذا استنجدوا تارة بروما وطوراً بباشاوات الأتراك. وللدلالة على بعض ما عانته تلك الطائفة في نصف الألف العثماني، لا بدّ من الاستشهاد ببعض ما سجلته المدونات.

سنة ١٧٨٥ قدم إلى مصر القبطان التركي حسن باشا ليؤكد سيادة الباب العالي عليها. وقد استفاد هذا القبطان من المناسبة، فقرَّر أن يملأ جعبته الخاصة قبل أن يغادر أرض النيل. ومن اجراءاته التعسُّفية التي قام بها ضدّ المسيحيين بهدف تحقيق غايته، أنه أمر «بالمناداة على طائفة النصارى بأن لا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجواري والعبيد، ومن كان عنده شيء من ذلك باعه أو أعتقه، وأن يلزموا زيَّهم الأصلي من شدّ الزنار والزنوط. وأرسل حسن باشا إلى القاضي ليأمره بالكشف عن جميع ما أُوقف على الديور والكنائس من أطيان ورزق وأملاك... وبالمناداة أيضاً على النصارى واليهود بأن يغيِّروا أسماءهم التي على أسماء الأنبياء كابراهيم وموسى وعيسى ويوسف واسحق، وأن يحضروا جميع ما عندهم من الجواري والعبيد، وإن لم يفعلوا، وقع التفتيش على ذلك في دورهم وأماكنهم. فصالحوا على ذلك بمال، فحصل العفو وأذنوا لهم في أن يبيعوا ما عندهم من الجواري والعبيد، ويقبضوا أثمانها لأنفسهم ولا يستخدموا المسلمين، فأخرجوا ما عندهم وباعوا بعضه وأودعوه عند معارفهم من المسلمين[1]». وبعد يومين «نودي على النصارى بإحضار ما عندهم من الجواري والعبيد ساعة تاريخه،

---

١ ـ تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ج٢، ص ١١٥

ثم نزلت العساكر وهجمت على بيوت النصارى لإحضار ما فيها، فكان شيئاً كثيراً، وأحضروهم إلى القبطان، فأخرجوهم إلى المزاد وباعوهم، واشترى غالبهم العسكر، وصاروا يبيعونهم على الناس بالمرابحة. وقرَّر على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة الأمراء المصرية مبلغ دراهم مجموع متفرِّقها خمسة وسبعون ألف ريال. وأمر أيضاً بإحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو في ملكهم، وأن يُكتب جميع ذلك في قوائم، ويقرر عليها أجرة مثلها في العام، وأن يكشف في السجل على ما هو جار في أملاكهم. ثم قرَّر أيضاً خمسمائة كيس، فوزَّعوها على أفرادهم، فحصل لفقرائهم الضرر الزائد. وقرَّر أيضاً على كل شخص ديناراً جزية، العال كالدون (دون استثناء) وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة. وقبض قبطان باشا أيضاً على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقاً من ودائع النصارى. وقبض القبطان على المعلم واصف وحبسه وضربه وطالبه بالأموال، وواصف هذا أحد الكتاب المبشرين المشهورين، ويعرف الايراد والمصاريف وعنده نسخ من دفاتر الروزنامة ويحفظ الكليَّات والجزئيات، ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك... وقبض على بعض نساء المعلم ابراهيم الجوهري من بيت حسن آغا كتخده علي بك، أمين احتساب سابقاً، فأقرت على خبايا، أخرجوا منها أمتعة وأواني ذهباً وفضة وسروجاً وغيرها[1] ».

لم يتوقَّف هذا الظلم بعد رحيل القبطان باشا مالئاً جعبته من أموال مسيحيي مصر، فقد استذوق المسؤولون الأتراك هذا المال الحرام واستمرأوه، فراحوا يستعملون أساليب ذلك الزائر الطامع، ومنها أن عبدي باشا أمر بهدم حارة النصارى في القاهرة وبالمناداة عليهم من ركوب الحمير، «فسعوا في المصالحة وتمَّت على خمسة وثلاثين ألف ريال[2] ».

---

١ ـ المرجع السابق، ص ١١٧ ـ ١٢٠

٢ ـ المرجع السابق، ص ١٥٤

عندما يُطالع الإنسان المعاصر عن مثل هذه الأساليب في افقار الشعوب ظلماً وعدواناً، لا يعود بوسعه أن يلوم المظلومين كيفما تصرَّفوا. ولم يكن ما ورد سوى عيِّنات قليلة من نهج حياة دائم ومستمر، عاشه الأقباط دون أن تقطعه بعض الحقبات الضيقة، مما كاد أن يفنيهم من الوجود. ففي احصائية مسيحية جرت عند الفتح الاسلامي كان هنالك ستماية ألف قبطي يدفعون رسماً للبطريرك. وبعد عشرة قرون على ذلك الاحصاء (١٦٧١) نقص هذا العدد إلى عشرة آلاف[١]! وبينما كان عدد الأساقفة في مصر عند الفتح الاسلامي سبعين مطراناً، فقد انخفض عددهم بعد حوالى ألف ومئة عام إلى اثني عشر أسقفاً[٢].

لم يقتصر تأثير اضطهاد المسيحية في مصر على التقليل من عدد أتباعها، بعد أن مات جلُّهم مذبوحاً أو جائعاً، وأسلم بعضهم هرباً من الموت والمذلَّة، وهاجر البعض القليل إلى خارج مصر، بل تعدَّى ذلك التأثير العدد إلى النوعية. فبعد أن كان أقباط مصر أسياد العلم والتقنية النسبية والمعرفة، أضحوا قلَّة استبدّ بأبنائها الجهل إلى حدّ كان يصعب معه انتخاب بطريرك من بين قساوستهم، الذين أضحى جميعهم متزوِّجين، يهتمون بحاجاتهم المادية أكثر من اهتمامهم بواجباتهم الدينية. وعلى ما كانوا عليه من إيمان وتقوى، كانوا يعتقدون أن الدين ليس سوى مجرَّد تلاوة الصلوات وتعيين تواريخ الاعياد وأيام الصوم. وكان عدد الرهبان قد أضحى على شيء كبير من الصغر، وقد توزَّعوا بين أربعة أو خمسة أديرة كانت قد أصبحت في حالة يرثى لها[٣].

كان الأقباط في عهد المماليك حاجة لا بدّ منها لهؤلاء الأخيرين، نظراً لما كان يتمتَّع به أبناء الطائفة القبطية من علم ومعرفة واختصاص في شؤون الادارة،

---

١ - Vansleb, Nouvelle relation d'un voyage fait en Egypte en 1672 - 73 (Paris, 1677), PP. 298 - 299

٢ - Niebuhr, Voyage en Arabie et en d'autres pays de l'Orient, (Suisse, 1780)

٣ - Thevenot, Relation d'un voyage fait au levant, (Paris 1665), P. 501

ذلك الاختصاص الذي حصّلوه بالممارسة الطويلة وتوارثوه. إلاّ أنهم في الزمن العثماني كانوا قد فقدوا تلك الميزة «ولم يعد من بينهم من يستطيع أن يكون موضع احترام الأتراك لعلمه، أو موضع خوفهم لسطوته. فكان الاتراك يعتبرونهم حثالة القوم وأقلّ منزلة من اليهود، فكانوا يسيئون معاملتهم عندما يحلو لهم ذلك، ويغلقون لهم أبواب كنائسهم ومنازلهم حين يروق لهم الأمر ولأتفه الأسباب وأبعدها عن العدل لكي يغتُصبوا منهم بعض المال[١]».

اذا كان الأقباط الذين عاصروا الأتراك في مدن مصر الرئيسية، كالقاهرة والاسكندرية وأسيوط، قد عانوا المذلّة لتمييزهم عن المسلمين، فإنهم في المناطق البعيدة قد عاشوا، بمنأى عن ظلم العثمانيين، متساوين مع المسلمين، ولكن تلك المساواة... كانت مساواة في الفقر والعوز. أما في المدن، فإنّ القلة الضئيلة منهم التي تمكّنت من تحصيل بعض العلم، قد أصبح أفرادها لا يهتمون إلاّ بتحصيل بعض المال، فعُرفوا بالبخل وببعدهم عن العلوم والفنون، وفقدوا الميل إلى النبوغ[٢]. هذا ما جناه الظلم عليهم.

تجاه هذا الواقع المرير كان من الطبيعي أن يرحّب الأقباط المصريون بالحملة الفرنسية على مصر التي قادها نابوليون الأول سنة ١٧٩٨. فإنّ تلك الحملة كانت أول محاولة لغزو وادي النيل قامت بها دولة مسيحية منذ الحروب الصليبية. وكانت نتيجتها أن حكمت مصر، لأول مرة منذ الفتح الاسلامي، دولة مسيحية. ولأول مرة منذ ظهور الاسلام حاول بعض مسيحيي أوروبة، عبر الحملة الفرنسية، التعاون مع... مسلمي مصر.

ما أن وصل الأسطول الفرنسي إلى مياه الاسكندرية حتى حاول مسلمو المدن المصرية الانقضاض على المسيحيين لإبادتهم، الاّ أن السلطات قد منعت

---

١ - Vansleb, Nouvelle relation, P. 298 - 299

٢ - Description de l'Egypte (Par les savants de l'Expédition), 2e edit. XIV, P. 299

العامة من تنفيذ رغبتها خوفاً من ردّة الفعل الفرنسية. لكن أعمال الدهم والتفتيش طالت بيوت المسيحيين من أقباط وغير أقباط[1] . وقد بقي الاقباط حذرين للغاية من ردّة فعل المسلمين إذا ما هم تظاهروا بفرحتهم لقدوم الفرنسيين. وهكذا، فعندما دخلت الجيوش الفرنسية الظافرة إلى العاصمة المصرية لم ترحّب بها أية جماعة، ولم تلاقَ بأي مظهر من مظاهر التأييد[2] . ولكن عندما أرسل نابوليون في طلب المعلم جرجس الجوهري رئيس المباشرين[3]، قدّم هذا الأخير إلى الجنرال الفرنسي أعيان الأقباط الذين قدّموا فروض الطاعة والولاء للقائد الفرنسي. وممّا يحمل الكثير من المعاني أن أعيان الأقباط قد قصدوا الفاتح الفرنسي وهم «يرتدون الأكسية ذات الأكمام المذهّبة المزدانة بالوريدات الذهبية وعلى رؤوسهم عمائم الكشمير[4] ». وقد اعتبر مؤرخو المسلمين أن «الأقباط والسوريين واليونانيين واليهود أصبحوا لا يُحتملون لأنهم يركبون الخيل ويحملون السلاح!» وذكروا: «أن هؤلاء تطاولوا على المسلمين بالسبّ والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكاناً، وصرّحوا بانقضاء ملّة المسلمين وأيام الموحدين... وأمر الفرنسيون بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها[5] ».

في الواقع حاول نابوليون، في سعيه للحصول على تأييد المسلمين، الاستغناء عن خدمات الأقباط في جباية الضرائب، وهي إحدى الوظائف الهامّة التي كانوا يمارسونها في المجتمع المصري. فعندما ترك مصر أرسل إلى الجنرال كليبر الذي خلفه في مصر كتاباً جاء فيه: «كنت مزمعاً، إن سارت الأمور سيرها الطبيعي، أن أضع نظاماً جديداً للضرائب يجعلنا نستغني عن خدمات الأقباط». وقد صار

---

١ - الجبرتي، ج ٤، ص ٧

٢ - Richardot, Nouveaux mémoires sur l'armée française en Egypte et en Syrie, ou: La vérité mise à jour. (Paris 1848), PP. 59 - 60

٣ - المباشر: وظيفة حكومية. جابي الضرائب

٤ - Homsy G. le général Jacob et l'Expédition de Bonaparte en Egypte, P. 42

٥ - الجبرتي، ج٣، ص ١١٣

الأقباط في عهد بوناپرت من خيبة أمل إلى خيبة أمل. وكان الفاتح الفرنسي يصف الأقباط بأنهم «لصوص مكروهون في البلاد غير أنه يجب مراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لادارة البلاد دون سواهم[1]». وقد كتب ناپوليون إلى قادته في مناسبات عدة يقول: «مهما فعلتم، تأكدوا من أن النصارى في صفّكم، فلا تتردَّدوا إذن في تفضيل المسلمين على النصارى». ولما انتصر على القوات العثمانية في أبي قير وأراد أن يطمئن الأعيان والعلماء عن نياته، صرح علانية: «نعم، اني أكره النصارى. لقد سحقت ديانتهم وحطمت هياكلهم وقتلت قساوستهم وهشمت صلبانهم ونكرت ايمانهم. وعلى الرغم من ذلك فإني أراهم يفرحون لفرحي ويتألمون لألمي. فهل من المعقول أن أعتنق من جديد الدين المسيحي؟ وما هي الفائدة التي سأجنيها من هذا العمل؟».

وكان ناپوليون عندما اقترب من أسوار الاسكندرية تقدم على أنه حامي الاسلام بل بطل من أبطاله فقال: «لسنا كفَّار العصور الهمجية الذين يأتون إليكم لمحاربة إيمانكم. إنَّنا نعترف بأن ايمانكم رفيع القدر. وسوف نعتنق دينكم إذا حلَّت الساعة التي يصبح فيها الفرنسيون الراشدون مؤمنين حقيقيّين[2]»... وفي تصريح وجَّهه إلى الشعب المصري، كان ناپوليون أكثر وضوحاً، إذ كشف فيه عن نواياه الحقيقية، وعن السياسة التي سوف ينتهجها إزاءهم طوال مدة إقامته بينهم، فقال: «أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلاد، قولوا لأمتكم أن الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون. وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومة الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين». ولما احتل القائد الفرنسي البلاد، لم يتأخر عن تنفيذ ما وعد به قبل أن ينقضي شهر على نزوله الاسكندرية، حيث أمر بالاحتفال بذكرى

---

١ ـ تاجر، ص ٢١٣

٢ ـ راجع: تاجر، ص ٢٠٨

المولد النبوي احتفالاً عظيماً كان بونابرت يرتدي فيه زياً شرقياً جميلاً، ويتعمم بعمامة وينتعل بابوجاً، وقد صحبه جميع ضبّاطه وقوّاده إلى المجلس الرئيسي حيث كان مجتمعاً حوالى المائة شيخ، فجلس بونابرت بينهم على وسادات منثورة على الأرض، ثم شبك ذراعيه وأخذ يتلو معهم تواشيح تقصّ حياة النبيّ منذ مولده إلى وفاته، ويكوّر مثلهم أعلى جسده ويحرك رأسه، مما لفت أنظار رجال الدين الذين أُعجبوا بتقواه[١] ».

تعدَّدت الآراء حول الدوافع الحقيقية لمثل هذه المواقف التي اتَّخذها نابوليون من الاسلام. فإنَّ الثورة الفرنسية التي كانت قد أبعدت الفرنسيين عن التدين، جعلت بعضهم يعتبر أن القائد الفرنسي كان صادقاً في مواقفه تلك، خاصة وأنه قد كتب إلى مفتي المسلمين في القاهرة يقول: «أرجو ألاّ يتأخر الوقت الذي أستطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمثقَّفة في البلاد، ووضع نظام ثابت يرتكز على مبادئ القرآن الحقة الوحيدة التي تستطيع إسعاد البشر دون سواها». غير أن بعضهم الآخر قد رأى في مواقف نابوليون ما أملته عليه الاعتبارات السياسية. فلقد غرق الأسطول الفرنسي في أبي قير ولم يبقَ لدى القائد العام سوى بضعة آلاف من الجند. ولما قُطع خط المواصلات بينه وبين فرنسة، وفقد كل أمل في وصول النجدات، لم يستطع، وحوله شعب يكن له العداء، إلاّ أن يأمل، وإن كان هذا الأمل ضعيفاً، في قدرته على كسب عطف هذا الشعب الذي تدين غالبيته بالاسلام. ومما يفيد عن امكانية صحة هذا التصوُّر، محاولة بونابرت القيام بأكبر دعاية ممكنة حول مواقفه الاسلامية تلك، منها أنه كتب إلى أحد جنرالاته في ٢٨ آب (أغسطس) ١٧٩٨ يقول: «قابل من طرفي الشيخ المسيري وقل له فيما تقوله كيف احتفلنا بالمولد النبوي، قل له إني في القاهرة أجتمع برؤساء القضاء وكبار القوم... وإني أكثر الناس اقتناعاً بصفوة الديانة الاسلامية وقداستها...». على أنّ الرأي الأقرب إلى المنطق يقول بأنه: «لمّا كان بونابرت لا يعتنق ديناً، ولا يعترف

١ - Rhyme A., l'Egypte française, Col. "l'univ. pittoresque". P. 64

بوجود الله، فلم يكن من المنتظر أن يثير اعتناقه الاسلام أي قلق في نفسه،إذا كان إسلامه يخدمه في مراميه السياسة. ولكن قواده سَخفوا الفكرة ثم اعترضوا عليها صريحاً[1] ». والثابت على أي حال هو أن بوناپرت «على الرغم من أنه أراد أن يظهر ميله إلى الاسلام أمام المسلمين، فإنَّه لم يتقاعس عن حماية العقائد المختلفة[2] ». وها هو يردّ في كتاب إلى ممثل الأقباط، الذي كتب يطلب الغاء القيود التي فرضها المماليك على شعائرهم الدينية، فيجيب بخطاب مؤرخ في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٩٨ : «استلمت الكتاب الذي أرسلته الأمّة القبطية. وانه من دواعي سروري حماية هذه الأمّة التي لن تكون من الآن فصاعداً موضع الاحتقار، وعندما تتيح الظروف، وهذا ما لا أراه بعيداً، قد أسمح لها بأن تقيم شعائرها الدينية علانية كما هي الحال في أوروبة حيث يتابع كل إنسان عقيدته... وسأعاقب بشدة القرى التي قُتل فيها الأقباط أثناء الثورة التي نشبت. وبوسعك من الآن أن تخبر أبناء طائفتك بأني أسمح لهم بأن يحملوا السلاح ويركبوا البغال والخيول ويضعوا العمامات على رؤوسهم ويتزيوا بما يشاؤون ».

على أي حال، فإن المستندات الموثوقة والتي لا يزال جلُّها محفوظاً، من شأنها أن تدلّ على حقيقة أن بوناپرت الذي حاول بأقواله وأعماله كسب عطف المسلمين، لم يذهب، لارضائهم، إلى حد اضطهاد المسيحيين، وإن لم يُبدِ لهؤلاء ما من شأنه أن يدلّ على عطفه نحوهم.

ولكن بوناپرت، بسياسته هذه، لم يوفق إلى إزالة البغضاء من قلوب المسلمين، ولا إلى الحظوة بولاء الأقباط وسائر المسيحيين له ولاء عميقاً ومخلصاً، وإن كان الأخيرون قد انتهزوا وجود الفرنسيين في مصر ليحاولوا استعادة مكاناتهم الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية.

---

١ ـ تاجر، ص ٢١٠ ـ ٢١١

٢ ـ Thibaudeau A. G., Histoire de la campagne d'Egypte sous le règne de Napoléon le grand, Huzard, (Paris 1839) II, P. 71

ذلك أن المسلمين قد شنوا عليه ثورة أولى في القاهرة دعا إليها أحد المشايخ الصغار. وقد أخذ الثوار الفرنسيين على غرَّة وهم يطوفون الشوارع بدون أسلحة، وقتلوا جميع الذين تعاونوا مع الفرنسيين من مسيحيين ومسلمين. وعندما انتصر نابوليون على العثمانيين في أبي قير وعاد إلى القاهرة، اضطرّ الأعيان والعلماء المسلمون، مرغمين، إلى أن يتوجهوا نحو داره ليقدِّموا له فروض التهاني، ولكنّ الحزن والخيبة كانا باديين على وجوههم، فلامهم بقوله أنه يتعجب من حزنهم لانتصاره، مع أنه كرر لهم أنه مسلم وأنه مؤمن بأن لا اله إلاّ الله وأنه أجلّ النبيّ وأحب المسلمين. عند هذا الحد لا بد لنابوليون من أن يكون قد شعر بفشله في اقناع المسلمين بحسن نواياه. وسوف تبرز مضاعفات هذه القناعة بعد أن تسلم الحكم الفرنسي في مصر معاونو الفاتح الفرنسي. فلمّا طلب ثوار القاهرة الأمان، لم يرَ القائد الفرنسي كليبر مانعاً من منحهم اياه، ولكنه أثقل الضرائب على البلاد، ثم أرسل في طلب العلماء والأعيان وألقى فيهم خطبة ملؤها التهديد والوعيد، وصفهم فيها بالأشرار الجاحدين، وأعلن عن فرض ضريبة استثنائية على جميع السكان، ما عدا النصارى الذمّيّين[1].

بعد انتصار كليبر في سهول عين شمس وقضائه على الثورة الداخلية، تشجَّع المسيحيون، وشعروا بأن الفرنسيين قد ثبَّتوا أقدامهم في مصر، فراحوا ينتقمون من المسلمين بالسباب والضرب والاعتداء. بيدَ أن اغتيال الجنرال كليبر قد أوقف تلك الروح العدائية لدى المسيحيين المستقوين بالفرنسيّين، لأن خليفة كليبر، وهو الجنرال مينو، كان أقل ثقة بالأقباط من سلفه «فصار الفرنسيون يعاقبون بقسوة المباشرين الأقباط الذين اختلسوا الأموال، ويتربَّصون الفرصة للاستغناء عن هؤلاء الموظفين غير المخلصين، وقد أمر مينو بالقبض على بعض هؤلاء وبمعاقبتهم[2]». وفي

١ ـ مذكّرات نقولا ترك، ص ٨٩ ـ ٩٠

٢ ـ Rigault G., le général Abdallah Menou et la dernière phase de l'expédition d'Egypte (1799 – 1801) Paris plon, (1911) XX, 403 PP. 118

النهاية اتّهم الأقباط الفرنسيين بأنهم يريدون التخلُّص منهم كي يختلسوا مال الخزينة العامة. على أن هناك نقطة لا تزال غامضة، ألا وهي تعاون الأقباط العسكري مع الفرنسيين من خلال الفرقة القبطية التي كان يقودها قبطي، مُنح رتبة جنرال في الجيش الفرنسي هو الجنرال يعقوب[1].

« كان يعقوب يشغل وظيفة مباشر قبل أن ينضم إلى صفوف ابراهيم بك ومراد بك في المعركة الكبرى التي دارت بين جيوش المماليك وجيوش القبطان باشا العثماني، وقد اغدق البكوان عليه النعم حتى أصبح وجيهاً ثرياً بين أبناء قومه. وعندما جاء الفرنسيون أعلن يعقوب عن ولائه التام لهم والتحق بجيشهم وبرهن عن مهارة في الفنون الحربية بخلال مواجهة الثورات المصرية، مما جعل الفرنسيين يستجيبون لطلبه تجنيد فرقة من الأقباط يتولى قيادتها، وقد بلغ عدد أفرادها ثمانمئة رجل. إلاّ أن تلك الفرقة لم تشترك في أيّة معارك، بل بقيت معسكرة في القاهرة، وقد ركن جندها إلى الفرار أو الاختباء عندما رحل الفرنسيون ومعهم يعقوب الذي توفي على ظهر الباخرة، فألقيت جثته في عرض البحر ».

كان لرحيل الفرنسيين عن مصر ردَّة فعل متوقِّعة ضد المسيحيين، رغم أن الاتفاقية التي وُقِّعت قضت بأن لا يُضطهد الذين يقطنون مصر، مهما كانت ديانتهم، في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم بسبب علاقاتهم مع الفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر، على أن يتبع هؤلاء قوانين البلاد. إلاّ أن تلك النصوص لم تمنع الشعب المسلم من توجيه غضبه إلى المسيحيين بعد انسحاب الفرنسيين. وهكذا فقد عملت الظروف مرة جديدة لكي يدفع الأقباط، من أرواحهم وأموالهم، ثمناً لفشل مستعمر، ولسوء اهتمام العالم المسيحي بهم من جهة، ولسوء معاملة العالم الاسلامي لهم من جهة أخرى.

---

١ - راجع: جورج ودوان، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ (القاهرة ١٩٣٢).

إذا كان ناپوليون بوناپرت، وعظمته الفرنسية، قد فشل في السيطرة على مصر واستعمارها وحكمها، فمن سخرية الاقدار أنّ ضابطاً ألبانياً كان قد قدم البلاد حديثاً، واشترك ضد الفرنسيين في معركة أبي قير وأبلى فيها بلاء لاقتاً، فعيّنه العثمانيون والياً على مصر، سوف يتمكّن، ليس من مجابهة السلطنة العثمانية وحسب، بل ومن تأسيس عائلة مالكة لوادي النيل، سوف يرثها أحفاده عن أبنائه بعد أن رضخت له البلاد المصرية بجميع طوائفها رضوخ المطيع، دون أيّة محاولة تمرُّد أو تململ.

كافالاّ Kavalla، أو قولَه: مرفأ في شمالي شرقي اليونان، على بحر ايجه، وُلد فيها محمّد عليّ سنة ١٧٦٩ وعُرف بالألباني. ويلتقي المدونون مع هذا الرجل مقاتلاً إلى جانب العثمانيين في معركة أبي قيرِ سنة ١٧٩٩. ثم عندما عُيِّن والياً على مصر سنة ١٨٠٥. ويصبح منذ ذلك التاريخ ملازماً للأحداث، فينتصر على الجيوش البريطانية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧، ويشترك مع الأتراك في مواجهة الوهابيين المنطلقين من نجد فينجح في قهرهم، ويدعم الباب العالي في ميدان القتال اليوناني حيث ثار الشعب مناضلاً من أجل استقلاله، ويوجّه حملة إلى الجزيرة العربية بين ١٨١١ و ١٨١٩، ويفتح السودان بين ١٨٢١ و ١٨٢٣. وإذ لم يقدِّر له الأتراك خدماته ويلحقوا، سورية على الأقل، بإمارته، بدأ محمّد عليّ سنة ١٨٣١ بغزو فلسطين وسورية وهدفه الأبعد تركية بالذات. وقد قاد ابنه ابراهيم باشا[١] تلك الحملة التي استمرت سنتين. أتبعها بحملة ثانية (١٨٣٩ ـ ١٨٤٠) بلغ فيها الأناضول، ولم يوقفه إلاّ التدخل الأوروبي من خلال اتفاقية كوتاهية سنة ١٨٣٣ بالنسبة للحملة الأولى، ومعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ بالنسبة لحملة الثانية. وإذا كان محمّد عليّ لم يضع يده على الباب العالي، انما هو ضمن لنفسه الحكم الوراثي على مصر، فنهض بها ونماها وطورها علمياً وثقافياً وزراعياً. وإنَّ ما حققَّه

١ ـ راجع: أسد رستم، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (القاهرة ١٩٤٨) ص ١١٣ ـ ١١٩

هذا الرجل الفذ لمصر، كان ينوي تحقيقه لسائر البلاد العربية. وقد كان أشدّ الدول حماساً لتراجعه: بريطانية، التي كانت تخشى، في حال زوال تركية كقوة في الشرق الأدنى، أن تتعرض طريق الهند إلى المخاطر، وأن يتعرض مركزها في الهند إلى السوء. وهكذا قُضي على الحلم الذي حلم به محمّد عليّ بإنشاء دولة عربية يرئسها. كما أن الشعب العربي لم يتحمس للفكرة، ولم تكن نزعة الاستقلال قد اختمرت في العقول بعد[1]. وقد جاء في تداوين بعض المستشرقين ما يشبه النبوءة إذ قال: «إن مصير مصر كان يتوقف على رجلين اثنين: محمّد عليّ وابنه ابراهيم... وانت إذا قيّض لك أن تزيل هذين الرجلين عن المسرح فلا يبقى من مصر شيء ولا يبقى من حلم الامبراطورية العربية شيء[2]».

أدخل محمّد عليّ في مصر، كما أدخل ابنه ابراهيم باشا، اصلاحات جذرية: فقد سمح للمسيحيين بأن يتبوأوا مراكز حكومية عالية، وأن يركبوا الخيل، ويتعمَّموا العمامة البيضاء. بمعنى آخر فإنهما ألغيا التدابير الذميّة. وأخذ المسيحيون في مصر وسورية يمارسون طقوسهم الدينية بحريَّة، فيخرجون في المواكب والزياحات. ولم يفرّق محمّد عليّ في مصر بين القبطي والمسلم، بل راح يوقّع التصاريح للأقباط ببناء الكنائس وترميمها[3]. ولأول مرة منذ أمد بعيد أوصى محمّد عليّ عمّاله في فلسطين «بالقبط الذين يريدون الحج إلى القدس وأن لا يُدع لأحد مجالاً في التدخل في شؤونهم[4]». وقد تكرَّرت هذه التوصيات في الوثائق، خلال الأعوام اللاحقة. وكان محمّد عليّ، وابنه ابراهيم باشا، أول الحكام المسلمين الذين منحوا الموظفين الأقباط في مصر، وسائر المسيحيين في سورية،

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥١٢

٢ ـ De Lamartine, voyage en orient (Paris 1859) Vol.I.P. 42

٣ ـ محفوظات عابدين، سجل ٧٢٨ «تركي»، ديوان الخديوي، بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٥ هـ. (١٨١٩)؛ محفوظات عابدين، أمر عالي بتاريخ ١٨ رمضان ٢١٧١ هـ. (١٨٥٤) سجل ١٨٨٢ ص ٤٢٦

٤ ـ محفوظات عابدين سجل ١٩ «معية تركي» بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٤١هـ. (١٨٢٥)

رتبة البكوّية، واتخذوا لهم مستشارين من النصارى[1]. وعندما كان المسيحيون في مصر يتعرَّضون للاعتداءات، كان محمّد عليّ «يمدّهم بالبارود وآلات الحرب دون المسلمين. حتى إنهم استأذنوا السلطات في سد بعض الحارات النافذة التي يخشون وقوع الضرر منها، فحصل ذلك[2]». وكان يعاقب حكّامه المسلمين الذين كانوا يظلمون الأقباط وسائر المسيحيين[3]. وقد أبدى محمّد عليّ احتراماً، لا بل إيماناً بالمسيحية، فقد أمر سنة ١٨١٠ بأن تقام الصلوات لترتفع مياه النيل، «فخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضاً، واجتمعوا بالروضة، وصحِبتُهم القساوسة والرهبان، وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير في تجمل زائد، وصحبتهم طائفة من أتباع الباشا بالعصي المفضضة[4]».

قد يبدو من ذلك أن محمّد عليّ لم يكن مسلماً حقيقياً، بينما الوقائع تؤكد العكس، فهو كان يكافئ الذين يعتنقون الاسلام منحاً نقدية، ويعيِّنهم في الوظائف الحكومية[5]، ولم يتردَّد في معاقبة المسلمين المرتدين علانية، وقد حكم بالموت إغراقاً على امرأة ارتدت عن الاسلام وتزوَّجت مسيحياً[6]. وقد حثّ محمّد عليّ الكولونيل الفرنسي سيف Sève، الملقب بسليمان باشا، على اعتناق الاسلام قبل أن يسلمه قيادة الجيش حيث لا يجوز لغير المسلم أن يتولاها. لذلك لا يمكن القول، رغم الفارق بين هذا الحكم والأحكام السابقة، بأن المسيحيين في مصر قد تساووا مع المسلمين في هذا العهد. ولا شك في أن محمّد عليّ كان يحسب للرأي

---

١ ـ رستم، ذكرى الفاتح ابراهيم باشا، ص ١١٣ ـ ١١٤

٢ ـ الجبرتي، ج ٤، ص ٢٢٦

٣ ـ Paton Andrew Archibald, A history of the egyptian revolution from the period of the mamelukes to the death of Mohammed Ali (London, 1870), Vol II, PP. 236 - 237

٤ ـ الجبرتي، ج ٤، ص ١٢١ ـ ١٢٢

٥ ـ محفوظات عابدين، سجل ٥٧ «معية سمية تركي» ص ٣٤؛ محفوظات عابدين، سجل ٢١ «معية تركي» ص ٨٤، تاريخ ٧ ذي القعدة.

٦ ـ Laine E.W., An account of the manners and customs of the modern egyptian, (London 1871) P. 126

العام المسلم حسابا، فلم يتمكن من المبالغة في تلك المساواة، وها هو في معرض مديحه لأحد المباشرين النصارى، واسمه عبود، يقول: «إنه يحبه ويثق به ولولا الملامة لقلده الدفترداريَّة[1]».

سار خلفاء محمّد عليّ، من الأسرة المالكة التي أسَّسها، على خطاه. فإنَّ حفيده عبَّاس حلمي الأول، ابن ولده طوسون (١٧٩٣ - ١٨١٦) الذي كان يكنّ العداء للأوروبيين فاستغنى عن عدد كبير من الموظَّفين الفرنسيين، قد عيّن وزيرين للخارجية من أصل أرمني، ولم يفكِّر في التخلُّص من المباشرين الأقباط، ولم يصدر عنه أيّ أمر عدائي ضدّ الطوائف المسيحية[2]. وكان عبَّاس خديوياً على مصر بين ١٨٤٨ و ١٨٥٤. خلفه عمه سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣) ابن محمّد عليّ الذي منح فردينان دي ليسيبس الرخصة لفتح ترعة السويس. وقد بُني في أيامه مدينة بور سعيد المنسوبة اليه، والقلعة السعيدية عند القناطر الخيرية. وإليه يعود الفضل في إدخال المسيحيين، وخاصة الأقباط، في صلب الأمة المصرية، إذ قرَّر قبولهم في الجيش وتطبيق قانون الخدمة العسكرية عليهم[3]. بيدَ أن الأقباط قد خافوا هذا القرار، ووسَّطوا البريطانيين مع الخديوي لاعفائهم من الخدمة العسكرية، فكانت ردَّة فعل سعيد أن أقال عدداً كبيراً من الموظفين الأقباط. أما بطريركهم، الذي كان قد ضغط على الارساليات البروتستانتية لتضغط على الوالي كي يعفى الأقباط من الخدمة العسكرية، فقد مات بعد ذلك بقليل مسموماً[4]. غير أن ذلك لم يمنع من أن ينتظم الأقباط في سلك الجيش في عهد الخديوي إسماعيل، حفيد محمّد عليّ من ابنه ابراهيم، الذي تولَّى الحكم سنة ١٨٦٣، فدشَّن قناة السويس سنة ١٨٦٩، وأبدل بالمحاكم القنصلية المحاكمَ المختلطة. وقام بالمشاريع العمرانية وفتح

---

١ - الجبرتي، ج ٤، ص ٣٠٣

٢ - تاجر، ص ٢٣٥

٣ - محفوظات عابدين، سجل ٥٠٥ «معية سنية تركي» رقم ٢١

٤ - Butcher E. L., the story of the church of Egypt. (London 1897). Fowler M., Christian Egypt: Past present and futur, (London 1901), XIV

المدارس. لكنه بالغ في إسراف المال فوقعت مصر في عجز وازداد دَين الأجانب عليها، مما أدّى إلى تدخُّل الدول الأجنبية، وإلى ثورة عرابي باشا وعزل إسماعيل سنة ١٨٧٩ الذي لجأ إلى الاستانة حيث توفي سنة ١٨٩٥. وكان هذا الخديوي قد تلقَّى علومه في فيينة ثم في باريس مما أوجد في نفسيته تلك الروح العلمانية. ولأول مرة في التاريخ المدوّن نطالع مثل الحادثة التالية:

«عند تولى إسماعيل باشا السلطة وجَّه إليه أحد كبار الموظفين سؤالاً حول موقفه من موضوع أحد الأقباط، ويدعى خليل عوض الحاوي، الذي يريد اعتناق الاسلام، فأجاب: إن خليل عوض الحاوي من أهالي السلمية ومن طائفة الأقباط، قدم عرضاً يطلب فيه الخروج عن الدين المسيحي، برغبته وبدون إجبار، واعتناقه الدين الاسلامي. فإنه يجب استحضار كم قسيساً من قسس الأقباط، وكم عمدة من عمد الأقباط، لأجل إقرار خليل عوض الحاوي أمامهم بأنه راغب اعتناق دين الاسلام، من غير أن يجبره أحد في ذلك، لأجل إلاّ تكون هذه المسألة وسيلة فيما بعد للتشكي، وبعد اقراره أمامهم يصير التَّصديق منهم على الإقرار ويُحفظ بالمديرية[1]». وعندما أُريد تنظيم أحد شوارع مصر الذي فرض التخطيط، لتقويمه، أن يمر بكنيسة الأقباط، عرض الخديوي الأمر على الأنبا ديمتريوس البطريرك آنئذ، عارضاً «أن تبنى له كنيسة أفخر من هذه الكنيسة، وكذا داراً للبطريركية أفخر من دارها الحالية، كل ذلك على نفقة الحكومة في نظير مرور الشارع معتدلاً. فأجاب البطريرك قائلاً: إني أتشاءم من هدم معبد ديني ليكون طريقاً. كما إنني لا أرضى للجناب الخديوي أن يوافق على هذا العمل. ولما عُرض الأمر على الخديوي قال: لتكن إرادة البطريرك وليبقَ المعبد قائماً كما هو[2]».

أكثر من ذلك، ولأول مرة في تاريخ مصر، طلب هذا الخديوي منح المدارس

---

١ ـ محفوظات عابدين، سجل ٥٣٠ «معية سنية تركي» بتاريخ ٢٠ محرم ١٢٧٠ هـ. (١٨٧٠)

٢ ـ تاجر، ص ٢٣٩

القبطية الأورثوذكسية إعانات مالية. حتى إنه وضع مركباً بخارياً تحت أمرة البطريرك القبطي ليطوف برعيته ويحثّها على البقاء في كنف الكنيسة القبطية. وأخيراً قرَّر إسماعيل جعل المساواة رسمية بين الاقباط والمسلمين عندما أَفسح في المجال لترشيح الاقباط لانتخابات أعضاء مجلس الشورى، ثم لتعيين قضاة من الأقباط في المحاكم. وقد نص قانون، سنة ١٨٦٦ الخاص بانشاء مجلس الشورى في مادته الثانية، على أن «كل شخص بلغ من عمره الخامسة والعشرين يمكن ترشيحه شرط أن يكون أميناً مخلصاً وأن تتأكد الحكومة من أنه وُلد في البلاد». وفي عهده أجمع النواب بمناسبة مناقشة سياسة الحكومة التعليمية، على أنه يجب على المدارس الأميرية أن تقبل أولاد النصارى والمسلمين بدون تفرقة. وكان إسماعيل أول حاكم في مصر المسلمة قد طلب رتبة الباشاوية لمسيحيّ، هو نوبار باشا. وممّا قاله هذا الخديوي لأحد الغربيين: «يعيش المسيحيون في تركية في جو من التسامح المشوب بالاحتقار! وأما في مصر فإنَّهم يعيشون قي جو من التسامح المقرون بالاحترام[١]».

وفي عهد إسماعيل استقرَّ عدد كبير من الأقباط في السودان حيث جنوا ثروات طائلة من خلال التجارة، ولكن ثورة المهدي سوف تسبِّب لهم أضراراً لن تعوّض.

في الواقع قد يتطلَّب أمر عدم التمييز في البلدان الاسلامية بين الأكثرية المسلمة والأقلية المسيحية زمناً طويلاً، إلى حدّ أن الفكر البشري لا يسعه تقديره. وليست عملية القضاء على هذا التمييز قضاء نهائياً لتحصل بقرار حاكم أو من جرّاء سياسة سياسي، بل إن مثل هذا التحوُل يتطلَّب تبديل المفاهيم الأساسية عند الشعوب. ومتى كان الدين أساس هذه المفاهيم، يصبح من المستحيل تبديلها أو تغييرها جذرياً، وإن كان بالامكان التخفيق من حدتها وتطرُّفها في وقت من

١ - Charmes G., Cinq mois au caire et dans la basse Egypte (Paris 1820), P. 162

الأوقات، غير أنها لا تلبث ان تطفو من جديد على سطح الأحداث خاصة في حالات المفاصل التاريخية، وفي حالات الغليان الشعبي بسبب الثورات والانتفاضات. فالبرغم من كل ما فعله محمّد عليّ وأحفاده في مصر من أجل التوصُّل إلى صهر المجتمعات المصرية في مجتمع واحد، وقد اصبح مسيحيون قبط يصلُون بواسطة الانتخاب إلى مراكز العمدة، لا بل رئاسات الوزارات، قبل ثورة عرابي باشا، التي سبقها تضامن وتعاون بين المسلمين والمسيحيين في مصر، فما أن وقعت الحوادث الدامية في صيف سنة ١٨٨٢، حتى قام الثوّار المسلمون بمهاجمة الاقلية المسيحية، خاصة بعد ضرب الاسكندرية بالمدافع. وهكذا تبيَّن أن ما وُصف بالوحدة القومية في مصر قبل ذلك التاريخ لم يكن وحدة يُركن اليها نهائياً.

ومثلما فعل المسلمون عند شعورهم بالتفوُّق، كذلك نجد المسيحيين يتحينون الفرص لمعاملة هؤلاء بالمثل. فما أن جاء الاحتلال البريطاني في أعقاب ثورة الضبَّاط، «واحتلت دولة مسيحية بلداً اسلامياً، حتى اجتمع الأقباط في هيئة مؤتمر في مدينة أسيوط وتقدَّموا بمطالب عديدة باسم «الأمّة القبطية» وسرعان ما اجتمع أعيان المسلمين في مؤتمر مضاد وانكروا على الأقباط مطالبهم[1]». وراح الناس يتحدَّثون عن «الخيانة» وعن «محاولة الاقليَّة المسيحية استغلال وجود دولة أوروبية لمصلحتها»، أما المعتدلون «فقد تأسَّفوا لعمل الأقباط بأسيوط وقالوا إنهم وقعوا ضحية دسيسة انكليزية كان يُقصد منها بذر التفرقة في البلاد للسيطرة عليها» بينما اعتبر «مبرّرو» الأحداث انه لم يكن هنالك أية خيانة، ولا أية دسيسة من قبل الانكليز، بل إن مؤتمر أسيوط القبطي لم يكن سوى صدفة[2]!.

قد يكون من المبالغة في طيبة القلب، أو من المبالغة في استطابة قلوب الآخرين، ان تُرد أحداث مثل تلك إلى الصدفة. فالواقع ان الاقلية المسيحية التي

---

١ - تاجر، ص ٢٤٤

٢ - المرجع السابق. ص ٢٤٥

كبتت ما كبتته عبر قرون طويلة من التاريخ، لن يمكنها إلاّ أن تحاول التمسك بحبال هواء الأحداث، كلما لاح لها طيف بدا وكأنّه ذلك المخلّص المنتظر. ومتى اتّضح لهؤلاء أن صاحب ذلك الطيف لم يكن سوى مستعمر، أو محتل، أو فاتح آخر، لا يعني انتسابه الديني أي سبب لتفضيل فئة من الاثنيات الواقعة تحت الاحتلال على فئة أخرى، سوى بقدر ما تؤمنه له تلك الفئات من مصالح، كانوا يعودون ليقولوا بتفضيل المسلم ابن البلد على المسيحي الأجنبي. ذلك هو قدر الأقليات المسيحية في الشرق، التي طالما وجدت فيها القوى الاستعماريّة المسيحيّة موضوعاً قابلاً للتعاون، أو بالأحرى لخدمة مصالحها. ومثلما حصل ذلك أيام الفرس فالبيزنطيّين فالصليبيين فالفرنسيين، كذلك حصل عندما زكّر البريطانيون أنظارهم على وادي النيل. وهنالك من الوثائق المحفوظة ما من شأنه أن يسكت كل من يحاول أن يقول بعكس هذه المقولة. وها هو المستر وليم هاملتون، قائد الاسطول البريطاني سنة ١٨٠١ يكتب من مدينة أثينة في تموز (يوليو) ١٨٠٢: «يميل الاقباط كثيراً إلى الانكليز وهم في هذه الآونة شديدو الاستعداد لإجابة مطالب الحكومة البريطانية[١]». ولمّا أهمل البريطانيون هذه العروض، تحوّل الاقباط إلى الفرنسيين. وقد كتب الجنرال سبستياني، بدوره، في التقرير الذي رفعه إلى بونابرت بتاريخ كانون الثاني (يناير) ١٨٠٣ يقول: «اقترح المباشر القبطي أن يرسلني ليطلعني على الحوادث الهامة في مصر وسورية، وعرض خدماته وخدمات امّته في حالة تطلعنا إلى الشرق. وتدل جميع المظاهر على شدّة اخلاصه لنا، ولكني اجبته بأن ليس عندي تعليمات بهذا الشأن[٢]». غير انهم مثلما خيّب أملهم الاحتلال البونابرتي في بداية القرن التاسع عشر، ها أن أملهم يخيب من الاحتلال البريطاني قبيل نهايته، ويعتبرون أن «رجال الاحتلال أباحوا للمسلمين، بل

١ ـ الوثائق الانكليزية التي نشرها المسيو «دوان» في منشورات الجمعية الجغرافية الملكية المصرية تحت عنوان L'Angleterre et l'Egypte ص ٤٠٨

٢ ـ تاجر، ص ٢٣٠، عن الوثائق الفرنسية: L'Egypte de 1802 à 1804 ص ١١

أعدّوهم، لدخول جميع الوظائف الكتابية والحسابية وغيرها مما كاد ان يكون قبلاً محتكراً للأقباط... ان الاحتلال البريطاني قضى على احتكار الأقباط لبعض الوظائف».

وسط كل هذه العقد الناشئة عن سخرية الأقدار اللاعبة بمصائر الاقليات، بين الاكثريات، في المجتمعات البشرية، يقول قبطي مفكر: «لقد حدث لنا ما يحدث عادة لشعب مظلوم تحسّنت حالته، وفُكَّت عنه القيود، فتذمّر بدلاً من أن يُظهر امتناناً. والواقع أننا نشعر في هذه الحالة بحدّة الآلام التي ما زالت فينا، وبالنير الذي ما فتئنا نحمله ونحترق شوقاً إلى امتلاك الأشياء التي تذوقنا جزءاً منها. وكنا فيما مضى نرضخ، بحكم العادة، لما لا بدّ منه ولمصيرنا المحتوم. ولكن إذا كانت التجارب تدلّ على استطاعتنا التحرر من هذه القيود، طلبنا بفارغ الصبر الحريَّة التامة والمستعجلة. وبينما كنا لا نجرؤ على المطالبة بشيء في الماضي، فان جرأتنا تزداد كلما تحققت مطالبنا وتزداد رغبتنا في ما نجرؤ على المطالبة به[1]».

وها هم الأقباط فعلاً يرفعون، بواسطة أعيانهم، في العقد الأول من القرن العشرين، إلى سلطات الاحتلال ومعاونيها، عريضة يطالبون فيها بالمساواة الكاملة فيما يختصّ بالتعيين في الوظائف الإدارية، وبإغلاق المحاكم يوم الأحد، وبتعيين أعضاء اضافيين في الجمعية الاستشارية، وبتعليم الدين المسيحي للطلبة المسيحيين في المدارس الرسمية. وإذ قبلت السلطات المطلبين الثاني والثالث، وطرحت المطلبين الآخرين على بساط البحث، استقبلت الصحف القبطية هذا التجاوب بالتهاني، بينما استنكرت الصحف الاسلامية ما رحّبت به الصحف المسيحية، فكانت فاتحة نزال عنيف بين الصحافتين. وقد استشرت الأزمة عندما ترك الباشا المسلم مصطفى فهمي الوزارة، وحلّ محله الباشا القبطي بطرس غالي في شتاء ١٩٠٨، فارتاح الأقباط وكفّوا عن التذمر بينما سارع المسلمون إلى اغتيال بطرس. وهنا برز مُصلِح آخر متفائل، هو مصطفى كامل مؤسّس الحزب الوطني، أول من جمع تحت لواء الوطنية،

---

١ - تاجر، ص ٢٤٩

المسلمين والأقباط، وخطب قائلاً: «إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد ... الأقباط أخوة لنا في الوطن». إلاّ أن مصطفى كامل نفسه قد وضع في برنامج الحزب الوطني نفسه «أحقيّة المسلمين دون سواهم بحجة أنهم يدينون بدين الدولة الرسمي»[1]. وما أن مات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وخلفه محمّد بك فريد حتى ساءت العلاقات بين المسلمين والأقباط من جديد. فلقد امتنع محمّد بك عن التأسّف لاغتيال الزعيم القبطي بطرس غالي، حتى إنه شنّ أعنف هجوم سياسي على الأقباط يومذاك. فكانت ردّة فعل الأقباط أن حرموا على أبنائهم الانخراط في الحزب الوطني. وهنا، ومثلما جرت وستجري العادة في أي من البلدان العربية عندما تحاول أقلّية مسيحية أن تحقّق لها بعض المكانة أو الكيان، فقد قام المسلمون من خلال ما عُرف بالمؤتمر الاسلامي الذي عُقد في مصر الجديدة، واتهموا الأقباط بمحاولة «تقسيم الأمة المصرية باعتبارها نظاماً سياسياً إلى عنصرين دينيين: أكثرية اسلامية وأقلّية قبطية[1]». وقد يكون ما جاء في تقرير هيئة تنظيم ذلك المؤتمر، أصدق ما يرسم واقع الحال دونما مواربة أو مسايرة:

«ان مثل هذا التقسيم يستتبع تقسيم الوحدة السياسية إلى أجزاء دينية، أي تقسيم الشيء إلى اقسام تخالفه في الجوهر... إنّ لكل أمة ديناً رسمياً وذلك ضروري بل مشخّص من مشخّصاتها، ودين كل أمة هو دين حكومتها أو دين الأكثرية فيها. ولكن من غير المفهوم بالمرة أن يكون في الأمة أكثر من دين رسمي واحد، وعليه فلا معنى للاعتراف بأقليات دينية تعمل في السياسة بهذه الصفة أو تكسب حقوقاً عامّة أكثر من أن تخلي بينها وبين القيام بواجباتها الدينية عملاً بحرّية الاعتقاد... وبعد ذلك كيف يمكن الاعتراف بأن أقلّية دينية تباشر بهذه الصفة الأعمال العمومية ويكون لها مطالب خاصة كأنما هي أقلية سياسية؟ لا يمكن الاعتراف بذلك إلاّ إذا أمكن أن يكون للأمة دينان في آن واحد وأن يكون أساس الأعمال في المصالح العامة هو الدين... فمن الخطأ أن يكون من الأشياء المسلم بها اعتبار أن الأمة السياسية تتألّف من عناصر دينية[2]».

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٢٥٢، عن «أعمال المؤتمر» ص ٥

٢ ـ المرجع السابق

وتعود دورة الأمر الواقع إلى دورانها. ويبرز مصلح آخر. وتكمل الاقدار سخريتها. فيعترف مؤتمر الصلح، المنعقد بباريس، بعد الحرب العالمية الأولى، بحقوق بريطانية على مصر. فتقوم قيامة المصريين جميعاً: مسلمين ومسيحيين. ويبرز سعد زغلول، ويلحظ خطر إبعاد الأقباط عن عمل يتوقف نجاحه على اتحاد مصر جمعاء. وينضمّ الأقباط إلى حركته بحماس. فكانوا أكثر تحمّساً للملكية من الملك نفسه. وراح القساوسة يحضون على حب الوطن من على المنابر، لا بل كان المشايخ المسلمون يقفون إلى جانبهم، خلف المذابح يخطبون في الكنائس... وظهرت الفولكلورية: أعلام عليها صلبان تعانق الهلال... وينتهي، في المحيط، نصف الألف العثماني، وأقباط مصر في مهب رياح الزمن الآتي.

الكنيسة البروتستانتية

الكنيسة، أو على الاصح: الكنائس البروتستانتية، هي الكنائس المسيحية الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية تحت تأثير لوثر[1] وكلفين[2]. انتشرت في المانية والبلدان الاسكندينافية واسكوتلندة وسويسرة ثم في أميركا الشمالية. وهي مُتشعبة إلى كنائس يختلف بعضها عن بعض في عقائدها وقوانينها. أهم فروعها اللوثرية والكلفينية والأنغليكانية. وتُعرف الفروع الأولى بالكنائس الانجيلية. وتعتبر هذه الكنائس الكتاب المقدس مصدراً وحيداً للوحي، ولا تعترف بالكهنوت.

---

١ - لوثر (مارتين) Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦): راهب اغسطيني لاهوتي مفكر وكاتب. بدأ في ألمانية الاصلاح الديني (البروتستانتية) وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات وسلطة البابا والتبتّل وإكرام القديسين والمطهر والقداس سنة (١٥١٧)، نقل «التوراة» إلى الالمانية، فكانت الترجمة حدثاً أدبياً ودينياً.

٢ - كلفين (يوحنا) Calven (١٥٠٩ - ١٥٦٤). مصلح فرنسي. نشر في فرنسة وسويسرا مذهباً حمل اسمه، انشأ في جنيف حكومة تيوقراطية. له كتاب «الاسس المسيحية» جعل منه أكبر لاهوتي عرفه الاصلاح.

عندما استقلّت المستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية قبل نهاية القرن الثامن عشر، وانتظمت شؤون الدولة الجديدة تحت اسم الولايات المتحدة الأميركية، كثر عدد المهاجرين البروتستانت حتى أصبحوا يشكّلون أكثرية السكان. وكان هؤلاء بمعظمهم من أتباع الكلفينية. وأسّسوا في العام ١٨١٠ جمعية مبشّرين رسمية للتبشير في ما وراء البحار.

مثلما اهتمّ سائر المبشّرين المسيحيين، من مختلف الملل والفصائل، قبل نهاية القرن التاسع عشر، بالشرق عموماً، وبالأراضي المقدّسة خصوصاً، كذلك فعل هؤلاء البروتستانت الذين شعروا بواجب التبشير والدعاية لإيمانهم. فبعد أن انتظموا في وليامس تاون من أعمال نيواينغلند في الولايات المتحدة بداية القرن التاسع عشر، وقامت جماعة من الأتقياء منهم ونذر أفرادها حياتهم لأعمال التبشير فأسّسوا سنة ١٨٠٨ جمعية الاخوة، ثم التحقوا بكلية أندوفر للاهوت وبثّوا دعايتهم في كلية وليام، انضمّ هؤلاء إلى الجمعية الأميركية للتبشير في الخارج، بأرض الشرق، فأرسلوا سنة ١٨١٩ طلائع مبشّريهم إلى فلسطين. وقد ساعد هؤلاء الروّاد جمعية التبشير الانجيلية الفرنسية[١]. وسرعان ما انبثّ هؤلاء، وكان عددهم لا يزيد على عدد أصابع اليد، في فلسطين ومصر ولبنان وسورية وفارس وأرمينية. وقد التحق بالمرسلين البروتستانت الأميركيين والفرنسيين، آخرون بريطانيون كان أولهم «لويس واي» الذي جاء بيروت سنة ١٨٢٣ واستأجر مقر الآباء اليسوعيين في عينطورة كسروان وجعله مركزاً للتبشير البروتستانتي[٢].

كان التعليم والمال من العناصر التي توسّلها المرسلون البروتستانت لجلب

---

١ - راجع: Thompson A. E., A century of Jewish mission p. 176; Strong W., the story of the american board, P. 80; Bianquis J., les nouveaux devoirs du protestantisme français en Syrie, P. 24.

٢ - Scherer G., Mediteranien missions, (Beirut 1932). P. 1

الجماعات إلى معتقدهم، وكان الشرق إذ ذاك في حالة عوز لهذين العنصرين. كما أنهم تعاملوا باللّين والمحبة لبثّ معتقدهم. فلدى وصولهم إلى القدس أقاموا عند الأرمن ووزّعوا الأسفار المقدسة. ثم أظهروا المحبة لليونان وأقرضوا رهبان القبر المقدّس مالاً كانوا بحاجة إليه. واستأجروا بضع غرف في دير رئيس الملائكة. وراحوا يوزّعون الخبز يومياً على التلامذة الفقراء. وبعد أن بارك الرهبان أعمالهم الخيرية هذه، بدأوا يعلّمون الأولاد ألاّ يحترموا الأيقونات والصليب، وألاّ يصوموا وألاّ يستشفعوا السيدة العذراء. أمام هذا الواقع لجأ الرهبان إلى اليهود، فاستدانوا منهم مالاً وأعادوا إلى الأميركيين قرضهم وطردوهم من الدير والمدارس[1]. فخرج هؤلاء من القدس سنة ١٨٢٥ واستقرّوا في بيروت وجعلوها مركز تبشيرهم. فعكفوا على درس العربية والسريانية ليتمكّنوا من محادثة الأهالي.

سرعان ما بدأ الصراع بين هؤلاء المرسلين البروتستانت والسلطات الروحية الكاثوليكية في الشرق، التي جهدت لاستصدار فرمان سلطاني منع توزيع أسفارهم المقدسة وأوجب جمع ما وُزّع منها. وحاول الاكليروس الكاثوليكي حضّ روّاد التبشير البروتستانتي في الشرق على العودة إلى حضن الكنيسة الجامعة، بيدَ أن أحد هؤلاء، وهو يونس كينغ الاميركي، قام بتصنيف رد على من دعوه إلى الكثلكة نشره بعد أن نظر فيه المعلم أسعد الشدياق، ووزّعه في جميع أنحاء الدولة العثمانية. وقد تضمّن هذا الرد المبادئ الرئيسية للايمان الكلفيني، وثلاثة عشر ردّاً على سؤال: لماذا لا أقبل الكثلكة.

نشط المرسلون البروتستانت في إنشاء المدارس في الشرق بعد أن استمالوا إليهم عدداً من الكتّاب، ومن الأساقفة الأرمن الغريغوريين. وقبل نهاية العام ١٨٢٧ بلغ عدد تلك المدارس ثلاث عشرة مدرسة ضمّت حوالى ستمائة طالب. وكان أول الكتّاب الموارنة الذين انضموا إلى الكنيسة البروتستانتية المعلم أسعد

١ - Papadopoulos k., Analekta, II, P. 458

الشدياق، مما أثار حفيظة البطريرك الماروني يوسف حبيش الذي أصدر نهاية سنة ١٨٢٦ حرماً قاسياً ضدّ البروتستانتية، أعلن رسمياً في كنيسة بيروت المارونية بدء العام ١٨٢٧. وحذا بطريرك الروم الكاثوليك اغناطيوس قطان حذو البطريرك الماروني. ثم تمّ القبض على أسعد الشدياق الذي سُجن في دير ماروني ناء، أمّا فارس شقيق أسعد، الذي كان هو الآخر قد اعتنق البروتستانتية، فقد التجأ إلى بيت المرسلين في بيروت فنقلوه إلى مالطة. في الوقت نفسه تحرك البطريرك الاورثوذكسي: مثوديوس، بطريرك انطاكية (١٨٣٧ ـ ١٨٤٠) فراسل المبشرين البروتستانت لافتاً أنظارهم إلى أن مدارسهم تبذر الشقاق بين خرافه، وأمر بإقفال المدارس التابعة لهم في مرجعيون وحاصبيا[١].

وفي سنة ١٨٣٢ أمر مطارنة اللاّذقية وطرابلس وصور وصيدا بإحراق المطبوعات البروتستانتية، بعد أن كان المبشّرون قد تابعوا أعمالهم وكوّنوا في بيروت نواة لطائفة انجيلية جمعت من كانوا روماً وموارنة وأرمن، وتسرّبت عقائدهم إلى البلدات والقرى. فهبّ أحبار سائر الطوائف المسيحية لمنع أبناء طوائفهم من إرسال أولادهم إلى مدارس البروتستانت. واستصدر الآباء اليسوعيون أوامر حكومية عثمانية تمنع دخول المنشورات البروتستانتية إلى الأراضي العثمانية، فسارع المبشّرون البروتستانت إلى نقل مطبعتهم من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٣٥، وهكذا أصبحت منشوراتهم تطبع داخل الامبراطورية العثمانية عوضاً عن أن تدخل إليها.

لم يمض وقت طويل حتى بدأت تنشأ رعايا بروتستانتية في المنطقة، كانت أولها رعية في حاصبيا، جنوب لبنان. وقد قامت قيامة الكنائس غير البروتستانتية على هذا التمدّد. وراح بطاركتها وأحبارها يحاولون تحريك السلطنة ضدّها، بيدَ أن ذلك لم يمنع المرسلين البروتستانت من التوسّع، ومن استقطاب نخبة من أهل

---

١ ـ Bird, I., the martyr, PP. 228 - 231

القلم والرأي والفكر. وفي خريف ١٨٦٠، وكانت الأحداث الدامية في لبنان قد شارفت إلى نهايتها، قدمت الارسالية الانكليزية السورية إلى لبنان وأسّست لها المدارس للصبيان وللبنات في بيروت وزحلة وبعلبك وعين زحلتا وشملان وحاصبيا. قبل ذلك التاريخ كانت طلائع المرسلين الانجيليين الاميركيين قد وصلت إلى بيروت «وكانت تباشير اليقظة الفكرية تلوح في أفق البلاد. وظهرت في جميع انحاء لبنان جماعة من الشباب التائق إلى المعرفة... وكان مع أمثال هؤلاء أن أقام الرعيل الأول من المرسلين الاميركيين أولى الصلات. منهم، إضافة إلى أسعد الشدياق (١٧٩٨ ـ ١٨٢٩)، أحد خرّيجي مدرسة عين ورقة، وممّن علّموا المرسلين الاميركيين اللغة العربية، ثم أسعد الخياط الذي أقبل على هؤلاء المرسلين ليتعلّم منهم اللغة الايطالية... وكان للمرسلين الاميركيين السبق في أنهم لاحظوا تشوّق اللبنانيين إلى العلم والمعرفة، فحاولوا القيام بمهمتهم التبشيرية عن طريق نشر التعليم بدلاً من العمل الديني المباشر[١]».

قام المرسلون الاميركيون بأولى نشاطاتهم التربوية في بيروت وجبل لبنان. وفي سنة ١٨٣٤ أنشأت زوجة عالي سميث أحد هؤلاء المرسلين، «مدرسة صغيرة زاهرة للبنات في إحدى غرف دار الارسالية... وفي الصيف التالي افتتحت مدرسة أخرى للبنات الدرزيات في الجبل، ومدرسة داخلية للصبيان، في بيروت، بستة طلاب» وسرعان ما أصبح عدد تلك المدارس خمساً نهارية للصبيان، عدد طلابها حوالى الثلاثماية، منتشرة بين بيروت والجبل[٢] واذ توقّفت تلك المدارس عن العمل بخلال الاضطرابات التي وقعت سنة ١٨٤٠، سارع المرسلون في العودة إلى مراكزهم إثر نهايتها، لكن مدارسهم كانت قد تبعثرت تماماً، وقد مضى وقت طويل قبل أن تتمكّن من العودة إلى سابق عهدها[٣]. ففي خريف ١٨٤٠، استأنفت

---

١ ـ د. كمال سليمان الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر (بيروت ١٩٦٧) ص ١٧٠ ـ ١٧٢

٢ ـ Bird I., Bible work in Bible Lands (Or), Events in the history of the Syrian mission (Philadelphia, 1872), PP. 312, 318 - 319

٣ ـ Bird I., bible P. 346

المدرسة الداخلية للصبيان عملها. وبعد ثلاث سنوات افتتحت الارسالية مركزاً آخر لها في عبيه، وقد نمت هذه المدرسة بسرعة لتصبح أهم المعاهد الانجيلية في لبنان لتدريب الطلاب على التبشير بالمذهب البروتستانتي. ولما باشرت المطبعة التي تمّ نقلها من مالطة إلى بيروت، طباعتها بحروف عربية، لم يكن العالم قد عرف بعد أجمل منها، وكان ذلك في ربيع سنة ١٨٤١، تيّسر طبع الكتب لتلك المدرسة بشكل كان يفتقر الى مثله سواها. وقبل أن ينتصف القرن التاسع عشر، كانت قد ازدهرت مدارس المرسلين الأميركيين في بيروت والجبل. من جهة أخرى تألفت في بيروت لجنة خاصة من قنصلَي أميركة وانكلترة ضمّت مرسلين أميركيين ومعلّمين لبنانيين لتدير سلسلة من المدارس التي عرفت بـ «المدارس اللبنانية» والتي انتشرت في قرى الشوف وعاليه والمتن وقد بلغ عددها، قبل فتنة ١٨٦٠، خمس عشرة مدرسة عدد طلابها نحو ستمئة. وكان معظم هؤلاء الطلاب والطالبات من الروم الاورثوذكس والدروز، وبعضهم من الموارنة والروم الكاثوليك والسنّة والشيعة[1]. وكان أكثر الطوائف اللبنانية إفادة منها طائفة الروم الاورثوذكس، وخصوصاً الأُسر الاورثوذكسية التي اعتنقت المذهب الانجيلي، يليهم في ذلك الدروز. وقد بلغ عدد «المدارس اللبنانية» في ذروته الأربع والعشرين مدرسة.

في هذه الأثناء قامت الارساليات الانجيلية المختلفة بمشاريع عديدة على الصعيد التربوي. فأنشأ المرسلون الأميركيون مدرسة داخلية للإناث في سوق الغرب سنة ١٨٥٨ نقلت إلى صيدا بعد أربع سنوات. وفي ١٨٧٢ انشأوا مدرسة مماثلة في طرابلس، وفي ١٨٨١ تحوّلت المدرسة الأميركية للذكور في صيدا من مدرسة خارجية إلى مدرسة داخلية، وسُميت: معهد الفنون. وفي العام ١٨٨٣

---

١ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٧٤ - ١٧٧؛ راجع:
اسماعيل حقّي بك، لبنان: مباحث علمية واجتماعية (بيروت، ١٣٣٤)، ص ٤٧٧؛
Churchill of Lebanon, Journal of the royal central asian socicty, XI (1953) PP. 217 - 223; ;Narrative and report regarding Lebanon schools Superintended by: Joh Lowthian, Esq., of carlton house, carlisle, P. 18; Report on the Lebanon schools, with tresors' ac counts, (1856 - 1868) P. 6

أعادت الارسالية الاسكوتلاندية افتتاح المدرسة اللبنانية في سوق الغرب بعدما كانت قد اغلقت أبوابها، ثم بيعت للارسالية الأميركية سنة ١٨٨٩، التي تسلّمت أيضاً المدرسة اللبنانية في الشوير وحوّلتها إلى داخلية سنة ١٨٩٩. وفي الحقبة نفسها أسّست جمعية الأصدقاء البريطانية (الكويكرز) في برمانا مدرسة للذكور والاناث. «كانت جميع هذه المدارس، الأميركية منها وغير الأميركية، ذات منهاج ثانوي. وكان لمعظمها أراضٍ واسعة وأبنية حديثة حسنة التجهيز. لكن المأثرة الكبرى التي توّجت العمل التبشيري الانجيلي في لبنان كان تأسيس «الكلية السورية الانجيلية» في بيروت، التي أصبحت فيما بعد «الجامعة الاميركية» في بيروت. وكانت الارسالية السورية قد أقرّت تأسيس هذه الكلية في ١٨٦٢، وحصلت لها على ترخيص خاص من ولاية نيويورك. ففتحت الكلّية أبوابها في ١٨٦٦ برئاسة مؤسسها، دانيال بلس (١٨٢٣ ـ ١٩١٦). وفي ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧١، وُضع الحجر الأساسي لأولى بناياتها. وسرعان ما أصبحت «الكلّية السورية الانجيلية» أحد المراكز الرئيسية للتعليم العالي في السلطنة العثمانية»[1]. وقبل نهاية نصف الألف العثماني كانت تلك الارساليات الانجيلية قد وسّعت نشاطها في لبنان ليشمل، إضافة إلى الشأنين التبشيري والتعليمي، الشأن الصحي. فراح أساتذة كلية الطب في الكلية السورية الانجيلية يمارسون مهنتهم في المستشفى الألماني الذي أسسه فرسان القديس يوحنا في بيروت، وكان من أحدث المستشفيات في المنطقة بأسرها. وفي سنة ١٩٠٩ انشأت الارسالية الاميركية مصحّاً للمصدورين في المعاملتين بالقرب من جونيه، أسسته الدكتورة ماري ادي إحدى المرسلات الأميركيات، وكانت قبل ذلك قد مارست الطب سنوات في صيدا وجوارها، وعلى الأرجح أنها كانت أول إمرأة مارست مهنة الطب في السلطنة العثمانية باجازة رسمية. وقد نُقل المصح بعد ذلك إلى الشبانية بالقرب من حمانا (قضاء بعبدا) وهو مصحٌّ مشهور الآن يُعرف بمصح هاملن. وفي سنة ١٨٩٧ كان

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٧٩

المرسل الألماني ثيوفيلوس ولدمير الذي بنى المدرسةالانكليزية لجمعية الأصدقاء في برمانا قد أسس أول مستشفى للمصابين بالأمراض العقلية في مكان من ضاحية بيروت، قرب الحازمية، يُعرف بالعصفورية. وقد ظلّ مصحا الشبانية لأمراض السل والعصفورية للامراض العقلية المصحين الوحيدين في البلاد لعشرات السنين. وكان المرضى يقصدونهما من جميع أقطار الشرق الأدنى حتى من أماكن نائية كإيران[1].

رغب المرسلون البروتستانت في نشر الكتاب المقدس على العرب أجمعين، فألّفوا في السنة ١٨٤٧ لجنة لهذه الغاية برئاسة الدكتور عالي سميث وعضوية الدكتورين وليم طومسون وكارنيليوس ڤانديك. فاتصلت اللجنة بالمراجع العليا في الولايات المتحدة وحثّتها على الموافقة راجية اجتذاب العرب المسلمين إلى مطالعة التوراة والانجيل. وقد تمّ لها ما أرادت فتمّ تعريب الإنجيل سنة ١٨٦٠، والتوراة سنة ١٨٦٥. وقد اشترك في تلك الأعمال: الشيخ ناصيف اليازجي، والمعلّم بطرس البستاني، والدكتور عالي سميث، وعدد من الثقات الألمان: منهم الأساتذة فلايشر ورويديغر وفلويغل وبرناور. وأشرف الشيخ يوسف الأسير إشرافاً نهائياً على اللغة والاسلوب[2].

لم تجد البروتستانتية مجالاً لها في هذا الشرق مثل الذي وجدته في لبنان. ففي فلسطين ووجهت بالعداء من قِبل سائر الكنائس. أمّا في مصر فقد اعتُبرت تلك الارساليات «عاكسة الاتجاهات الرئيسية للبناء الاستعماري». إلاّ أنها قد تمكّنت من انتزاع نفر من أبناء الكنيسة القبطية لتؤسّس الكنيسةالبروتستانتية هناك. وقد بدأت تلك الارساليات نشاطها الفعلي بعد الاحتلال البريطاني لمصر. أمّا الارساليات الأميركية فقد انتقلت إلى مصر إبان النزاعات الطائفية التي حصلت في لبنان منتصف القرن التاسع عشر.

---

١ - حتي، لبنان في التاريخ، ص ٥٤٦ - ٥٤٧

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج٣، ص ٢١٦ - ٢١٧؛ راجع Jessup H; fifty three years in Syria, I, PP. 66 - 78

يبدو أن الأسرة المالكة في مصر قد ساعدت، إن لم تكن قد حرّضت، بطاركة الأقباط على محاربة البروتستانتية في وادي النيل. فعندما انتقل بطريرك الأقباط، كيريللوس الخامس، إلى أسيوط سنة ١٨٩٧، ليقف في وجه النشاط البروتستانتي، وليمنع القبط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير، وليأمر الكهنة بأن يطوفوا على المنازل ليحرموا كل أب يرسل أولاده إلى هذه المدارس، إنما هو سافر على متن باخرة وضعها تحت أمرته الخديوي إسماعيل. ثم أعلنت الكنيسة القبطية الحُرُم ضدّ من يرسل أولاده إلى هذه المدارس أو يزور مكتباتها أو يقرأ كتبها أو يصادق أحداً من المبشّرين[١]. وقد سارع بطريرك الأقباط كيريللوس الرابع (١٨٥٢ ـ ١٨٦٢) الملقّب بأبي الاصلاح إلى فتح عدد من المدارس، وإلى تطوير التعليم في مدارس الكنيسة القبطية عموماً، ليقطع الطريق على ازدهار أعمال أولئك المبشّرين[٢].

على أي حال فإنّ الدعوة البروتستانتية لم تلاق لها آذاناً صاغية في مصر. ويلاحظ أحد الباحثين الانكليز[٣] أن «تأثير الارساليات على المسيحيين من سكان البلاد المصرية كان غير ذي شأن». أمّا في لبنان فإنّ الطوائف البروتستانتية، رغم الجهود التعليمية والاجتماعية التي قامت بها الارساليات والمؤسسات التابعة لها في البلاد، قد بقيت أقلّية وسط الطوائف التقليدية. ويتركّز وجود هذه الأقلية في العاصمة بيروت، إضافة إلى مجموعات متفرّقة في الجبل اللبناني وفي الجنوب الأوسط. وبقي الوجود البروتستانتي محدوداً جداً في سائر بلدان هذه المنطقة.

---

١ ـ راجع: رينا هوج، الاستاذ الجليل بين مرسلي وادي النيل، اتحاد مدارس الأحد وإدارة المطبعة الانكليزية الامريكانية، (القاهرة ١٩١٧)؛ توفيق أسكاروس، نوابغ الاقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر، مطبعة التوفيق (القاهرة ١٩١٠)، ص ١٦٠ ـ ١٩٦؛ جرجس عوض، ذكرى مُصلح عظيم (القاهرة ١٩١١).

٢ ـ راجع: يعقوب جرجس نجيب، موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية، دار برادى للطباعة؛ (القاهرة ١٩٦٦) ص ١٠٧ ـ ١١٠

٣ ـ Deurben John P., Observations in the East, Chiefly in Egypt, Palestine, Syria, and Asia minor. (Newyork, 1860), I 9th. edit.) P. 67

الفصل الثالث عشر

لمحة معاصرة

- الأقباط اليوم
- لبنان

بعد مرور ألف وثلاثماية سنة ونيف على الفتح الاسلامي لهذه المنطقة من العالم، التي يطلق عليها المسلمون العرب اسم الوطن العربي، وهي تشكّل جزءاً كبيراً من المنطقة المعروفة بالشرق الأدنى، وجزءاً أقل كبراً نسبياً من المنطقة المعروفة بمنطقة الشرق الأوسط، والتي يمكن تسميتها بشكل مجرد بالدول العربية، أو البلدان العربية... بات يبدو واضحاً، من خلال النظرة الواقعية، أن الدين الاسلامي قد أصبح الدين المسيطر بأكثرية ساحقة على شعوبها التي باتت تشكّل نسبة المسلمين منهم ٩١ بالمئة، بينما لم يعد يتجاوز عدد المسيحيين منهم، بجميع طوائفهم، نسبة الخمسة في المائة. وتتوزع الأقلية الصغيرة الباقية (حوالى أربعة في المائة) طوائف يهودية وديانات قبلية زنجية في جنوب السودان.

نسبة الخمسة بالمائة تلك تشكّل عدداً لا يتجاوز الثمانية ملايين نسمة، هو مجموع عدد المسيحيين، بجميع طوائفهم في البلدان العربية جمعاء، وهم موزَّعون على تلك البلدان حسب الشكل التالي:

الروم الاورثوذكس، حوالى مليون وربع المليون نسمة موزَّعين على سورية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر.

الاشوريون (النساطرة)، حوالى خمسة وسبعين ألف نسمة موزَّعين على سورية والعراق ولبنان.

المونوفيزيون، وعددهم أقل من أربعة ملايين ونصف: أربعة ملايين ومئة ألف نسمة أقباط أورثوذكس موزَّعين على مصر والسودان، ومئة وخمسون ألفاً يعاقبة أورثوذكس موزَّعين على سورية ولبنان والعراق، ومائتان وخمسون ألفاً أرمن أورثوذكس موزَّعين على سورية ولبنان والعراق ومصر.

أما الكنائس التابعة لرومة فيبلغ عدد أتباعها مجتمعة أقل من مليوني نسمة: أتباع الكنيسة الغربية اللاتين أقل من نصف مليون نسمة موزَّعين على السودان وسورية ولبنان وفلسطين ومصر.

حوالى مائتين وخمسة وسبعين ألف نسمة من الروم الكاثوليك (الملكيين) موزَّعين على لبنان وسورية ومصر.

ولم يبق من السريان الكاثوليك سوى حوالى خمسة وخمسين ألف نسمة موزَّعة على سورية ولبنان. ومن الأرمن الكاثوليك سوى حوالى خمسين ألف نسمة موزعة على البلدين السابقين. ومن الأقباط الكاثوليك سوى مئة ألف نسمة في مصر والسودان. ومن الكلدان (الكاثوليك) سوى مائتي ألف نسمة موزَّعة على العراق وسورية ولبنان.

أما عدد الموارنة فيبلغ اليوم حوالى ثمانمئة وخمسين ألف نسمة أكثريتهم في لبنان والباقون في سورية وقبرص.

أما مجمل عدد البروتستانت فلا يتجاوز المائة وخمسين ألف نسمة موزَّعين على السودان ولبنان وسورية ومصر[1].

نلاحظ أن أكبر مجموعة مسيحية في البلاد العربية هي المجموعة القبطية التي يزيد عدد أعضائها على الأربعة ملايين نسمة[2] فيشكِّلون أكثر من نصف المسيحيين في هذه المنطقة من العالم، وهم يتجمَّعون بأكثريتهم الساحقة في مصر. بينما المجموعة الأورثوذكسية (روم أورثوذكس) التي لا يزيد عدد أعضائها على المليون ومائتين وخمسين ألف نسمة، تتوزَّع على خمسة بلدان (سورية، لبنان، الأردن، فلسطين، مصر). وباستثناء المجموعة المارونية يصبح سائر المجموعات أقليَّات صغيرة.

أما المجموعة المارونية فهي، على كثافتها النسبية، تتجمَّع بأكثريتها الساحقة في لبنان. وقد شكَّلت هذه المجموعة مرجعاً كيانياً مسيحيّاً استقطب سائر

---

١ - راجع: الدكتور سعد الدين ابراهيم، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت ١٩٨٨).

٢ - تختلف تقديرات عدد الاقباط في مصر بإختلاف المرجع. التقارير الرسمية المصرية تذكر أن عددهم لا يتجاوز المليوني نسمة، بينما بطريرك الاقباط الاورثوذكس شنودة الثالث أكد قبل سنوات أن عددهم في مصر وحدها هو ثمانية ملايين نسمة؛ راجع: طوني مفرّج. حرب الردَّة، دار الجريدة (بيروت ١٩٧٩) ص ٦٦.

الطوائف التي تدين بالكثلكة (راجع الفصل السابق) وحافظ بالتالي على كيان سياسي مسيحي فريد من نوعه في البلدان العربية.

أما الدولة العربية الثالثة التي تضمّ مجموعة كبيرة من المسيحيين بعد مصر ولبنان، فهي سورية، التي يقدّر عدد المسيحيين فيها اليوم بحوالى المليون نسمة. وبحسب الاحصاء الذي جرى سنة ١٩٦٠ فقد كان عدد المسيحيين في سورية يبلغ يومذاك حوالى ٦٢٧ ألف نسمة حسب الانتماء التالي:

روم أورثوذكس ١٨٠ ألفاً، أرمن كاثوليك ١٢٠ ألفاً، أرمن أورثوذكس ١٢٠ ألفاً، روم كاثوليك ٥٨ ألفاً، سريان أورثوذكس ٥٣ ألفاً، أشوريون ٢٠ ألفاً، سريان كاثوليك ٢٠ ألفاً، موارنة ١٧ ألفاً، بروتستانت ١٤ ألفاً، نساطرة ١٢ ألفاً، لاتين ٧ آلاف، كلدان ٦ آلاف[١].

أمّا في العراق فأكثرية المسيحيين من الطائفة الأشورية. وكان هؤلاء، بعد المذبحة التي تعرَّضوا لها على يد الأكراد بدعم تركي نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، قد نُقلوا على يد الجيش البريطاني إلى منطقة بغداد بقيادة زعيمهم آغا بطرس بعد مقتل قائدهم الديني ايشا داود الملقَّب بمار شمعون. وقد شكَّل الجيش البريطاني فرقة عسكرية من هؤلاء عملت إلى جانبه ضدّ الأكراد حيناً وضد العراقيين حيناً آخر. بينما استمر نزوح الأشوريين إلى العراق من تركية وإيران، ثم أقدم العراق سنة ١٩٢٦، إثر هذا التدفق الكثيف، على إسكان الأشوريين في شمالي البلاد. وفي العام ١٩٣١، وسط الحركات الكيانية في المنطقة، طالب الأشوريّون بالحصول على إدارة ذاتية هناك. وعندما اكتشفت الحكومة العراقية ربيع تلك السنة أن الأشوريين يتعاونون مع الأكراد بهدف إنشاء كيان مستقلّ بدعم من البريطانيين، سارعت إلى القبض على قادة تلك الحركة الذين اعترفوا بما نُسب إليهم من محاولات انفصالية باءت بالفشل. بيدَ أن ذلك لم يمنع الأشوريين من أن يقوموا بحركة ثورية بهدف خلق وطن مستقل لهم سنة

---

١ - راجع: H. et P. Willemart, Dossier du Moyen-Orient arabe, ED. Marabout, (Belgique 1969) PP. 232 - 234

١٩٣٣[1]. وكان الموصل أرض الحلم بوطنهم الموعود، بأقضيته الثلاثة: العمدية وهوك وزاخو. وكان زعيم الأشوريين، مار شمعون الجديد، قد توجّه إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ للمطالبة بوطن قومي للأشوريين في العراق. ولكنّ عصبة الأمم قد اتَّخذت يومها قراراً برفض هذا الطلب. وإذ يئس الأشوريون من الدعم البريطاني وحاولوا التعاون مع الفرنسيين في سورية، توقفت دولة صاحبة التاج عن مدِّهم بالمال والسلاح، فكان أن تعرضوا للتَّصفية العسكرية في صيف ١٩٣٤[2].

إثر ذلك هاجر آلاف الأشوريين إلى لبنان وإلى الولايات المتحدة الأميركية. ونقل بطريرك النساطرة مقره إلى الهند. ومن تبقَّى من الأشوريين في العراق، وهو أقليَّة ضئيلة، يتوزَّع على لوائي الموصل وأربيل، وعلى مدينة بغداد. أما أوضاعهم الحياتية والمعيشية فتختلف باختلاف المنطقة التي يسكنونها. وقد غدوا على أي حال، أقليَّة مسالمة تتعاون مع كل حكم يقوم بالنظر لضعف شأنها ولانعدام امكاناتها.

أما في باقي البلدان العربية فالوجود المسيحي ليس سوى وجود أقليَّة محدود، يمكن من خلاله الحصول على الجنسية في بعض تلك البلدان، كالأردن مثلاً، بينما لا يستطيع المسيحي في دول الخليج أن يحصل على جنسياتها. وفي السودان التي يبلغ مجموع سكانها حوالى ٢٢ مليون نسمة، لا يتجاوز عدد المسيحيين نسبة الخمسة بالمئة، وهم يتوزَّعون على الطوائف البروتستانتية والكاثوليكية والأورثوذكسية. وهم يعيشون في منطقة الجنوب التي لم تهدأ فيها الصراعات منذ أوائل هذا القرن، والتي يشترك فيها السكان بحسب انتمائهم القبلي. علماً بأن عدد القبائل السودانية يزيد على الخمسماية وثلاثين قبيلة مختلفة الأصل والعرق واللغة والدين، وأن نسبة عالية من سكان جنوبي السودان لا تزال تعتنق الوثنية.

إنَّ هدف الثائرين في جنوبي السودان من الطوائف المسيحية هو رفض فرض

---

١ - محمود الدرّه، القضية الكردية، ص ١٦٢

٢ - راجع: محمد السمَّاك، الاقليات بين العروبة والاسلام، دار العلم للملايين (بيروت ١٩٩٠) ص ١١١

الشريعة الاسلامية عليهم. وقد حاول مجلس الكنائس العالمي، ومجلس كنائس عموم إفريقية، التوصل مع الحكومة السودانية إلى إيجاد حلّ نهائي لتلك المشكلة التي لا تزال تتفاعل دموياً حتى اليوم، بالنظر إلى الدعم الأثيوبي الذي يلقاه المتمردون المسيحيون الذين هم من أصول إفريقية.

الأقباط اليوم

عندما تكوّنت البنية السياسية لمصر الحديثة في بداية هذا القرن، كانت مصر واقعة تحت الاحتلال البريطاني، ويمكن اعتبار أن البريطانيين هم الذين وضعوا تلك البنية السياسية لمصر الحديثة. وقد رأى اللورد أڤلين بارينغ كرومر مندوب انكلتره في مصر (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧) أنّ مصر كمجتمع لا تمثل وحدة سياسية ذات نمط واحد، إنّما تتكون من كيانات تتمثل في المسلمين المصريين، والمسلمين العرب، والمسيحيين الأقباط، والمسيحيين الأوروبيين وغيرهم. وأن الحكم الذاتي، الذي يرعى هذه المصالح المتباينة، قد يحتاج إلى سنين وأجيال، إلاّ إذا قام على أساس إنصهار القاطنين في مصر كلّهم في كيان رسمي واحد. وقد عبّر عن ذلك في إشارته إلى تلك البلاد على أنها «مصر الدولية[١]».

وبالفعل، فقد أنشئت جمعية تشريعيّة سنة ١٩١٣ شبيهة بنظام لبنان الأساسي، إذ قررت مبدأ التمثيل الطائفي، فكانت أول مؤسسة للدولة في مصر الحديثة يتقرَّر في تكوينها هذا المبدأ. ولم تجرَ أية تعديلات على ذلك المبدأ عندما أجري مشروع الاصلاح الدستوري سنة (نوفمبر) ١٩١٨. وقد كان ذلك من الأسباب الهامة التي عجلت باشتعال الثورة المصرية سنة ١٩١٩. وهكذا فعندما صدرت التوكيلات الأولى في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٨ لأعضاء الوفد، لم يكن بينهم أحد من الأقباط، وكان ذلك مثار جدل بين وجهاء الأقباط الذين اتَّصلوا بسعد زغلول، رئيس الوفد آنذاك، ورشحُّوا واصف بطرس غالي، ثاني أبناء بطرس

١ ـ Kromer, the Earl of modern Egypt, Vol. II, PP. 598 -599

غالي لعضوية الوفد[1]. وكان قبول سعد زغلول بعضوية غالي في الوفد كافياً لاشتراك الأقباط في شكل فعَّال في الثورة المصرية. والغريب في الأمر أن التركيبة التعدديَّة السياسية التي ثار المسلمون ضدَّها على أساس أنها استعمارية تقسيمية، صارت متّبعة في الثورة ذاتها التي وُصفت بأنها «علمانيّة»، «كما ظهرت الصفة العلمانية للوفد في تكوين أي لجنة أو اجتماع أو مؤتمر أو مظاهرة وفي كل صحيفة[2]»، ويحرص بعض الباحثين الأقباط في التاريخ الحديث لمصر على أن «القبط لم يكونوا بمعزل عن قيادة الحركة الوطنية، ولا عن أي من تشكيلات الوفد الدائمة أو المؤقتة في أية ظروف، وأنهم لم يكونوا يمثلون فيه طائفة معيَّنة، ولا كان اختيار أحدهم أو غيرهم يتمّ على أساس الانتماء الطائفي، ولا كانوا يشغلون نسبة معينة من عدد أعضاء أي تشكيل، إذ لم يكن من أساس للاختيار سوى الإيمان بمبادئ الوفد، ومدى الفاعلية في النشاط وأداء العمل المطلوب[3]».

على أي حال، فقد كان لاشتراك القبط في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ التأثير الفعال لجهة مواجهة المقولة البريطانية، التي وَصفت الثورة المصرية يومذاك بأنها دينية. هذا الاشتراك هو الذي مكَّن سعد زغلول من تضمين كلمته التي ألقاها أمام الصحافيين الانكليز والأميركيين في لندن قوله: «إدّعوا أن الحركة دينية، ولكنهم إذ رأوا رأي العيان أن مسيحيي مصر ومسلميها متَّحدون اتحاداً متين القوى، وأن المسيحيين كانوا في مقدمة القائمين بالمظاهرات، وكان منهم من راح بين أوائل الشهداء برصاص الجنود البريطانيين. وإنكم لترون بين أعضاء الوفد المصري الذين يتشرَّفون باستقبالكم اليوم في ضيافتهم، خمسة من المسيحيين. وقد كان قسوس الأقباط يقومون بالدعوة الوطنية في جميع جوامع القاهرة وعواصم الأقاليم، وشيوخ المسلمين يفعلون ذلك في الكنائس[4]».

---

١ ـ راجع: مذكرات عبد الرحمن فهمي، م ١ (دار الوثائق التاريخية القومية بالقلعة) ص ١١ و ١٦؛ د. سميرة بحر، الأقباط في الحياة السياسية المصرية، مكتبة الأنجلو ـ المصرية (القاهرة ١٩٧٩). ص ٧٩

٢ ـ سميرة بحر، ص ٨٥

٣ ـ طارق البشرى، مصر الحديثة بين أحمد والمسيح (١٩٧٠)، ص ١٢٧

٤ ـ محمد أبو الفتح، مع الوفد المصري (القاهرة ١٩٢٠) ص ٥٢

في الواقع، أدَّت أجواء الثورة الاستقلالية المصرية ضدّ الاحتلال البريطاني، إلى تعاون متماسك بين المسلمين والأقباط في مصر خلال تلك الحقبة التاريخية، وعندما حاول البريطانيون تفكيك عرى ذلك الالتحام الوطني بتعيينهم قبطياً، هو يوسف وهبة، رئيساً للوزراء، كان الأقباط أوّل من ثار ضد وهبة وكان أحدهم وهو قريب له، أوّل من حاول اغتياله بحجَّة أنه متعاون مع الاحتلال. وغني عن القول أن المسلمين كانوا بدورهم رافضين يوسف وهبة وحكومته.

أدَّى تماسك المسلمين والأقباط في مصر إبان تلك الثورة إلى «مساواة» هؤلاء في موجة الاضطهاد والاعتقال التي تعرَّض لها القادة المصريون عندما قام اللّورد ألّلامبي بإصدار أوامره بهذا الخصوص. هذه المساواة زادت في عرى التماسك، فأجمع زعماء الأقباط والمسلمين على موقف واحد اتخذوه سنة ١٩٢١ من خلال بيان مشترك أعلنوا فيه أنهم «أجمعوا كلمتهم ووحَّدوا جهودهم ليسلكوا سبيل العمل الذي بدأوا به منذ سنوات». ودعوا الشعب «إلى العمل لاستقلال البلاد استقلالاً خالصاً من شوائب التفرقة والتخاذل، ولأن تعتصم بالاتحاد الذي هو السبيل الوحيد لبلوغ غايتها[١]».

وكان من أبرز رجال الانتفاضة المصرية آنذاك، وليم مكرم عبيد القبطي، والذي يُعرف بمكرم عبيد، وكان زميلاً لسعد زغلول في الجهاد والنفي والتشريد من أجل مصر، وقد قام بدور فعَّال في تلك الثورة، وتجلَّت مواهبه في العاصمة البريطانية حيث بثّ الدعاية ضدّ الاحتلال البريطاني. وكانت اتصالاته على مستوى سفراء الدول، التي كان لها الأثر الكبير في مجرى الحوادث، سواء بالنسبة للقضية الدستورية أو القضية الوطنية. وكان عبيد من دعاة الوحدة العربية[٢].

رغم ذلك التلاحم الذي شهدته حقبة الثورة المصرية إثر الحرب العالمية الأولى وإبان الاحتلال البريطاني، ما أن بدأت لجنة دستور ١٩٢٣ تناقش مشروع الدستور الذي جاء في أحد بنوده وجوب تمثيل الأقليات في المؤسسات الدستورية،

---

١ ـ سميرة بحر، ص ١٠٥

٢ ـ راجع: مكرم عبيد، المصريون عرب، الهلال (إبريل ١٩٣٩) ص ٣٢ ـ ٣٣

حتى برزت معارضة مسلمة قاطعة لهذه المسألة التي انتهى نقاشها الطويل إلى تقرير الأغلبية عدم تمثيل الأقليات. إلاّ أن المواد ١ و ٢ و ١٢ و ٢٠ من دستور المملكة المصرية الذي صدر به الأمر الملكي رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣، قد أوجب «مساواة جميع المصريين أمام القانون». ولم يتضمَّن هذا الدستور، كما لن تتضمَّن الدساتير التي ستليه، أي نص بشأن تمثيل الأقليات. بيدَ أن الأقباط بقوا ممثلين في الحكم حتى جاءت ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٢، التي قضت على العهد الملكي على يد الضباط الأحرار. ولم يكن بين أعضاء قيادة الثورة قبطي واحد. وقد سارعت تلك الثورة إلى إلغاء الأحزاب السياسية، وكان الأقباط يمارسون من خلال الأحزاب، وخاصة حزب الوفد، نشاطهم السياسي. وإذ شكلت الثورة الإتحاد الاشتراكي بدلاً من الاحزاب، وتولّى الاتحاد تسمية المرشَّحين لمقاعد المجلس التشريعي، سقطت عملياً المعادلة السابقة التي كانت تقوم على أساس المراعاة المسبقة للمشاركة القبطية. ولما نفّذت الثورة قوانين التأميم وحدَّدت الملكية، ورغم أن تلك القرارات كانت عامَّة وشاملة، فإنّها أصابت بالضرر البورجوازية المصرية وعلى رأسها الأقباط.

زاد، إلى كل ذلك، في مخاوف الأقباط، أن عبد الناصر قد نادى بالقومية العربية، وأدخل مصر في مشاريع وحدوية عديدة. وإذ انعدم التمييز في عهده بين العروبة والاسلام وجد الأقباط أنفسهم مهدَّدين بذوبان شخصيتهم الدينية.

حاول جمال عبد الناصر معالجة هذه المشكلة مستعملاً حقَّه كرئيس للجمهورية بتعيين عشرة أعضاء في مجلس الشعب بقرار منه، فكان يعين الأعضاء العشرة من الأقباط. كما كان يعين في الحكومة وزراء أقباطاً من التكنوقراط. على أنّ هذه المعالجة بدت وكأنها استرضائية وليست حقاً وطنياً من حقوق الأقباط. وكان عبد الناصر قد ورث عن العهد الملكي مشكلة مطالبة الأقباط ببناء المزيد من الكنائس. فحاول التخفيف من نقمة الأقباط المكبوتة بأن سمح لبطريرك الأقباط كيريللوس، ببناء ٢٥ كنيسة في عهده، بعد أن كان بناء أي كنيسة يعتبر عملاً غير شرعي ويؤدي إلى اصطدام بالسلطات المحليَّة وبالجمعيات الاسلامية.

وإذ كان الاخوان المسلمون قد تعاونوا مع الضباط الأحرار في ثورة ١٩٥٢، كان لا بد لقادة تلك الثورة من أن يبقوا متأثّرين، ولو إلى حين، بالمبادئ الاسلامية المتطرفة لهؤلاء. غير أن هذه الثورة قد لجأت بعد سنتين إلى تصفية حركة الاخوان المسلمين على يد القضاء بعد أن حاول هؤلاء فرض الوصاية على الحركة الناشئة، وقد بلغ عدد الذين حكمت عليهم محكمة الشعب ٨٦٧ شخصاً، تمَّ إعدام ستة منهم. كل هذا لم يمنع من أن تخرج إلى العلن سنة ١٩٥٤ دعوة سرية كانت قد بدأت تحت الأرض في العهد الملكي، تدعو إلى حق الأمّة القبطيّة في الاستقلال الذاتي. وقد تلقَّت هذه الدعوة دعماً قوياً من مجلس الكنائس العالمي، كما تلقَّته من المغتربين الأقباط في أوروبة والولايات المتحدة. «وكان الجسر بين الكنيسة الوطنية ومجلس الكنائس العالمي والمغتربين الأقباط، الأسقف صموئيل الذي قُتل في حادث المنصَّة مع خليفة عبد الناصر أنور السادات في خريف ١٩٨٠. وقد ظهر أن هناك حساباً باسمه في أحد البنوك السويسرية مقداره ١١ مليون جنية استرليني، وكانت هناك في نفس الوقت وصيَّة من الأب صموئيل تحدّد أن هذه الأموال أموال الكنيسة، ولا حقّ فيها لأحد غيرها. وبالفعل فقد كانت كلها تبرعات واعتمادات وُضعت تحت تصرفه بوصفه أسقفاً للخدمات مسؤولاً عن العلاقات الدولية للكنيسة[1]».

من مراجعة تطورات الأحداث السياسية في مصر عبر تاريخها الاسلامي يتَّضح أمر أكيد، وهو أن القاعدة الاسلامية المتطرِّفة هي التي كانت تشكِّل دوماً الخطر على الوجود القبطي بشكل عام، وعلى المشاركة القبطية في الشؤون العامة بشكل خاص، حتى إن هذه القاعدة كانت على الدوام عقبة أمام الحكام المعتدلين، الذين كانوا يحاولون استقطاب الرأي العام القبطي، عن طريق اشراك الأقباط في الحكم. وطالما تراجع حكّام عن سياسة تساهل ما، كانوا قد اتَّبعوها تجاه الأقباط، بسبب الضغط الذي قام به الاسلاميون المتطرفون. وعندما استعاد الاخوان المسلمون نشاطهم العلنيّ في منتصف السبعينات في ظلّ الحكم الجديد، تخوَّف

١ ـ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، ص ٣٤٧؛ راجع: محمد السماك، ص ٩٨

الأقباط من سوء المصير، خاصة بعد أن كانت المحاكمات التي جرت لهؤلاء الاخوان سنة ١٩٤٨ قد كشفت أوراقاً سريَّة تفصح عن أن هذه الحركة كانت تعمل «للتحرر من العدو معتبرة ذلك جهاداً في سبيل الله، وأن العدو هو جميع اليهود والنصارى[١]».

في مواجهة هذا التطوُّر شهدت فكرة إحياء القومية القبطية رواجاً، وقد بلغ عدد الأعضاء المنتسبين إلى الجمعية التي نادت بهذا المبدأ حوالى مئة ألف عضو. وإذ كان بطريرك الأقباط الأنبا يوساب الثاني يتَّبع سياسة معتدلة، أقدمت هذه الجماعة القبطية المتطرِّفة على خطفه وإجباره على التنازل عن منصبه الديني في تموز (يوليو) ١٩٥٤.

وعندما برزت في مصر دعوات إسلامية علنية من رجال رسميين وإعلاميين معروفين، زادت ردَّة الفعل السلبية عند الأقباط، مما أوحى بعودة، في واقع العلاقات الاسلامية في مصر، إلى السلبية التي كانت مستشرية قبل الثورة. من تلك الدعوات ما حمل شعار «الأمة الاسلامية» و «قومية مبنية على أسس الدين، تربطها فقط شعائر الدين الاسلامي مع تجاهل وجود الأديان الأخرى في مصر[٢]». حتى إن نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت، حسين الشافعي، راح تحدَّث عن وسائل تدعيم أمّة الاسلام، وذكر: «أن الفرعونية ما هي إلاَّ لفظ علمي للتاريخ ينبغي ألاّ يكون له موضع في التطبيق السياسي ولا داعي للدعوة إليه[٣]». وجاء في افتتاحية لرئيس تحرير مجلة المصوَّر، السيد صالح جودت، وكانت تلك المجلة شبه رسمية ورئيس تحريرها يمثل وجهة نظر الدولة، جاءت دعوة للكفِّ عن العمل من أجل الوحدة العربية، وللعمل من أجل وحدة إسلامية توحّدها عقيدة واحدة، وقارن «كيفية عيش المسلم مطمئناً كل الاطمئنان في فرنسة وايطالية وانكلترة، وهي دول مسيحية، فماذا يضرّ المسيحي لو عاش في ظل الوحدة الاسلامية[٤]»؟.

---

١ ـ راجع: سميرة بحر، ص ١٤٥
٢ ـ د. عبد العزيز كامل، نائب رئيس الوزراء يومذاك، مجلة الهلال (أيلول ١٩٧٣)
٣ ـ مجلة الإذاعة والتلفزيون، ايلول ١٩٧٣
٤ ـ مجلة المصور، ١٠ آب ١٩٧٣

وقد أخذت تلك الأحاديث الصحافية مسار حرب اعلامية، إذ قام فريق من الأقباط بالرد على تلك الدعوة، مذكّراً صاحبها بأن «الدول التي ذكرها لم تقم على أساس ديني من ناحية، وأن الكاتب من ناحية أخرى، قد تجاهل أن المسلمين الذين يعيشون في أوروبة إنّما هم أجانب مقيمون مؤقتاً... بينما أقباط مصر يعيشون فيها منذ أكثر من خمسين قرناً، وأنه ليس في نيّتهم أن يتحوّلوا إلى جاليات أجنبية داخل بلادهم[1]».

في أواخر سنة ١٩٦١ كان جمال عبد الناصر قد أعلن عن اتجاهه نحو الاشتراكية. وقد لاقى هذا الاتجاه قبولاً بين الأقباط. على أن تلك الدعوة الاشتراكية قد كلّفت الأقباط غالياً جداً، لأن التأميم الذي جرى باسم الاشتراكية قد قضى على عدد كبير من الأعمال التي كان يملكها الأقباط الذين كانت خسارتهم في قطاع النقل، داخل القاهرة وبين الأقاليم، بنسبة ٧٥ بالماية من مجموع التأميم في هذا القطاع؛ كذلك الأمر بالنسبة للقطاع الصناعي والقطاع المصرفي والقطاع الزراعي، حيث نُزعت ملكية آلاف الأفدنة من الأسر القبطية، بينما لم تتأثّر العائلات المسلمة بقوانين الاصلاح تلك. هذا فضلاً عن نزع ملكية أراضي أوقاف البطريركية والأديرة القبطية. وقد وُزّعت تلك الأراضي على الفلاحين المعدمين المسلمين بنسبة ماية في الماية. وهكذا فقد بدا واضحاً للأقباط أن اشتراكية عبد الناصر لم تكن اشتراكية ماركسية أو لينينية، إنّما هي كانت اشتراكية قرآنية. خاصة وأن تدابير الحكم آنذاك قد طالت جميع القطاعات الرسمية في الدولة، حيث ضُيِّق على الأقباط من سياسيين وموظفين. ومُنع طلاب الأقباط من الالتحاق بالكلّيات التابعة للجامعة الأزهرية. كما مُنعوا من تأسيس أيّة جامعة أو كليّة. وقد تدنّى عدد أساتذة كلية طب الأقباط من ٤٠ بالمئة إلى أقل من ٤ بالمئة. كما مُنع الأقباط من أن يشغلوا وظائف معينة رئيسية، مثل المحافظين، ورؤساء الجامعات ووكلائها، ومديري الأمن، ورؤساء مجالس المدن، ورؤساء وأعضاء المجالس العليا التابعة لرئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء كالمجالس القومية المتخصِّصة، والمجلس الأعلى

---

١ ـ مجلة الأقباط التي تصدرها الهيئة القبطية الاميركية في نيوجرسي، عدد كانون الثاني ـ شباط ١٩٧٤

للرياضة، وأكاديمية البحث العلمي، ورئيس ومستشاري محكمة النقض... هذا طبعاً إضافة إلى نوّاب رئيس الجمهورية.

أما في الانتخابات التشريعية، فقد رُتِّب قانون الانتخاب بشكل منع وصول الأقباط إلى مجلس الأمة أو مجلس الشعب أو التنظيمات السياسية[1] .

ظاهرة جديدة باتت تلبِّد أفق المستقبل القبطي في مصر بالغيوم السوداء: هي بروز أكثر المنظمات الاسلامية تطرّفاً في منطقة الصعيد، حيث كان الأقباط يشكّلون نسبة عالية من السكان. ولا يعتبر قادة الأقباط أن مكافحة الدولة لهؤلاء المتطرِّفين ستكون قمينة بأن ترفع عنهم كابوس الدعوة الاسلامية المتطرِّفة. ولا يزال هذا الشعب متمسِّكاً بأرضه كما كان دائماً. وبما أنّ الكلام المنزل غير قابل للتحوير أو التأويل أو التغيير، فإن معطيات المشكلة لا تزال على حالها، إلاَّ إذا عاد ربّك وشاء بأن يكون الناس كلُّهم أمّة واحدة.

لبنان

مهما قيل في شكل النظام السياسي للبنان، ومهما تعدَّدت النظريات والدعوات، يبقى أمرٌ واقع لا يستطيع أحد طمسه، وهو أن هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التي تقع وسط الشاطئ الاسلامي المقابل للشاطئ الغربي المسيحي، هي الموئل الأخير للمسيحية الحرة في الشرق. ولم يأت هذا صدفة، بل جاء نتيجة تفاعلات سياسية وعسكرية متواصلة منذ الفتح الاسلامي دون انقطاع. هذا الموئل المسيحي قد صهر في داخله جميع الطوائف المسيحية التي تقاتلت وتصارعت في الشرق عبر التاريخ. ويعود السبب في ذلك إلى أن الطائفة المارونية التي اتَّخذت من لبنان قاعدة، والتي بقي قرارها بيدها عندما كانت قرارات سائر الطوائف بأيدي سواها، قد صمدت في أرضها بوجه كل الفتوحات، وقد دلَّت أحداث القرن التاسع عشر بوضوح على أن الطائفة المارونية في لبنان ليست منسية في ضمير الغرب المسيحي الذي، رغم تعارض النظريات، كان له الفضل في

١ ـ راجع: سميرة بحر، ص ١٤٥ ـ ١٧٧

انقاذها من المصير الذي شهدته طوائف أخرى كانت منسية في ضمير الغرب، مثل الأرمن والأشوريين وسواهم من الشعوب المسيحية التي هُجِّرت أو ضُربت كياناتها ضربات قاضية. وبتمكّن الطائفة المارونية، القائلة بالكاثوليكية الرومانية، من البقاء على ما بقيت عليه من وجود كياني في لبنان، صار لبنان مقصداً لتلك الطوائف المسيحية التي شُتِّتت أو هُجِّرت من أنحاء الشرق. وبذلك بقي الطابع المسيحي طاغياً على هذا البلد الذي كانت رقعته تتَّسع حيناً أو تضيق، على أن اسم لبنان قد اقترن باسم الطائفة المارونية اقتراناً غير قابل للانفصام، مثل اقترانه بالمسيحية الحرة في الشرق.

خرج لبنان من الحرب العالمية الأولى التي استشرى فيها جور الأتراك وظلمهم، جائعاً مريضاً مهدَّماً منهاراً منهوك القوى. وبعد أن وقع لبنان تحت الانتداب الفرنسي بسنتين، أعلن المفوض السامي الأول: الجنرال غورو، في أول أيلول سنة ١٩٢٠ في بيروت، إعادة لبنان الكبير إلى الوجود. وقد أُلحقت بلبنان، تبعاً لذلك، بيروت التي أصبحت العاصمة، وصيدا وصور وطرابلس، إضافة إلى المدن والمقاطعات الداخلية مثل البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا ومرجعيون، وقد كانت سابقاً جزءاً من لبنان تاريخيّاً وجغرافيّاً. مساحة الأرض هذه التي أُلحقت بلبنان وكادت أن تضاعف مساحته وأن تضيف إلى عدد سكانه النصف، شكَّلت كسباً للبنان الدولة، قد قابله «عدم تجانس في السكان ونقص في التمازج والترابط. ذلك أن لبنان فقد التوازن الداخلي الذي كان ينعم به سابقاً... أمّا الأكثرية المسيحية فلم تظلّ لها تلك الأكثرية الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل[1]». فإنّ عدد سكان لبنان حسب إحصاء ١٩١٣ كان يقدَّر بـ ٤١٤٨٠٠ نسمة منهم ٣٢٩٤٨٢ من المسيحيين (ومن هذا العدد ٢٤٢٣٠٨ من الموارنة). أي أن نسبة المسيحيين من مجموع عدد السكان كانت تشكّل ٧٩,٤٣ بالمائة. ونسبة الموارنة كانت تشكّل في ذلك الاحصاء ٥٨,٤١ بالمائة. غير أنه بعد اعلان لبنان الكبير أصبح مجموع عدد السكان، ٦٢٨ ألفاً و٨٦٣ نسمة. وأكثرية عدد

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٩٨

السكان الذين أصبحوا لبنانيين بعد إعلان لبنان الكبير، هي من المسلمين الشيعة الذين كانوا يسكنون في مناطق مهملة ومتأخرة اقتصادياً واجتماعيا[1].

في ٢٦ أيار (مايو) ١٩٢٦ أُعلنت دولة لبنان جمهورية. وكانت أول جمهورية من نوعها تأسَّست في العالم العربي. وقد وُضع لهذه الجمهورية دستور مستمدّ في روحه من الدساتير الغربية العصرية، فلم ينصّ على أن للدولة ديناً معيناً كما هي الحال في دساتير البلدان العربية المجاورة، بل إن حرية العبادة في لبنان حقيقة ثابتة. وفي سبيل المحافظة على التوازن الطائفي، نشأ تقليد يكون بموجبه رئيس الجمهورية مارونياً، كون هذه الطائفة هي الأكبر في لبنان، ورئيس المجلس النيابي شيعياً، ورئيس الوزراء مسلماً سنّياً، ووزير الدفاع درزيا[2].

في هذه الأثناء أصبح الحكم الفرنسي في لبنان غير مباشر، وقد استعيض عن «المفوض السامي» الفرنسي بـ «مستشار». هذا لناحية التسمية، أما عمليّاً فقد كانت صلاحيات المستشار أضعف بقليل من صلاحيات المندوب، خاصة وأن القوى الأمنية كانت لا تزال في أيدي الفرنسيين. وقد شهدت حقبة الانتقال من وضع الحدود والدستور للبنان الكبير إبّان الاحتلال الفرنسي إلى مرحلة الاستقلال التام الناجز بعض الاحداث السياسية والأمنية، إذ كان الفرنسيون، قبل الحرب العالمية الثانية، يسعون إلى الحفاظ على موقع لهم في لبنان عن طريق المعاهدات الأمنية والسياسية، بينما كان القادة اللبنانيون يعملون على تحقيق استقلال كامل لبلدهم. وقد اشترك زعماء جميع الطوائف، أو أكثر أولئك الزعماء على الأقل، في العمل من أجل هذا الهدف الذي تحقَّق فعلاً في تشرين الثاني (نوڤمبر) من سنة ١٩٤٣. وفي ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦ تمَّ جلاء الجيوش الفرنسية عن كامل الأراضي اللبنانية، فأصبح لبنان بذلك بلداً سيِّداً حراً مستقلاً يتمتَّع بكامل الصفات الحقوقية الدولية والاقليمية.

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٧٩؛ راجع Saïd Himadeh, Ed., Economic organisation of Syria (Beirut 1936) PP. 6, 410 - 411

٢ ـ راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٩٩

لقد شهد لبنان المستقل على مدى الخمسين سنة من استقلاله خضات سياسية وأمنية، كان أخطرها تلك التي وقعت بين سنتي ١٩٧٥ و ١٩٩٠، ناهيك عن تلك التي وقعت سنة ١٩٥٨. ومهما حاول المجمّلون ترميم صورة تلك الاحداث، فلا شك في ان الطائفية التي تشكّل أساس الانتماء الاجتماعي السياسي في لبنان، كانت المرتع الخصب لوقوع تلك الأحداث. وإنّ إلقاء نظرة سريعة على ما حفلت به الصراعات السياسية داخل المجتمعات السياسية اللبنانية حول مواضيع شكل الدولة وهويتها السياسية ونظامها، منذ إعلان لبنان الكبير، من شأنه أن يظهر الصورة الواضحة لحقيقة مسألة المسيحيين وسائر المجتمعات الطائفية في لبنان.

***

بينما كان الحلفاء يقررون الشكل الجيوسياسي لمستقبل الشرق الأوسط، كانت قد عمَّت البلاد العربية دعوة لانشاء دولة عربية آسيوية واحدة. وكان الداعي الحسين بن عليّ (١٨٥٦ ـ ١٩٣١)، شريف مكّة المولود أصلاً في الآستانة حيث نشأ حتى عُيِّن شريفاً على المدينة الاسلامية المقدَّسة: مكّة، والحجاز سنة١٩٠٨. ومن هذا الموقع راح يدافع عن حقوق العرب ويعرقل التدخُّل التركي ويرفض التجنيد الاجباري قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها. وقد أقام اتصالات سرِّية مع الانكليز من جهة، ومع الجمعيات السرية العاملة ضدّ العثمانيين في مصر وسورية. وبينما كانت الحرب العالمية الأولى مشتعلة، انتهز الشريف حسين الظروف فأعلن الثورة العربية في صيف ١٩١٦ ضدّ الأتراك، الذين طردهم من مدن الحجاز، وأعلن نفسه ملكاً عليها ثم خليفة سنة ١٩٢٤. لكن سياسة الحلفاء، واتفاقية سايكس بيكو، حالتا دون تحقيق هدفه القاضي بإنشاء دولة عربية آسيوية واحدة تحت التَّاج الهاشمي. وقد هاجمه ابن سعود سنة ١٩٢٤ فاضطر إلى ترك الحجاز وأقام في نيقوسية. ثمّ توفي في عمان ودفن بالحرم الشريف. وكان ابنه فيصل (١٨٨٣ ـ ١٩٣٣) الذي ثار هو الآخر على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، قائداً عاماً للجيش العربي المحارب في فلسطين. وقد نودي به ملكاً عربياً على كامل منطقة الهلال الخصيب سنة ١٩٢٠، فتزعَّم تياراً مناهضاً لتقسيم المنطقة

إلى دول متعددة، وقاد ثورة التحق بها تيار كثيف من تلك البلدان، فكان ذلك التيار جامعاً بين المسلمين السنّة الذين حلموا بإعادة الخلافة العربية، وسائر الطوائف الاسلامية المنشقّة التي عجزت عن تحقيق أهدافها بإنشاء كيانات مستقلّة لها في النظام الجديد لهذه المنطقة الذي رسمه الحلفاء. غير أن المسيحيين اللبنانيين قد ناهضوا التيار الفيصلي من منطلقهم الاستراتيجي الطبيعي. هذه هي الخلفية الأساسية لاختلاف الرؤية الكيانية لدى مختلف القوى التي باتت تشكّل شعب لبنان الكبير وبالتالي شعب الجمهورية اللبنانية.

فعندما أقر مجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان في ٢٨ نيسان (إبريل)) ١٩٢٠، بالرغم من احتجاج الحكومة الفيصلية العربية في دمشق، صُعق القوميون العرب للنبأ، فيما استقبلته أغلبية المسيحيين في لبنان بالارتياح. وقد عقب ذلك مقاومة من قبل جيش فيصل للجيش الفرنسي الذي هزم الجيش العربي في ميسلون في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٢٠، وواصل زحفه فاحتلّ دمشق التي غادرها فيصل. وبينما أدّى تعاون اللبنانيين مع سلطة الانتداب إلى قيام الجمهورية اللبنانية، تعذّر حصول مثل ذلك في سورية نتيجة للموقف العدائي الذي اتّخذه القادة الوطنيون هناك من الفرنسيين، خاصة بعد ثورة دروز حوران عليهم انطلاقاً من مناطقهم سنة ١٩٢٥ لتشمل سورية كلها سنة ١٩٢٧. وقد امتدت هذه الثورة إلى المناطق اللبنانية التي يسكنها دروز وشيعة. وكانت الأكثرية المسلمة في المناطق التي ضُمّت إلى لبنان الصغير سنة ١٩٢٠ قد اعترضت على هذا الاجراء. فلقد كان المسلمون «وخاصة السنيّون منهم يرون أن انضمامهم إلى دولة لبنانية يسيطر عليها المسيحيون، يهدّد بفصلهم فصلاً تاماً عن العالم العربي الاسلامي الذي ينتمون إليه. فما أن أُعلن لبنان الكبير حتى هبَّ المسلمون في بيروت والبقاع ومناطق طرابلس وصيدا وصور إلى المعارضة، فأعلنوا مقاومتهم للانضمام وطالبوا بإلحاق مناطقهم بسورية[1]». وعندما شبَّت الثورة الدرزية في حوران انضمَّ دروز لبنان إلى مسلميه السنّة في مقاومتهم

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢١٢

للسياسة الفرنسية. وإذ وجد الروم الاورثوذكس أن الفرنسيين يُظهرون عناية خاصة بالموارنة «أحجموا عن إظهار الولاء الكامل لدولة كان الموارنة فيها العنصر المسيطر[١]». كذلك انضم الشيعة في بداية تلك المعارضة إلى مقاومي الدولة الجديدة، ومع الأيام، «أقلع جانب كبير منهم عن المقاومة... اذ أدركوا، تدريجياً، أن وضعهم كأقلية كبرى في لبنان خير لهم من وضعهم كأقليَّة صغيرة في دولة سورية شاملة[٢]». وعندما دعا هنري دي جوڤينيل[٣] المجلس التمثيلي إلى سنّ دستور للبنان سنة ١٩٢٥، قامت المظاهرات وأعمال الشغب في مختلف المناطق الاسلامية بحجة أن المسلمين لا يرغبون في دستور لبناني لا بدّ من أن يكرِّس حدود لبنان الكبير.

وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، حدث ما أقلق مسيحيي لبنان، إذ قصد فريق من وجهاء المسلمين اللبنانيين العاصمة السورية دمشق، حيث كان ينعقد اجتماع الجمعية التأسيسية السورية، وطالبوا بأن يتضمن الدستور السوري الذي كان قيد الوضع «حق سورية بالمناطق الاسلامية في لبنان». فكان من نتيجة ذلك أن برز تيار ماروني بزعامة اميل إدِّه يشدِّد على ضرورة إيجاد الضمانة الخارجية لاستقلال لبنان، يناهضه تيار ماروني آخر بزعامة بشارة الخوري رأى في البلاد العربية مجالاً طبيعياً لنشاط لبنان الاقتصادي. وقد أصرَّ قادة هذا التيار على ضرورة توثيق العلاقات مع البلدان العربية دون الوصول إلى حد الوحدة[٤]. ومن هذين المنطلقين كان تيار إدِّه الذي سيُعرف فيما بعد بحزب الكتلة الوطنية، يرى في استمرار الانتداب الفرنسي ضمانة لاستقلال لبنان، بينما كان تيار الخوري وهو الذي سيُعرف فيما بعد بالحزب الدستوري، يعتبر الانتداب حائلاً دون تحقيق

١ ـ المرجع السابق، ص ٢١٣
٢ ـ المرجع السابق
٣ ـ جوڤنيل (هنري دي) Jouvenel (١٨٧٦ ـ ١٩٣٥): ولد وتوفي في باريس. مندوب فرنسة السامي في سورية ولبنان (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦). في عهده وضع دستور الجمهورية اللبنانية وانتخب الرئيس اللبناني الأول شارل دبَّاس.
٤ ـ راجع: Albert Hourani, Libanon from fendalism to modern state, Middle East Studies, II (1966), PP. 262 - 263

التعاون بين المسيحيين والمسلمين، «وفيما امتعض تيار إدّه من إصرار اللبنانيين المسلمين على معارضة الكيان اللبناني بوضعه الراهن، رأى تيار الخوري بأن هذه المعارضة الاسلامية لا بدّ من أن تزول، أو على الأقل تتعدَّل، إن أبدى المسيحيون بعض التفهُّم لموقف المسلمين من الانتداب وكفُّوا عن المغالاة في إظهار الصداقة لفرنسة[1] ».

بينما تعاون بعض المسلمين مع النظام اللبناني الناشئ، من خلال اشتراكهم في مؤسساته الرسمية، استمرَّت اكثريتهم في وضع المعارض للكيان. وكان بعض هؤلاء يُطالب بالاتحاد مع سورية، بينما بعضهم الآخر يدعو إلى وحدة عربية شاملة. وكان بعض زعماء المسلمين قد دعا في ١٩٣٣ إلى مؤتمر برئاسة سليم سلام، عُرف بمؤتمر الساحل الأول، قرَّروا بخلاله بالإجماع المطالبة بضمّ المناطق اللبنانية الاسلامية إلى سورية. وعندما وقعت الاضطرابات في سورية في بداية سنة ١٩٣٦ بين الوطنيين والفرنسيين، اضطربت الأحياء الاسلامية في بيروت، وقامت التظاهرات في طرابلس وصيدا، وسارع سلام إلى عقد مؤتمر الساحل الثاني في آذار (مارس) ١٩٣٦، وصدرت المقرارت نفسها التي كانت قد صدرت عن المؤتمر الأول بشأن المطالبة بضمّ المناطق اللبنانية الاسلامية إلى سورية، وقد لاقت هذه الدعوة هَبَّة اسلامية في لبنان ظهر معها وكأنَّ هذا الكيان غير قابل للاستقرار.

في مقابل هذا التيار الاسلامي، تكوَّن تيار مسيحي جديد قال بوجوب التمسُّك بالكيان اللبناني الراهن. وقد تمثَّل هذا التيار في منظَّمة أسَّسها فريق من الشباب المسيحي على رأسه بيار الجميِّل الماروني، عُرفت باسم الكتائب اللبنانية. بينما ظهر داعية مسيحي آخر، هو انطون سعاده الاورثوذكسي المذهب، الذي قال بقومية تختلف عن القوميتين: العربية المسلمة، والمسيحية اللبنانية، وكانت تلك القومية السورية، التي التقت مع المسلمين في ضمّ كل لبنان إلى سورية دون أن تلتقي معهم في ضمّ أجزاء منه إليها أو إلى سائر العالم العربي المسلم. وبينما لاقت

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢١٧

دعوة الكتائب اقبالاً بين المسيحيين الموارنة بشكل خاص، راجت الدعوة القومية السورية في الأوساط الأورثوذكسية والانجيلية وبعض الشيعة والدروز.

وفي الجهة الأخرى أنشأ المسلمون مجلساً استشارياً لتنسيق مطالب الطوائف الاسلامية في البلاد، فقال هذا المجلس بتشجيع الشباب المسلم على تأسيس منظمة النجادة أوائل سنة ١٩٣٧ للوقوف في وجه الكتائب.

بقيت الأحوال مضّطربة سنة ١٩٣٦ حتى تمَّ توقيع المعاهدة الفرنسية السورية في باريس. فهمد المسلمون في لبنان حينذاك، مما سمح ببدء المفاوضات في بيروت لعقد معاهدة مماثلة بين فرنسة ولبنان. وبما أن السوريين كانوا قد وقَّعوا تلك المعاهدة، أصبح القادة المسلمون في لبنان قابلين بتوقيع معاهدة مماثلة. غير أن القوى الشعبية التي كانت لا تزال غير مستعدَّة على الاطلاق للاعتراف بالكيان اللبناني، وقد وجدت في المعاهدة تكريساً نهائياً له بحدوده القائمة، هبَّت للمعارضة من خلال تظاهرات عنيفة في المناطق الاسلامية من بيروت، كما أضربت طرابلس، ووقعت مواجهات دامية طائفية في المناطق المختلطة. الا ان ذلك لم يمنع من توقيع المعاهدة.

أحكم الفرنسيون قبضتهم على لبنان بخلال الحرب العالمية الثانية، فاضّطر جميع القوى السياسية إلى الركون. بيدَ أنه مع سيطرة الديغوليين على الموقف في المنطقة، وإعلانهم مع الانكليز منح لبنان وسورية الاستقلال، عادت الحركة السياسية سنة ١٩٤٢ إلى سابق نشاطها. وعاد المسرح ليشهد المبارزة بين الكتلة الوطنية (اده) وبين الكتلة الدستورية (الخوري)، وتجدَّدت الدعوة في أوساط المسلمين إلى الوحدة العربية، بينما دعت الكتلة الدستورية إلى استقلال لبنان استقلالاً تاماً، ودعت الكتلة الوطنية، التي تحفَّظت بشأن هذا الاستقلال، إلى الحفاظ على بعض الصلات السياسية مع فرنسة.

أمام هذا الواقع كان من الطبيعي أن تكون دعوة الكتلة الدستورية أقرب إلى المسلمين من دعوة الكتلة الوطنية. وشيئاً فشيئاً وجد بعض القادة المسلمين أن الظرف لا يسمح بأكثر من تحقيق موقع فعَّال داخل الكيان القائم، وفسَّروا موقفهم

الجديد بمقولة أن لبنان جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، له خصائص مميزة تستدعي، إلى حين، استقلاله التام. فتمَّ على هذا تفاهم بين الدستوريين وكبار الزعماء المسلمين على أساس ما أصبح يُعرف فيما بعد بـ «الميثاق الوطني». وعلى هذا حقَّقت الكتلة الدستورية انتصاراً على الكتلة الوطنية، تُرجم في انتخابات نيابية جرت سنة ١٩٤٣.

كان من الخطر بمكان أن يسير المسلمون بالصيغة اللبنانية وبما عُرف بالميثاق الوطني انطلاقاً من مقولة أن «للبنان خصائص مميَّزة تستدعي، إلى حين، على الأقل، استقلاله التام» وأن يكون استقلال لبنان «تدبيراً عابراً». ولقد عبَّر مفتي الجمهورية اللبنانية صراحة عن خلفيّة موقف المسلمين هذا بعد حوالى خمس وثلاثين سنة، إبان الأحداث الطائفية الدامية التي عصفت بلبنان بين منتصف السبعينات وبداية التسعينات، إذ قال أنه «لم يكن بامكانهم أن يغيِّروا ما حصل، أملاً بأن يأتي يوم آخر يكون أبرك من هذا اليوم، وظرف أحسن من هذا الظرف، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً...[1]».

ولم يكن الميثاق الوطني، بنظر المسلمين في لبنان، حاظياً باعتبار أفضل من الاعتبار الذي حظيت به الصيغة. ففي بداية تلك الاحداث اللبنانية المشؤومة في الربع الأخير من القرن العشرين، ومع اشتداد قوة المقاومة الفلسطينية التي نشأت وترعرت في لبنان، ونشأ وترعرع بينها وبين المسلمين في لبنان تحالف استراتيجي وثيق، وقد شعر المسلمون بأنهم، بالتعاون مع تلك المقاومة، بات بوسعهم أن يقلبوا المعادلة، قال مفتي المسلمين: «ان المواثيق في حال حصولها، تفقد قيمتها إذا تضمَّنت تكريس التمايز بين المواطنين في الحقوق والواجبات... أوَليس الميثاق عقداً أجري بين طرفين إختاراه بالتفاهم بينهما منهجاً خاصاً للتعايش والتعاون؟!. فهل اذا رأى أحد هذين الطرفين أن هذا العقد لم يعد صالحاً، وأنه على العكس، أصبح ضاراً بمصلحته، ويسيء إلى قضاياه، بل ويمزِّق وحدته وتعاونه مع الطرف

---

١ ـ الشيخ حسن خالد مُفتي الجمهورية اللبنانية، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية، دار الكندي (بيروت ١٩٧٨) ص ١٢٥ ـ ١٢٦

الآخر، يجوز أن يستمر هذا العقد قصراً وجبراً؟... أفليس من الحكمة والمصلحة العامة وحسن المواطنية استجابة الطرف الآخر لأمنية الآخرين[1]!».

لم يكن جميع المسيحيين في لبنان بحاجة إلى وقوع أحداث ١٩٧٥ واستمرارها أكثر من خمس عشرة سنة ليتوقّعوا حقيقة ما ينتظر الصيغة والميثاق من سوء مصير، وان كان بعضهم الآخر قد اعتبر أن تمكّن عهد بشارة الخوري من توطيد دعائم الاستقلال اللبناني يعني نشوء دولة ثابتة الأركان لن تقوى رياح السياسة الاقليمية والدولية على تقويضها. إلاّ أنّ الأوّلين، مع هذا، ماشوا سيِّد العهد وتياره في سياسة تقوية العلاقات بين لبنان والدول العربية، وقد وقّع لبنان في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤ اتفاق الاسكندرية الذي مهّد الطريق إلى قيام جامعة الدول العربية في ٢٢ آذار (مارس) من السنة التالية، إلى جانب سورية وشرقي الأردن والعراق ومصر. ورغم أن تلك الدول قد أعربت عن ثقتها بسياسة لبنان العامة، وتعهّدت باحترام سيادته وكيانه ضمن حدوده القائمة، فقد استمرَّ أصحاب النزعة إلى القومية العربية من المسلمين على ما كانوا عليه. وجاء إخفاق الانظمة العربية التي كانت قائمة في محاولتها منع قيام دولة اسرائيل في أرض فلسطين، ليُفقد الحكومات العربية، ومنها الحكومة اللبنانية، الكثير من دعائم الاستقرار، مما أدّى بالفعل إلى إطاحة الجيش السوري في ربيع ١٩٤٩ حكومةَ سورية الدستورية، وإطاحة المعارضة اللبنانية المختلطة حكمَ بشاره الخوري صيف ١٩٥٢، وإلى إطاحة الملكية المصرية بعد الأحداث التي وقعت هناك على يد الضبّاط الأحرار بين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ وأسفرت عن تسلّم جمال عبد الناصر قيادة الثورة المصرية وقد شرع الزعيم المصري الجديد، في السنوات التالية، في بسط نفوذه على العالم العربي، محاولاً بذلك تحقيق الوحدة العربية. وقد أيقظت سياسة عبد الناصر، في لبنان، حماس دعاة الوحدة العربية من المسلمين الذين راحوا صيف ١٩٥٧ يقومون بأعمال الشغب، فقامت الفئة الدرزية المعارضة للنظام اللبناني القائم بنسف الجسور وسدّ الطرق في منطقتها، الشوف. وأُلقيت القنابل المتفجِّرة

---

١ ـ الشيخ حسن خالد، ص ٨٢ ـ ٨٣

في بعض أحياء بيروت، وانهار الأمن في المناطق الأخرى. وفي ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨، حين اتَّحدت الدولتان السورية والمصرية باسم الجمهورية العربية المتحدة، هنَّأت الحكومة اللبنانية الرئيس عبد الناصر لهذه المناسبة. وقد كان رئيس الجمهوريّة آنذاك أحد دهاة الساسة الموارنة في لبنان: كميل شمعون. بيدَ أن تلك التهنئة الحكومية لقيام الوحدة بين مصر وسورية، لم تمنع من ازدياد التدهور في الموقف اللبناني الداخلي. فاستُمرت الأعمال المخلّة بالأمن في مختلف المناطق. وتكثّفت التظاهرات الاسلامية المؤيدة للوحدة وللرئيس عبد الناصر، مما جعل الكيان اللبناني يبدو مهدَّداً جدّياً. وفي ٨ أيار (مايو) من تلك السنة أقدمت يد مجهولة على قتل الصحفي الماروني المعارض لسياسة شمعون: نسيب المتني، أمام منزله في بيروت، وسرعان ما اتُّهم العهد باغتيال الصحافي، ودعت المعارضة، ذات الصبغة الاسلامية، إلى اضراب شامل إعراباً عن الاحتجاج. ولم يمض يومان حتى تحوّل الاضراب إلى ثورة مسلَّحة في الأحياء المسلمة من المدن الرئيسية اللبنانية المختلطة وخاصة العاصمة بيروت. وفي اليوم الذي بدأت فيه الاضطرابات في طرابلس، هاجمت عصابة مسلَّحة من الأراضي السورية الموقع اللبناني في المصنع، على الحدود، وقتلت خمسة من حرَّاسه. «ولم يمض وقت طويل حتى كادت الحكومة اللبنانية تفقد السيطرة على حدودها الشرقية والشمالية بكاملها[1] »، خاصة وأن الجيش اللبناني الذي كان قادراً على سحق الثورة بالقوة آنذاك، بقي على الحياد كون قائده اللواء فؤاد شهاب، الذي سيصبح رئيساً للجمهورية بعد كميل شمعون، قد أصرَّ على أن هذا الجيش لا شأن له في دعم موقف العهد ضد المعارضة، بل إنَّ مهمته تقتصر على الدفاع عن البلاد ضدّ العدوان الخارجي والحفاظ على الأمن الداخلي عند الحاجة!.

بينما كانت الحالة في لبنان تزداد سوءاً، وقع انقلاب عسكري في العراق في ١٤ تموز (يوليو) أطاح الحكمَ الملكي هناك. وإذ بدا هذا الانقلاب في مصلحة عبد الناصر، زادت حماسة دعاة الوحدة العربية بين المسلمين اللبنانيين. مما دفع بسيد

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢٤٦

العهد إلى دعوة الولايات المتحدة الاميركية بإلحاح لارسال قوّة عسكرية تحمي الكيان اللبناني من الانهيار. فلبَّت الولايات المتحدة هذه الدعوة وانزلت في ١٥ تموز (يوليو) قوة من المارينز على الشاطئ الشمالي لضاحية بيروت، حيث السكان من المسيحيين الموالين للجمهورية. على أن هؤلاء المارينز لم يحاولوا وضع حدّ للثورة في البلاد، إنمَّا هم أوقفوا، بمجرد نزولهم، التدخل الخارجي. وكان هذا كافياً لتحويل أهداف الثورة من الوحدة العربية إلى منع التجديد للرئيس شمعون الذي كان قد أعلن بلسان رئيس وزرائه: سامي الصلح، قبل ذلك التاريخ بأكثر من شهر أنه لا ينوي التجديد لنفسه. وقد أكمل شمعون ولايته حتى آخر ساعة منها. وكان وكيل وزير الخارجية الاميركي: روبرت مورفي، قد زار بيروت في السادس عشر من تموز (يوليو) واجتمع إلى الفريقين: الموالي والمعارض، وعاد إلى بلاده بعد أن اتّضح له أنّ الحل الأنسب هو في انتخاب اللواء فؤاد شهاب خلفاً للرئيس شمعون[١]، وقد تمَّ هذا الانتخاب في ٣١ تموز (يوليو). إلاَّ أن الرئيس المنتخب لم يستلم مقاليد الحكم من سلفه إلاَّ بعد نهاية الساعة الأخيرة من ولاية هذا الأخير في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر).

ما أن تسنّم اللواء شهاب كرسي الرئاسة حتى سارع إلى تأليف وزارة جديدة من معارضي العهد السابق من المسلمين، ومن المسيحيين المحايدين، برئاسة أحد كبار زعماء الثورة: رشيد كرامي. وإذ أعلنت هذه الوزارة في بيانها الأول عن عزمها على «قطف ثمار الثورة» ثارت نقمة الفئات الموالية للعهد السابق بما في ذلك أكثرية المسيحيين. «وحدَث في اليوم التالي أن أختُطف الاديب والصحافي المسيحي الكتائبي فؤاد حدّاد الملقب بأبي الحن، وانتشرت الاخبار عن تغذيبه وقتله. فدعا حزب الكتائب على الفور إلى إضراب عام، وساندت هذا الاضراب الفئات المستاءة من تباشير العهد الجديد. وسرعان ما تطوَّر إضراب ٢٣ ايلول (سپتمبر)، كما تطوَّر إضراب ٨ أيار (مايو)، إلى ثورة مضادَّة وقفت في

١ - راجع: Robert Murphy, Diplomat among warriers (Newyork 1964), PP. 439 - 466; Miller Richard L., Dag Hammarskgold and Crisis diplomaty (Newyork 1961), P. 178

وجه الثورة الأولى. وهكذا عادت الأحوال فجأة إلى التدهور، حتى أصبحت البلاد مهدَّدة بحرب أهلية[1] ».

لا يستطيع المراقب إلاَّ أن يظن على الأقل، بأن يداً معيَّنة كانت تسعى إلى القضاء على الكيان اللبناني في ذلك الموسم الوحدوي العربي. وأنَّ تلك اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافي نسيب المتني، الذي كان إضراب الاحتجاج على مقتله يوم الصفر لانطلاق ثورة ١٩٥٨ المسلمة، هي اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافي فؤاد حدَّاد ليكون يوم الاضراب احتجاجاً على مقتله يوم الصفر لبداية ثورة مضادَّة تعيد شقّ ما كان يُعمل على إعادة لحمته. غير أن المداخلات الأجنبية لدول القرار جعلت السيد الجديد للعهد، الذي جاء به الأميركيون رئيساً، يعي أنه لن يتمكَّن من تثبيت أركان الحكم إلاَّ متى تمثَّلت قوى البلاد الأخرى في الوزارة. لذلك سعى إلى تأليف وزارة أقطاب مثّل الثورة فيها رئيس الوزارة رشيد كرامي، ومثّل الثورة المضادة رئيس الكتائب بيار الجميِّل، وكان الوزيران الآخران: الحاج حسين العويني من وجهاء السنة في بيروت، وريمون إدِّه: نجل اميل إدِّه... وعميد حزب الكتلة الوطنية. وأُطلق على هذه الحكومة شعار: « لا غالب ولا مغلوب ». وبذلك عادت الحياة الطبيعية إلى البلاد بلمح البصر لتستقرّ بضع سنوات، وسوف تكون نهاية ذلك الاستقرار الهش مع بدء ازدياد قوة المقاومة الفلسطينية في لبنان، نهاية الستينات، التي ستصبح بعرف مفتي الجمهورية اللبنانية آنذاك: « جيش المسلمين في لبنان[2] ».

***

---

١ ـ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢٤٩

٢ ـ في لقاء تمَّ بين المُفتي حسن خالد والزعيم الدرزي كمال جنبلاط قال الأخير للمفتي: «لولا الفلسطينيين لهُزمنا ودخل الكتائب البسطة... رأى المسيحيون الموارنة انو إذا قويوا الفلسطينيين رح يقوى المسلمين، ويطالبوا بحقوقهم أكثر وأكثر، وقالوا في خطر من الفلسطينيين علينا، يعني على امتيازاتهم، الفلسطينيون كما كنت تقول سماحتك هم جيش المسلمين... (ذكر هذا المحضر في كتاب الشيخ حسن خالد ص ٢٨٧)

لم يقضِ اخفاق الثورة المسلمة في لبنان سنة ١٩٥٨ في تحقيق أهدافها على استراتيجية المسلمين الثابتة، بل راحوا ينتظرون ... «يوماً آخر يكون أبرك». وقد بدا لهم أن ذلك اليوم قد اتى عندما أصبحت الثورة الفلسطينية في لبنان دولة أقوى من الدولة التي هي ضمنها. وإذ بدا للمسيحيين أن خطراً داهماً بات يهدّد مصيرهم، ولهم في ذلك من الماضي القريب والبعيد أحداث وعبر، راحت قياداتهم وأحزابهم تتسلّح سرّاً في مقابل الترسانة الاسلامية الفلسطينية، وراح شبّانهم يتدربون على حمل السلاح. ولم يكن من الصعب توقّع اشتعال لبنان من قبل أي مراقب للأحداث التي كانت تجري في السنوات السبع السابقة لـ ١٣ نيسان (إپريل) ١٩٧٥، يوم أدَّت حادثة تصادم بين الفلسطينيين من جهة، وبعض أعضاء نواة ميليشيا حزب الكتائب من جهة أخرى، إلى مقتل عدد من الطرفين، وسط منطقة مسيحية هي ضاحية جنوبية لبيروت: عين الرمّانة، وقد كانت تلك الحادثة الشرارة التي اشعلت فتيل هذا الوطن الذي كان قد أضحى برميل بارود.

ومن يراقب ما سبق ذلك الحادث من تحضيرات، لا بدّ له من أن يلاحظ أنَّ التيارين السياسيين اللذين برزا مع تشكيل لبنان الكبير، كانا لا يزالان هما هما على نفس المسار الذي انطلقا عليه من العشرينات إلى الأربعينات، فكان المسلمون يعملون سراً وعلانية على دعم تشكّل ونمو الثورة الفلسطينية في لبنان، وهي الثورة العربية المسلمة، وإن كان بعض فصائلها قد رفع راية اليسار، بينما راح التيار الثاني يتوجّس خيفة من ذلك النمو، حتى إذا ما تأكّد له أن المحظور قريب الوقوع، راح يتسلّح. وإذ لم يكن في الأجواء ما من شأنه أن يبدّد تلك الرؤية، وكانت الأوضاع الاقليمية والدولية في حرب باردة ينذر أفقها بالانفجار، وقد كان لبنان الأرض الأخصب لإشعال موقد انضاج طبخة إعادة ترتيب أوضاع الشرق الأوسط بوصفة أميركية جديدة، تزيح عن المائدة أطباق حلفاء الحرب العالمية الثانية، كانت حادثة عين الرمّانة كناية عن إشعال عود ثقاب ووضعه داخل الموقد.

كان مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد أصدق من تكلّم عن حقيقة العلاقة بين المسلمين اللبنانيين والثورة الفلسطينية في ما يختصُّ بحرب لبنان إذ قال: « ... قبلاً، كنا نلجأ إلى الضغط السياسي دائماً، وهذه كانت وسيلتنا الوحيدة للاصلاح والمساواة من جهة أخرى، برزت القضية الفلسطينية، فوجدنا انفسنا متلاحمين مع الفلسطينيين لأننا معاً نشكّل ايديولوجية واحدة. نحن والفلسطينيون شيء واحد: عربياً ودينياً ووطنياً[1] ». وعندما سأل الرئيس الليبي مُفتي المسلمين السنة في لبنان عن قدرة طائفته على الصمود، أجاب:

« ... إنّني أريد إن أقول لك أن قدرتنا مستمدَّة من قدرة العرب، ومن قدرة الفلسطينيين في آن معاً، فإذا قالوا بأنهم قادرون على استمرار المعركة، فنحن قادرون أيضاً... نحن أقوياء بكم وبالفلسطينيين، هذا جوابي...[2] ».

والحال هذه لا تختلف نظرة المسيحيين إلى الموضوع عن نظرة المسلمين. فقد ذكر أحد الأساقفة في رسالة وجّهها إلى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحي الاسلامي أن «المسلمين اغتنموا الوجود الفلسطيني المسلّح على أرض لبنان، علماً بأنَّ أكثرية الفلسطينيين الساحقة من المسلمين، وحاولوا الاستيلاء على السلطة بقوة السلاح، في هدف جعل لبنان بلداً مسلماً كسائر الدول العربية في الشرق الأوسط حيث نظرياً، وغالباً عملياً، دين الدولة الاسلام، والاسلام مصدر التشريع، ذلك لأن لبنان هو البلد الوحيد في المشرق الذي يشذّ عن هذه القاعدة[3] ».

لقد كان الميثاق الوطني، الذي توافق عليه اللبنانيون في بداية عهد الاستقلال، يقضي بأن لا يكون لبنان للغرب ممرّاً ولا للشرق مقرّاً. وفلسفة هذا الشعار أن لا يستقوي المسيحيون بالغرب ولا المسلمون بالشرق. غير أن الأحداث في نهاية الستينات وبداية السبعينات كانت تعزز موقع المسلمين في لبنان، وقد

---

١ - الشيخ حسن خالد، ص ٢٨٢
٢ - المرجع السابق، ص ٢٨٣
٣ - رسالة للمطران بول باسيم

تمادوا في خروجهم على الميثاق، فراحوا يستقوون بالمقاومة الفلسطينية وبالأموال العربية عاملين، علانية وسراً، من أجل القضاء على الصيغة اللبنانية، وعلى الميثاق الوطني. وكان المسيحيون قد فقدوا ذلك الدعم التقليدي الذي عهدوه في الغرب حتى إنهم في وقت من الأوقات قد شعروا بأن الكرسي الرسولي ينطلق في اعتباراته من منطلقات قد تكون خطرة على كيانهم.

فلقد بدا أن الفاتيكان يحمّل المسيحيين اللبنانيين وزر مسيحيي الشرق الأوسط والبلدان الاسلامية الأخرى. وقد كان في ذلك سبباً أساسيّاً في تعارض وجهات النظر بين الڤاتيكان وبعض القوى الممثّلة في «الجبهة اللبنانية» التي مثَّلت بخلال تلك الحرب مجموعة القوى المسيحية المقاومة. وعندما أرسل قداسة البابا بولس السادس الكاردينال برتولي إلى لبنان لتدارس الوضع والبحث «عن صيغة مقبولة للتعايش من قبل جميع الفئات» قال برتولي لمن اجتمع بهم من قادة الجبهة أن «الڤاتيكان يهتم بمجموع المسيحيين المتواجدين في المنطقة... ويعارض فكرة التقسيم، لأن ذلك سيحمل اسوأ النتائج على ملايين المسيحيين في الشرق العربي[1]».

وكان قداسته قد استقبل خلال الحرب أحد مطارنة الموارنة، فحيَّاه بقوله: «إني أحيِّي من خلالك كل الشعوب التي تعيش عندكم هناك[2]».

لقد كانت تلك التحيَّة من قبل رأس الكنيسة الكاثوليكية للمطران الماروني، خروجاً على المألوف... إذ كان التقليد المتَّبع يقضي بأن يحيي البابا «الشعب اللبناني» ويدعو له بالتوفيق.

ولما وصل خبر تحيَّة قداسة البابا «الجديدة» إلى بيروت، والحرب كانت في أوجها، توجس الكثيرون من قادة القوى المسيحية خيفة، معتبرين أن الڤاتيكان يقصد من تحيته الجديدة شمل الفلسطينيين. وعندما قدم الكاردينال برتولي إلى

١ ـ «الحوادث»، العدد ١١٦٦، تاريخ ٩ آذار (مارس) ١٩٧٩، ص ١٤

٢ ـ مفرّج، حرب الردّة، ص ٩٤

لبنان، سمع من أكثر من مسؤول حزبي وديني مسيحي ما يعبّر عن خيبة الأمل المسيحية من موقف الكرسي الرسولي «غير المتفهّم تماماً لحقيقة الأوضاع اللبنانية». وقد تبع ذلك سلسلة لقاءات بين وفود مسيحية لبنانية ووفود من الڤاتيكان، فتبيّن أخيراً أن الموقف النهائي للكرسي الرسولي هو:

١ ـ معارضة الڤاتيكان لتقسيم لبنان.

٢ ـ معارضة الڤاتيكان «لضم لبنان».

إنّما الحلول التي يعمل الڤاتيكان من أجلها منبثقة من جوهر الصيغة اللبنانية.

وهكذا فإنّ اعتبارات الڤاتيكان جعلت مسيحيي لبنان يتحمّلون، في أصعب ظروفهم، أوزار ومسؤوليات سلامة مسيحيي الشرق الأوسط وسائر البلدان الاسلامية. فإنّ مواقف الڤاتيكان، النابعة من تلك الاعتبارات الانسانية، قد حرمت مسيحيي لبنان، في صراعهم المرير، من دعم معنوي كان من شأنه أن يساعد على ايجاد التوازن المفقود بعد خروج المسلمين اللبنانيين على الميثاق الوطني وبروز الفلسطينيين كقوة ثقيلة تقاتل إلى جانب المسلمين، وشيوع إرسال الاسلحة والعتاد والمال والرجال إليهم من بعض الدول العربية لدعمهم في مقاتلة المسيحيين.

أمّا الدعم التقليدي الآخر، الذي اعتاد المسيحيون اللبنانيون ان يأملوا به، وهو دعم الغرب عامة، وفرنسة خاصة، فكان في هذه الظروف مستحيل المنال، لأن فرنسة، وغيرها من بلاد الغرب المسيحي، كانت في وضع سياسي ضعيف من جهة، ومن جهة ثانية كانت مهتمّة بشؤون الاقتصاد والطاقة، وليس بوسعها، أو من مصلحتها، أن تُعادي ملايين المسلمين العرب من أجل صداقة بضع مئة ألف مسيحي، ليس لديهم مال ولا بترول. أمّا السياسة الأميركية فكانت بعيدة كل البعد عن المفاهيم الانسانية المجرَّدة، وخاضعة، من جهة، للأهداف المنبثقة عن أجهزة الاستخبارات، وتلك المنبثقة، من جهة ثانية، عن المصالح الصهيونية. وكانت استراتيجية الاتحاد السوفياتي أممية يسارية، بينما المسيحيون في لبنان، وبخاصة

المقاومون منهم، متديِّنون بعيدون كل البعد، لا بل إنهم معادون لكل ما من شأنه أن يتَّصف بالإلحاد.

تجاه هذا الواقع، لم يبق أمام الشعب المسيحي في لبنان، المتمسِّك بأرضه وحريته، إلاَّ أن يتكل على نفسه، وأن يقاوم ويدافع عن أرضه ومهد وجوده، مقاومة اليائس المُستيمت. حتى إن بعض قادة هذا الشعب قد صرَّح، في ظروف قاسية يائسة، بأنه مستعد للتعاون مع الشيطان من أجل إنقاذ نفسه. أما الشيطان المقصود فكان: اسرائيل.

ليس من المعقول تبرئة اسرائيل من ... دم اللبنانيين. فلقد كان، لهذه الدولة الأحدية الدين، استراتيجية مناهضة تماماً لشكل الصيغة اللبنانية والميثاق. ولقد برز هذا التناقض نافراً عندما قصد رئيس الجمهورية اللبنانية منبر الأمم المتَّحدة سنة ١٩٧٤ برفقة رئيس منظَّمة التحرير الفلسطينية، ليدعو اسرائيل إلى انتهاج نظام تعايشي بين اليهود والمسلمين والمسيحيين، شبيه بالنموذج اللبناني الذي برهن على حضارته الراقية. ولم يقابل كلام الرئيس الماروني سليمان فرنجية بغيظ اسرائيلي أقلّ من الغيظ الذي قوبل به كلام ياسر عرفات الذي اعتلى منبر الامم المتحدة معلناً أنه يحمل غصن زيتون بيد، وبندقية باليد الأخرى.

كان من الطبيعي أن تعمل اسرائيل كل ما بوسعها لتبرهن للملأ، عملياً، أن النظام اللبناني المطروح كنموذج لاسرائيل فلسطينية، إنمَّا هو محكوم بالانفجار. وسرعان ما انزلق الفلسطينيون في الفخ الاسرائيلي، سواء عن جهل أو عن تواطؤ، ليعلنوا، بعدما أشعلوا لبنان، أن طريق فلسطين تمرّ في جونيه.

وركب جميع الحاقدين والطامعين المطية الفلسطينية لينقضُّوا على المسيحيين.

تألّف لكل طائفة اسلامية ميليشيا: للسنة. للشيعة. للدروز. وكان كل من هؤلاء يسعى لأهدافه، بعضهم باطنياً تقيَّة، وبعضهم سنّة على سن الرمح. واستقطر المسلمون مرتزقة ومتعصِّبين أصوليين. واستقطر اليساريون ثوَّاراً هواة ومرتزقة. وتحالف جميع تلك القوى تحالفاً غريباً عجيباً ليؤلِّفوا جحافل حاولت اجتياح لبنان

المسيحي، فتمكّنت من أطراف المناطق المسيحية، وأعادت إلى الاذهان ذكرى القرون الغابرة القاسية، وأضحى لبنان، الذي كان يوصف بأنه سويسرة الشرق، مسرح أحداث دمويّة مروّعة، رخُص فيها الإنسان وانهارت القيم والعهود والاصول.

عانى المسيحيّون في لبنان الكثير بخلال حرب السبعينات والثمانينات من هذا القرن، مثلما عاناه أبناء سائر الطوائف التي يؤلّف مجموعها شعب هذا البلد الذي أُريد له أن يكون نموذجاً حضاريّاً متقدّماً لتعايش الاديان. وقد وُصفت هذه الحرب، التي لم يحن بعد زمن تأريخها، حيناً بأنها أهلية، وحيناً آخر بأنّها طائفيّة، وأحياناً بأنها حرب الآخرين على أرض لبنان. وقد يكون من الأصحّ عدم حصر وصف هذه الحرب بصفة واحدة من كلّ تلك الصفات، التي قد يكون جميعها صحيحاً، لا بل بالامكان إضافة صفات عديدة أخرى إليها. ذلك أن حرب لبنان قد جاءت نتيجة عوامل كثيرة، داخلية وإقليميّة ودوليّة، سوف يمضي وقت طويل قبل التمكّن من فك رموزها. إنّما الذي يعنينا في هذا المجال، أن المسيحيين في لبنان خرجوا من تلك الحرب منهوكي القوى، وليس بالإمكان، حتّى الساعة، تحديد الخسائر التي مُنُوا بها جراء تلك الحرب، وإن كانت الصورة الظاهرة تدلّ على أنّهم قد خسروا كثيراً.

واليوم يبدو للناظر سطحياً أن المسيحيين في لبنان هم في حالة إحباط، وقد يكون السذّج منهم كذلك، إلاّ أن الناظر عمودياً يدرك أن المسيحية ولبنان توأمان سياميان لا ينفصلان. ولن يكون شرق بلا مسيحية حرّة. ولن يكون مسيحية حرة في الشرق بلا لبنان.


Bibliotheca Alexandrina
0586407